المسيح

إنسان أم إله



دكتور
محمد مجدي مرجان

المسيح

إنسان أم إله

دكتور
محمد مجدي مرجان

الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ عبد الخالق ثروت - القاهرة

باسمك اللهم

مقدمة

لم يختلف الناس حول شخصية فى التاريخ قدر اختلافهم حول عيسى الملقب بالمسيح ، ولم يتناحر الناس بسبب إنسان فى الوجود قدر تناحرهم بسبب عيسى ابن الإنسان ، ولم يتقاتل الناس لشىء فى الدنيا قدر تقاتلهم من أجل عيسى ابن الله .

اختلف الناس وتناحروا وتنابذوا ، وكان اختلافهم بينا وتناحرهم شرسا وتنابذهم عميقا ، وصل فى أحد حديه إلى إنكار وجود عيسى فى التاريخ واعتباره مجرد أسطورة خيالية حاكتها أحلام الواهمين .

يقول ول ديورانت « هل وجد المسيح حقا ؟ أو أن قصة مؤسس المسيحية وثمرة أحزان البشرية وخيالها وآمالها أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشناوأوزوريس وأدونيس وديونيشس ومثراس ؟» (١)

ثم وصل الخلاف فى حده الآخر إلى اعتبار عيسى إله الكون ورب الوجود .

« أنا هو الطريق والحق والحياة ، من آمن بى ولو مات فسيحيا » (إنجيل يوحنا) .

---

(١) قصة الحضارة — جـ ٣ — ترجمة محمد بدران ص ٢٠٢ .

وبين هؤلاء وهؤلاء ، بين المكذبين والمؤلهين ، آلاف الملايين من الناس على مر العصور ، وقفوا بين الخذين ، مقتربين ومبتعدين ، مكبرين ومستهينين ، محبين وكارهين ، مادحين وقادحين ، منصفين ومغرضين .

رفعه بعضهم إلى مرتبة الآلهة ثم اختلفوا حول طبيعته الالهية هل هو إله خالص ، أم شخصية مزدوجة نصفها إله ونصفها إنسان ؟ وهل هو ذات الله أم ابن الله أم بعض الله ؟ واقترب به بعضهم إلى درجة أدنى من الملائكة ، وساواه بعضهم بالملائكة ، وارتفع به آخرون إلى مرتبة أعلى من الملائكة .

قال البعض إنه إنسان ، ثم دب بين هؤلاء البعض الخلاف هل هو نبي أم إنسان عادى ؟ وهل كان صالحا أم فاسدا ، بارا أم شريرا ، طيبا أم مشعوذا ، صادقا أم كاذبا ، عاقلا أم مجنونا ، عبدا لله أم حليفا للشيطان ؟ .

هل كان عيسى هو « المسيح » حقا ، أم هو « الكلمة » أم هو « الناصرى » — أم « ابن داود » وهل ولد حقا من عذراء كما يقول البعض ، أم حمل به سفاح كما يدعى الآخرون ، وهل ذبح عيسى حقا على الصليب أم صلب عنه آخر ؟ ولماذا صلب هذا أو ذاك ؟ أمن أجل الخطيئة الأولى فعلا ، أم من أجل ذنب ارتكبه هو ؟

خلافات ومشاحنات ، وادعاءات وتكذيبات ، حولت الرسالة

المسيحية السامية إلى شتات وشذرات ، وأوجدت الفرقة والانقسام بين أتباع الدين الواحد وعباد الله الواحد فتفرقوا مذاهب شتى وطوائف متعددة كل منها ترى المسيح عيسى من الجانب الذى يروقها ، وكل منها ينظر إليه من الوجهة التى يراها ، وكل منها يصوره على الصورة التى يبتغيها .

خلافات ومشاحنات تعدت المناقشة والمجادلة إلى الدس والوقيعة بل إلى القتال العلنى وإقامة المذابح بين أصحاب هذه النحل المختلفة . تقاتل أحباء عيسى وتقاطع أعداؤه حول طبيعته وكيانه ، وحول نفسيته وخصاله وعيسى نفسه برىء من كل هذه التوهمات أتى ليدعوهم إلى السلام والمحبة ، وإلى التآلف والرحمة فحملوا السيف أرضاء لشهواتهم ومصالحهم وظلموا عيسى وتعاليمه .

وفى هذا الكتاب محاولة للتنقيب عن حقيقة المسيح عيسى ، فى عرض لمختلف الآراء والنظريات التى اختلفت حوله ، علنا نلقى قبسا من الضوء على هذه الشخصية التى حيرت الناس فى مختلف الأزمان والبقاع ، والله يوفقنا إلى الهدى والحق .

محمد مجدى مرجان

الفصل الأول

مولد المخلص

الشعب المقدس :

بنو إسرائيل ، شعب الله المختار ، اختارهم شعبا خاصا له دون سائر الشعوب ، خلق العالم كله من أجلهم ، وخلق باقى الأمم لخدمتهم ، هم وحدهم الناس والباقون عبيد وخدم وكلاب وخنازير.
يقول يهوه إله إسرائيل لشعبه المختار « وأنتم تكونون لى مملكة أحبار وشعبا مقدسا » (خروج ١٩ — ٦) .

ويقول لهم موصيا « مباركا تكون فوق جميع الشعوب . . وتأكل كل الشعوب الذين الرب إلهك يدفع إليك ، لا تشفق عيناك عليهم » (تثنية ص ٧ : ١٤ ، ١٦) .

وفدوا إلى أرض العرب الكنعانيين ونازعوا أهلها ديارهم واغتصبوا أراضيهم ثم تضخمت أحلامهم المسعورة لا متلاك الأراضى المجاورة وإبادة أصحابها العرب فأنطقوا إلههم بما تراءى لخيالهم المريض « إن ملاكى يسير أمامك ويجىء بك إلى الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والجويين واليبوسيين فأبيدهم . . أرسل هيبتى وأزعج جميع الشعوب الذين تأتى عليهم وأعطيك جميع أعدائك مدبرين . . وأجعل تخومك من بحر سوف إلى بحر فلسطين

ومن البرية إلى النهر ، فانى أدفع إلى أيديكم سكان الأرض فتطردهم من أمامك » (خروج ٢٣ : ٢٣ — ٣١) .

وتتحدث التوراة عن الحروب التى أمر بشنها الرب يهوه ، القاسى المتكبر ، لإبادة الشعوب المجاورة وسلب أملاكها ، تقول التوراة عن إحدى هذه المذابح التى ارتكبها الشعب المقدس بأمر إلهه : « فتجندوا على مديان كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر ، وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم . . وسبى بنو إسرائيل نساء مديان وأطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم ، وكل أملاكهم ، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار ، وأخذوا كل الغنيمة ، وكل النهب من الناس والبهائم » (عدد ص ٣١ : ٧ — ١١) :

وما فعلوه مع مديان ، فعلوه مع شعوب كثيرة ، سلب ونهب ، وقتل وذبح ، وهتك حرمات وانتهاك مقدسات ، كل ذلك بأمر الله !

ولكن يبدو أن أصحاب البلاد الأصليين وخاصة الفلسطينيون لم يصبروا على هذا العنت ، فقد استطاعوا بعد صراع مرير أن ينتصروا على أبناء صهيون ، وأن يستردوا منهم بعض ما اغتصبوه وأن يستعيدوا بعض كرامتهم وإنسانيتهم ، وأن يذيقوا سفاحى الشعوب بضع قطرات من الكأس التى أسقوهم إياها من قبل . . هنا علا صراخ الشعب المختار وارتفع عويلهم ونحيبهم يستنجدون بيهوه أن يرسل إليهم مسيحا يخلصهم من أيدى الفلسطينيين ويعيد إليهم جبروتهم وتسلطهم .

المسـيح شاول :

وينتظر اليهود طويلا مجيء المخلص ، حتى يظهر شاول من سلالة بنيامين أصغر أبناء يعقوب (إسرائيل) الأثنى عشر فيقود اليهود فى حروبهم الاستعمارية ويحرز لهم انتصارات رخيصة فيسمونه المسيح المخلص ، وتقول التوراة إن الله أرسل صموئيل الكاهن ليمسح شاول ملكا على اليهود ومخلصا لهم من الفلسطينيين ، يقول يهوه لصموئيل : «غدا فى مثل الآن أرسل إليك رجلا من أرض بنيامين : فأمسحه رئيسا لشعبى إسرائيل فيخلص شعبى من يد الفلسطينيين ، لأنى نظرت إلى شعبى لأن صراخهم قد جاء إلى » وتستطرد التوراة « فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على رأس (شاول) وقبله وقال أليس لأن الرب قد مسحك على ميراثه رئيسا » (١) .

وهكذا صار شاول ملكا لليهود ومسيحا مخلصا لشعب إسرائيل .

لقب المسـيح :

ولكن من أين جاءت هذه التسمية ؟ ولماذا دعى شاول أو غيره بلقب المسيح ؟ وما الذى يعنيه هذا اللقب ؟

الواقع أن هذا اللقب يرجع إلى الشعائر التى درجت عليها الأمة اليهودية منذ أجيالهم الأولى ، بل منذ أبيهم الأول يعقوب الذى سمى « إسرائيل » والذى من صلبه خرج جميع الأسباط الأثنى عشر الذين تكون منهم ومن أبنائهم يهود الدنيا ، فمنذ عهد يعقوب « إسرائيل »

---

(١) صموئيل الاول ٩ : ١٥ — ١٦ ، ص ١٠ : ١ .

اعتبر المسح بالزيت المقدس من أعظم شعائر التقديس والتكريم للناس وللأماكن ، فكل ما يمسح بهذا الزيت يصير مقدسا لله ، ولا يمسح بهذا الزيت المقدس من الناس سوى الكهنة والملوك والأنبياء ، لذلك سمي هؤلاء مسحاء الله أي المختارين والمباركين من الله ، يروى سفر التكوين عن يعقوب أنه « بكر في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عمودا ، وصب زيتا على رأسه ، ودعا ذلك المكان بيت إيل . . أي بيت الله » (١) .

ويستطرد يهوه مذكرا شعبه بقيمة هذا الزيت المقدس الذي لا يمسح به سوى المباركين من الكهنة والملوك والأنبياء ، محذرا إياهم من محاولة تقليده أو مسح الأجانب الأنجاس به ، يقول يهوه : « يكون هذا لي دهنا مقدسا للمسحة في أجيالكم ، على جسد إنسان لا يسكب ، وعلى مقاديره لا تصنعوا مثله ، مقدس هو ويكون مقدسا عندكم ، كل من ركب مثله ومن جعل على أجنبي يقطع من شعبه » (٢) .

المسيح هارون :

وبعد أن تم صنع الزيت المقدس أمر الله نبيه موسى بأن يمسح به الهيكل والمذبح لتقديسهما ثم أمره بأن يمسح به شقيقه هارون مسيحا مقدسا للرب ، وفعل موسى حسبما أمره الله . . أخذ موسى

---

(١) تكوين ص ٢٨ .

(٢) خروج ٣٠ : ٢٢ - ٣٧ .

دهن المسحة ومسح المسكن وكل ما فيه وقدسه ، ونضح منه على المذبح سبع مرات ومسح المذبح وجميع آنيته والمرحضة وقاعدتها لتقديسها ، وصب من دهن المسحة على رأس هارون ومسحه لتقديسه (١) .

المسـيح اليشع :

ويأتى بعد ذلك إيليا فيأمره ربه بان يمسح من بعده اليشع نبيا على بنى إسرائيل ، يقول سفر الملوك على لسان الله لأيليا ، « وامسح اليشع بن شافاط . . نبيا عوضا عنك » (٢) .

ثم يتوالى بعد ذلك المسحاء فى تاريخ الشعب المقدس .

رأينا شاول أحد المسحاء الرواد يسمى مسيح الرب فهو المسيح المخلص الذى خلص إسرائيل من أيدى الفلسطينيين ، المسيح المبارك الذى لا يمسه أحد بسوء ، والذى لا يتجرأ أحد على إيذائه ، يقول دواد لرجاله محذرا إياهم من التعرض للمسيح شاول « حاشا لى من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بسيدى المسيح الرب ، فأمد يدى إليه لأنه مسيح الرب هو » .

وحين تملك أحد رجال داود من رقبة المسيح شاول وأراد قتله منعه داود قائلا « لا تهلكه فمن ذا الذى يمد يده إلى مسيح الرب ويتبرأ » (٣) .

---

(١) لاويين ص ٨ : ١٠ ـ ١٢ .

(٢) ملوك ١ : ص ١٩ .

(٣) صموئيل الاول ص ٢٤ : ٦ ـ ٨ ، ص ٢٦ : ٩ .

هكذا كانت عقيدة اليهود فى المسيح ، المختار من الله ، والمبارك من السماء ، منقذ إسرائيل ومخلص الشعب المقدس ، لا يمسه أحد بضر ، ولا يقربه أحد بأذى ، يقول يهوه لشعبه « لا تمسوا مسحاً ، ولا تؤذوا أنبيائى » (١) .

المســيح داود :

وبعد موت شاول « جاء جميع شيوخ إسرائيل . . ومسحوا داود ملكا على إسرائيل» (٢) ويترنم المسيح داود سعيداً بجعله مباركا من الله ، مختارا لخلاص شعبه ، والانتصار على أعدائهم . « الرب عزى وترسى ، عليه اتكل قلبى فانتصرت ، ويبتهج قلبى وبأغنيتى أحمده . الرب عزلهم وحصن خلاص مسيحة هو ، خلص شعبك وبارك ميراثك ، وارعهم واحملهم إلى الأبد » (٣) « برج خلاص لملكه والصانع رحمة لمسيحه، لداود ونسله إلى الأبد» (مزمور ١٩) :

ويقول عن نفسه أيضاً . . « أحببت البر وأبغضت الاثم ، من أجل ذلك مسحك الله إلهك بدهن الابتهاج أكثر من رفقاءك » (مزمور ٤٥ : ٧) .

وينادى داود ربه فى الحروب ويطلب منه النصر ... يارب إله الجنود ، اسمع صلاتى وأصغ يا إله يعقوب ، يا مجننا أنظر يا الله والتفت إلى وجه مسيحك (٤) .

---

(١) أخبار الايام الأول ص ١٦ : ٢٢ .
(٢) صموئيل الثانى ص ٥ : ٤ .
(٣) مزمور ٢٨ : ٧ — ٩ .
(٤) مزمور ٨٤ : ٨ — ٩ .

فاذا ما حاقت به الهزيمة فى إحدى المواقع ، نادى داود ربه معاتبا إياه على غضبه عليه « أنك رفضت ورذلت ، غضبت على مسيحك » (١) .

وفى الشدائد يرفع داود وجهه إلى الله طالبا منه الإستجابة لتوسلاته « أيها الرب الإله لا ترد وجه مسيحك » (أخبار الأيام الثانى ص ٦ : ٤٢) .

المســـيح سليمان :

وبعد موت المسيح داود ، أتى إبنه المسيح سليمان ملكا على اليهود ، يحدثنا كتاب الملوك الأول عن كيفية مسح سليمان « فأخذ صادوق الكاهن قرن الدهن من الخيمة ومسح سليمان وضربوا بالبوق وقال جميع الشعب ليحيي الملك سليمان » (٢) .

وفى عهد داود وإبنه سليمان عاشت إسرائيل عصرها الذهبي وازدهرت إزدهاراً لم يسبق له مثيل ، ودخلت كثير من البلاد فى طاعتها ، وتسابق الملوك والأمم فى خطب ودها ، تقول التوراة « وكان سليمان متسلطا على جميع الممالك من النهر إلى أرض فلسطين وإلى تخوم مصر » (٣) .

وفى عهد سليمان بنى هيكل الرب وكان معظمه من الذهب الخالص والأحجار الكريمة .

---

(١) مزمور ٨٩ : ٣٨ .
(٢) ملوك الاول ص ١ : ٣٩ .
(٣) ملوك الاول ص ٤ : ٣١ .

عقيـــدة المخلص :

ويبدو أن دوام الحال من المحال ، أو أن يهوه قد نسى وعده لشعبه المختار بابقاءه متسلطا على البلدان المجاورة مستعبدا شعوبها مستنزفا خيراتها ، أو يبدو أن إله الشعوب المجاورة قد أراد أن ينتقم من شعب يهوه وأن يذيقه بعض ما ذاقت شعوبه على يديه من الذلة والخسران ، فقد ذهب داود وسليمان وحل بعدهم على اليهود الهوان ، وهاجم بختنصر ملك بابل — العراق الآن — إسرائيل فى عام ٥٨٦ ق . م وجاس خلال فلسطين ، ودخل أورشليم وحمل اليهود سبايا إلى بلاده .

ونترك للأستاذ الأديب السحار وصف ما حل بالشعب المختار على يد ملك بابل :

« اندفعت عربات بابل الحربية فى طرقات أورشليم كالسهم ، وانقضت على بنى إسرائيل إنقضاض الصواعق ، ودارت فى الشوارع المؤدية إلى هيكل سليمان معارك بالسيوف والسهام ، ولما كانت قلوب بنى إسرائيل هواء قد طار منها الإيمان فقد خر الرجال أسرى أو لاذوا بالفرار . وسقطت المدينة الحصينة فى قبضة بختنصر ، فأحرق الهكيل وجمع التوراة وأشعل فيها النيران بعد أن غنم كل ما كان فى بيت المقدس ، واحتمل معه سبايا بنى إسرائيل . وزحف جيش بختنصر على مملكة يهوذا ، ودار القتال فى السامرة بين أهل بابل واليهود ، وسرعان ما خرت اليهود ساجدة تحت أقدام ملك الكلدانيين ، ونظر بختنصر إلى سبايا بنى إسرائيل وشرد

يفكر ، ثم أمر أن يجعلوا ثلاث فرق ، فلما تم تقسيمهم أقر ثلثا بالشام وثلثا سبي وثلثا أعمل فيهم القتل ، وانطلق بالغنائم والأسرى إلى بابل » (١) .

ويغلب أن هذا الإنكسار المخزى قد أطار ما بقي لليهود من ذرات العقل ، وجدد أحلامهم وأوهامهم في المسيح المخلص ، الذى يرسله الرب لتخليصهم من ربقة العبودية ، وينقذهم من مذلة الاسترقاق ، ويعيدهم إلى المدينة المقدسة « أورشليم » فليس من الممكن أن يتركهم يهوه هكذا عبيدا أذلاء للبابليين ، بل لابد أن يرسل إليهم مسيحا يخلصهم من أعدائهم ، ويستعيدون به أمجادهم . . وكثرت الأقاويل والنبوءات والأساطير والأشعار حول هذا المسيح المخلص ، شكله وأوصافه ، سلالته وأعماله ، وقت مجيئه ، وطريقة عمله ، كيفية انتصاره . . وغير ذلك من سجاياه . . أقاويل وأساطير ونبوءات وأحاجى ، نسج الخيال لحمتها وسداها وحاك الضيق خيوطها وسواها .

المسيح الكافر :

وطال باليهود العذاب والانتظار لمجيء المخلص إلى أن أتى قورش المجوسى ملك الفرس — إيران حاليا — ومؤسس الامبراطورية الساسانية فى فارس فحارب البابليين وهزمهم وفك أسرى اليهود فى بابل . وسمح لهم بالعودة إلى القدس وإعادة بناء هيكل الله ، فهلل اليهود بالفرح وعمتهم الغبطة والحبور ، واعتقدوا أن كورش

---

(١) عبد الحميد جودة السحار — وعد الله واسرائيل ٢٢—٢٣

الوثنى هو المسيح المخلص الذى أرسله يهوه لانقاذهم من أيدى البابليين ، فأطلقوا عليه لقب المسيح ، فهو مسيح الله الذى أمسك الرب بيمينه ليدوس به الأمم ويحطم الملوك ، يقول نبيهم أشعياء عن المسيح قورش « هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذى أمسكت بيمينه لأدوس به أمما وأحقاء ملوك ، لأفتح أمامه المصراعين والأبواب المغلقة » (١) .

وما هى إلا فترة ينعم فيها اليهود بشىء من الرخاء والحرية ، وقبل أن يستبد بهم شيطان الغرور والتسلط ، يدهمهم سلطان الامبراطورية الرومانية الزاحف ، فيفتح الغزاة بلادهم ويطوونها تحتهم مستعمرة رومانية ضئيلة يقطعون أوصالها أجزاء وأشلاء ، يمنحونها لقوادهم وضباطهم إقطاعيات صغيرة يتحكمون فى أرضها وأهليها ، يقتلون الرجال ويستحيون النساء ، ويحسبون على الناس كلماتهم وألفاظهم ، وحركاتهم وسكناتهم ، بل يعدون عليهم الأنفاس والخلجات . يروى فالتون أورسلر جانبا من الصورة التى كان يعيشها اليهود أثناء حكم الرومان « كان الخطر حقيقيا فان جواسيس الرومان منتشرون فى كل مكان ، ومن الجنون المطبق أن يتناقش الناس فى الشئون السياسية ، فقد طالما ساق جنود الرومان المتحدثين إلى العذاب والموت ، حتى تعلم الناس ألا يعلنوا آراءهم أبدا ، وقد اندلعت فى القرن الأخير ثورات كبيرة ، ولا يزال من المواطنين مئات يعيشون فى جبال الجليل وتلاله ليتصيدوا الرومان

---

(١) اشعياء ص ٤٥/١ .

حيثما استطاعوا ، ثم لم تبرح الأمة تدفع ثمن كل هذا غاليا ، فكم من خيرة الشبان لاقوا حتفهم فى تلك الثورات الهزيلة المقضى عليها مقدما وكم أعدم الرومان آلافا ليكونوا عبرة لغيرهم ، حتى أقفرت البلاد من شبانها ، ومع ذلك فلا يزال الرومان هناك ، ليس فى الجليل وحده حيث الناصرة أكبر بلد ، ولكن فى اليهودية وفى « أورشليم » العاصمة الذهبية وفى كل الأقليم الواسع الذى عرف أمجاد « يوشع » وقوة « داود » وحكمة « سليمان » وأبهته ، إنه الآن يدفع الجزية صاغرا للامبراطور « أوغسطس قيصر » (١) .

المسـيح عيسى :

وهكذا تجددت باليهود الأحلام والأوهام فى ظهور مسيح جديد يخلصهم من ربقة الرومان ويعيد إليهم حريتهم ومجدهم الغابر ، ويحقق لهم وعد إلهم يهوه بجعلهم العنصر المميز بين الشعوب ، وباقامة الامبراطورية الأرضية التى عاصمتها أورشليم ، وبتسخير باقى شعوب الأرض لخدمتهم .

تجددت باليهود الأحلام والأوهام ، وكثرت الأقاويل والتكهنات وتعددت الأساطير والأقاصيص عن هذا المسيح المخلص ، بعضها يصوره ملكا من كبار الملوك الغابرين قام من الموت ليخلص شعبه كالملك داود أو حزقيا أو يهو شافاط ، وبعضها يصوره نبيا من

---

(١) فالتون أورسلر « الانسان الخالد » ترجمـة رمسيس جبراوى ص ١٣ .

الأنبياء كالنبي إيليا أو اليشع بعث من موته لخلاص شعبه ، وبعضها يراه من سلالة داود ، وآخرون وآخرون . . . . .

يقول الأستاذ فتحى عثمان « كان الشعور العام ينتظر ظهور « المسيح » من نسل داود كقائد شعبى كبير يستخدم المعجزات والخوارق للانتصار على الأعداء ، وكان البعض ينتظر من « المسيح » صراعا دمويا . . وجاءت كتابات « الرؤى الرمزية » تعكس هذه المشاعر والآلام ، لقد كتبت لتشجع قوما فى شدة الضيق والمتاعب فهى تصور لأحلامهم قضاء قريباً سريعا على الشر ، وسعادة ومجدا للمؤمنين » (١) .

كانت أكثر الأحاجى انتشارا فى ذلك الوقت أن المسيح المخلص سوف يأتى من ذرية داود وينتصر انتصارا سريعا حاسما على الأعداء ، ويحرر إسرائيل ويتخذ أورشليم عاصمة لملكه ، ويضم الناس جميعا تحت لواء سلطانه ، ليؤمنوا بيهوه وبالشريعة اليهودية .

وهنا يثور التساؤل . . لماذا يأتى المسيح المنتظر من نسل داود بالذات ؟ والجواب أن اليهود ما زالوا يتراقص أمام أعينهم العصر الذهبى الذى عاشوه أيام داود وسليمان ، حين تعاظم داود وسليمان على كل ملوك الأرض فى الغنى والقوة وحين كانت الأرض كلها ملتمسة وجه داود وسليمان ، وحين خضعت لليهود الأمم والشعوب ، ودانت لهم الجباه والرقاب ، بل مازال اليهود يذكرون وعد يهوه

---

(١) فتحى عثمان : مع المسيح فى الاناجيل الاربعة ص ٦٠ .

للمسيح داود بأن يثبت كرسى مملكته إلى الأبد ، مبقيا سلالته ملوكا على عرش إسرائيل ، يقول كتاب صموئيل الثانى عن داود « هكذا قال رب الجنود : أنا أخذتك من المربض من وراء الغنم لتكون رئيسا على شعبى إسرائيل وكنت معك حيثما توجهت وقرضت جميع أعداءك من أمامك وجعلت لك اسما عظيما كاسم العظماء الذين فى الأرض ، عينت مكانا لشعبى إسرائيل وغرسته فسكن مكانه ولا يضطرب بعد . . والرب يخبرك أن الرب يصنع لك بيتا متى كملت أيامك واضطجعت مع آبائك ، أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبت مملكته ، هو يبنى بيتا لأسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد » (١) .

ويؤكد يهوه لسليمان وعده الذى وعد به داود أباه « إنى أقيم كرسى ملكك على إسرائيل إلى الأبد وكما كلمت داود أباك قائلا : لا يعدم لك رجل عن كرسى إسرائيل » (٢) .

هكذا كان حال اليهود ، كلما حلت ببلادهم المتاعب وصادفتهم الأهوال ، واستباحهم الغزاة واستعبدهم الفاتحون ، كانوا يستصرخون يهوه أن يرفع عنهم العذاب ، ويزيل عنهم المذلة ويبعث إليهم بطلا مغوارا ، ومسيحا مختارا ، يخلصهم من أعدائهم ، ويرد إليهم شوكتهم ومنعتهم .

---

(١) صموئيل الثانى ص ٧ : ٨ — ١٣ .
(٢) ملوك الاول ص ٩ : ٣ — ٥ .

والواقع أن هذه الأحلام والآمال التى كانت تراود اليهود فى أوقات الضيق كانت ترددها أيضا معظم الديانات الغابرة ، وكانت تراود معظم الشعوب القديمة ، خاصة فى أوقات الكوارث والنكبات ، فهى وسيلتهم للتنفيس عما يعانونه من الكروب والضيقات ، وهى أملهم فى النجاة والفرج ينسجونها أساطير تخفف من ألم الواقع ، وأوهاما تلطف من قسوة الحقيقة ، وأحلاما ترطب من لهيب الظروف .

يقول الأستاذ العقاد « . . يدل علم المقارنة بين الأديان على شيوع الإيمان بالخلاص وظهور الرسول المخلص فى زمن مقبل ، وظهر من عقائد القبائل الحمر فى القارة الأمريكية أن القبائل التى تؤمن بهذه العقيدة غير قليلة فى الأمريكتين ، وليس فى هذا عجب ، لأن الرجاء فى الخير أصل من أصول الديانة ، والأمل فى الصلاح مادة من مواد الحياة الإنسانية فى طلب الكمال والخلاص من العيوب ، وقد يشتد هذا الأمل حين تشتد الحاجة إليه ، فكان المصريون الأوائل يترقبون المخلص المنقذ بعد زوال الدولة القديمة . . وكان البابليون يؤمنون بعودة مردخ إلى الأرض فترة بعد فترة لقمع الفتنة وتطهيرها من الفساد ، وكان المجوس يؤمنون بظهور رسول من إله النور كل ألف سنة ينبعث فى جسد إنسان » (١) .

ويعترف الكاتب الأمريكى فالتون أورسلر أن فكرة المسيح

---

(١) عباس العقاد : حياة المسيح ص ٢٨ .

المخلص ما هى إلا أسطورة يهودية ترددها معظم الشعوب القديمة ، فيورد هذه الحقيقة على لسان صموئيل أحد أبطال قصته ردا على يوسف النجار زوج مريم « ألا ترى يا يوسف أن هذا كله ما هو إلا أسطورة قديمة رويت بكل اللغات ، وتعلمها كل الديانات السخيفة ، وقد يصح القول أنك تتكلم عن الهندوس فى الهند ، أو عن الإيرانيين فى فارس أو عن اليونانيين . . ألا ترى أنك قد أسست رأيك على قصة خرافية ، أنك تؤمن بخرافة عالمية » (١)

كان صموئيل هذا يدعو يوسف النجار إلى المشاركة فى تحرير بلاده وإلى الانضمام إلى جماعة من الثوار يحاربون الرومان ، ويخلصون اليهودية من مهانة الاستعباد ، ولكن يوسف كان يؤمن بالخرافة العالمية ، أن الله سيرسل إليهم مسيحا مخلصا يقضى على الرومان ويعيد إلى إسرائيل مجدها وسؤددها ، فلماذا الجهاد والنضال ؟ ولماذا التعب والمشقة فلننتظر فقط فرج الله ! !

كانت هذه فكرة المسيح عند اليهود ، بدأت بمسح الكهنة والملوك والأنبياء بالزيت المقدس ، وتطورت خاصة فى الضيقات والملمات إلى فكرة المخلص الذى يرسله يهوه لتحرير شعبه المقدس وإخضاع باقى الأمم والشعوب لهم ، والفكرة بعد تطورها لم تكن إلا نوعا من التنفيس عن الكرب الذى يحس به شعب مستعبد ، ينتظر يوم

(١) فالتون أورسلر : الانسان الخالد ص ٤٩ .

الخلاص على يد بطل من أبطاله ، ولا يخلو تاريخ شعب من الشعوب أو دين من الأديان القديمة من الروايات والأساطير التى حيكت حول الأبطال المخلصين والمسحاء المختارين ، يصورونهم ملوكا أو آلهة ، أو أنصاف آلهة أو أبناء آلهة ، قد ينزلون من السماء أو يخرجون من بطن الأرض ، وقد تلدهم عذارى أو تلقى بهم عروس البحر ، المهم أنهم أشخاص غير عاديون سيبدلون الحال حالا ، وسيحيلون العذاب هناءة ، والذل عزا ، والضيق فرجا ، والحزن فرحا .

مـــولد عيسى :

فى وسط هذه الظروف ولد عيسى ، ولد فى الوقت الذى كانت روما تدوس فيه أعناق اليهود بأقدامها ، فى عهد أوكتافيوس الملقب بأغسطس قيصر امبراطور الرومان الذى امتد حكمه من سنة ٢٧ ق. م إلى سنة ١٤ ميلادية ، حيث كانت إسرائيل ولاية رومانية صغيرة ممزقة إلى مدن متفرقة يحكم كلا منها وال أو أمير من قبل الرومان وقد يخلع عليه من قبيل التجاوز لقب ملك ، ولد عيسى فى مدينة صغيرة تدعى بيت لحم على بعد ستة أميال جنوبى العاصمة أورشليم ، ولد من أم يهودية تدعى مريم كانت وقتئذ مخطوبة لنجار يهودى فقير اسمه يوسف ، ونترك الأناجيل تحدثنا عن قصة ميلاد عيسى .

يقول إنجيل متى « أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا ، لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى

من الروح القدس (١) فيوسف رجلها إذ كان رجلا بارا ولم يشأ أن يشهرها أراد تخليتها سرا ، ولكن فيما هو متفكر فى هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له فى حلم قائلا : يا يوسف ابن داود لا تخف أن تأخذ مريم إمرأتك ، لأن الذى حبل به فيها هو من الروح القدس ، فستلد أبنا وتدعو اسمه يسوع ، لأنه تخلص شعبه » (٢) ويستطرد إنجيل متى فى الأصحاح الثانى قائلا . . ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك إذا مجوس من الشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين : أين هو المولود ملك اليهود ؟ فاننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له ، فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح ؟ فقالوا له فى بيت لحم اليهودية لأنه هكذا مكتوب بالنبى : وأنت يابيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبى إسرائيل (٣) .

ويؤكد الحوارى لوقا أن عيسى هو المسيح المنتظر الذى سيخلص إسرائيل من أعدائها وسيجلس على عرش داود أبيه ، وسيدخل الشعوب والأمم فى طاعة الشعب المختار « ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ، ولا يكون لملكه نهاية » (٤) .

---

(١) انظر معنى الروح القدس فى كتاب « الله واحد » للمؤلف — الفصل السابع .
(٢) متى ص ١ : ١٨ — ٢١ .
(٣) متى ص ٢ : ١ — ٦ .
(٤) لوقا ص ١ : ٣٢ .

وتمضى الأناجيل فى شرح كيفية ميلاد عيسى فتقرر أن أمه وضعته فى اسطبل للبهائم ملحق بأحد الفنادق الريفية الصغيرة ، وأن بعض الرعاة الوثنيين قد أتوا إلى مكان ولادته وسجدوا له وقدموا بعض الهدايا باعتبار أن المولود سيكون ملك اليهود ، وأن ملك البلاد الحالى هيروديس المعين من قبل الرومان قد خاف ، اضطرب عندما علم بمولد الطفل ، وخشى على ملكه الذى سيتولى عليه عيسى فأقام مذبحة قتل فيها جميع الأطفال الذين فى بيت لحم وفى كل تخومها ظنا منه أن الطفل عيسى ملك اليهود سيكون بينهم ، ولكن مريم وزوجها يوسف كانا قد هربا بالطفل إلى مصر ولم يعودا إلا بعد موت هيروديس .

وتكثر الروايات والأقاصيص وتتشعب التفاصيل والفروع التى تتفق حينا وتختلف أحيانا بين الأناجيل ، ويعنينا هنا معالجة أمرين : ميلاد عيسى من عذراء ، ونسب عيسى .

ابن العـــذراء :

تروى الأناجيل أن مريم حبلت بعيسى وولدته قبل أن تتصل برجلها يوسف وقبل أن تنجب من صلبه إخوة عيسى الآخرين ، أى أن عيسى دون باقى إخوته ، قد ولدته أمه وهى ما زالت عذراء. ولقد اختلفت الآراء فى حقيقة هذا الميلاد العذراوى ، البعض يرونه أسطورة تكمل رواية المسيح المخلص فلطالما رددت الشعوب القديمة الأقاصيص والروايات عن الأبطال والآلهة الذين ولدوا من عذراوات ، فكان الفرس مثلا يعتقدون أن زرادشت ولد

من أم عذراء ، وكان المصريون يعتقدون ذلك فى رع ، والصينيون فى فوهى ، والروم فى أتيس وهكذا ...

بل إن الأناجيل نفسها تحدثنا أن هذا الحادث قد جعل أقرب الناس إلى مريم وهو خطيبها يوسف يفكر فى تركها عندما علم بموضوع حملها مما جعل مريم تتكتم الخبر بعد ذلك على أعز الناس إليها . . وولد عيسى فعرفه الناس على أنه ابن يوسف النجار زوج مريم وتربى الولد وكبر وهو لا يعرف لنفسه أبا غير يوسف ، ولم تستطع مريم وزوجها التصريح لأحد بأن عيسى قد ولد قبل اتصالهما ببعضهما .

ومع ذلك فقد تناقل الناس أخبار حمل مريم قبل الأوان ، وترددت بينهم الأقاويل والشائعات ، بعضها يرميها بأقذع الصفات فيتهمها بالفاحشة وبالحمل سفاحا من أحد الغرباء أو الجنود الرومان ، وبعضها يخفف من غلوائه ويلطف من قسوته فيؤكد أن مريم وخطيبها يوسف قد أرقهما الحب فاتصلا ببعضهما قبل الأوان فكان حمل عيسى .

وكانت الرواية الأخيرة أكثر الروايات إشفاقا على مريم المسكينة التى أقض مضجعها الحمل ، وسهد ليلها وأضنى نهارها ، ماذا سيقول الناس عنها ؟ هل سيصدقون أنها حملت دون أن يمسها رجل ؟ لا شك أنها رواية بعيدة عن التصديق . ومن دأب الناس فى كل زمان ومكان الميل إلى تصديق الجوانب السيئة فى الرواية ، وترجيح جانب الدنس على جانب الفضيلة فيها . بل لقد رأى البعض أنها

حتى لو حملت وما زالت عذراء ، فكم من النساء حملوا وما زالوا عذارى ، فقد يتصل الرجل المرأة ولا يفض بكارتها ولكنها تحمل منه ، وقد تلبس الفتاة ثوبا علقت به بعض الحيوانات المنوية ، فينسل آحدها إلى رحمها ويحدث الحمل وهى لم تلتصق بـ جل ، كل ذلك يحدث فى الواقع مرات ومرات ، وكل ذلك ثار فى أذهان الناس عندما علموا بخبر حمل مريم ، وكان كل حديث منها أقرب إلى التصديق من القول بأن حملها كان بارادة الله ، بل كانت أكثر الروايات شيوعا هى حملها سفاحا من رجل أجنبى .... كانت أقاويل الناس كالمدى تقطع من مريم الأحشاء وتمزق النفس ، وكانت نظراتهم المتبجحة وضحكاتهم الساخرة عند مرورهم بها تسرى كالسم الزعاف فى جسدها ودمائها ، ولطالما تمنت الموت على الحياة وسط هذا الجحيم ، فاعتزلت الناس هى ورجلها يوسف ، وارتحلت من قريتها الناصرة إلى بلدة بيت لحم حيث لا يعرفها أحد ، ولا يسمع عنها أحد .

يقول ول ديورانت « أما القصص التى أذاعها سلسس فيما بعد عن مريم وجندى رومانى فالنقاد مجمعون على أنها افتراء سخيف ، وأقل من هذا سخفا تلك التى تذكر أكثر ما تذكر فى الأناجيل المحذوفة عن مولد المسيح فى كهف أو اسطبل ، وعن سجود الرعاة والمجوس له وعبادتهم إياه ، وعن مذبحة الأبرياء ، والفرار إلى مصر ، وإن كان العقل الناضج لا يرى ضيرا فى هذا الشعر الشعبى . . ويلوح أن مولد المسيح من عذراء نشأ فى عصر متأخر عن الاعتقاد بأنه

من نسل داود » (١) .

وكم من الناس صدق الأكذوبة ، وكم من الناس جعل نفسه بوقا لإذاعتها ، مريم حملت سفاحا ، وابنها عيسى ثمرة علاقة محرمة ، وما زالت قصة ميلاد عيسى من عذراء محل استهزاء اليهود وتهكمهم ، وما زالوا يعتقدون حتى الآن أن عيسى ولد من الفحشاء والدنس ، وكم لمز اليهود عيسى فى حياته ورموه بهذا الوصف ، وتندروا عليه بهذه الضعة فى مولده ، قالوا له متفاخرين « إننا لم نولد من زنا »(٢) أى أننا لسنا مثلك من أولاد الزنا بل إن لنا آباءنا الشرعيين ، وليت الأمر اقتصر على اليهود ، بل إننا نجد من المسيحيين أنفسهم من يتشكك فى هذا الميلاد العذراوى ، ومن يعرض عن ذكره تكذيبا ونفيا ، يقول الدكتور بترسون سميث « رأيت من اللائق أن أفرد فصلا خاصا لميلاد المسيح العذراوى الذى نجم عنه شيء من الريبة فى بعض العقول ، بل أنه خلال حياة المسيح لم يفكر أحد قط من التلاميذ أو خطر بباله ميلاده من عذراء ، ذلك أن الأم العذراء التى حفظت جميع الأمور فى قلبها تكتمت الأمر ولم تفشه إلا لنفر قليل من الأخصاء ، وذلك لدقة الأمر وبعده عن التصديق ، فعرف السيد المسيح بأنه ابن يوسف النجار خطيب العذراء مريم وقتئذ ، والتاريخ يروى لنا كل الفريات المستقبحة التى أذاعها الناس عن

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة — ج ٣ — ص ٢١٤ .
(٢) يو ٨ : ٤٠ .

مريم وقتئذ ، حتى ارتاب خطيبها فى طهارتها وعفتها ، وأراد أن يخليها سرا ، وأخيرا علم بالأمر ولكنهما تكتماه عن الجموع ، وما كان يمكن أن يذيعاه فى عالم مشبع بالشكوك والافتراءات التى لم يكن من الممكن أن تفهم ذلك الاختيار الفريد الفذ » (١) .

وفى وسط هذه الترهات والشائعات التى جعلت ميلاد عيسى العذراوى مادة للتسلية والترويح والسخرية بعيسى وأمه ، ووسيلة للتهكم والتقريع ، كان يمكن للقرآن أن يؤيد شائعات اليهود ، أو أن يسكت تماما عن قصة الميلاد العذراوى فلا يعد لها فى التاريخ وجود ، ويذكر الناس عيسى كما ذكروه دائما على أنه ابن مريم وزوجها يوسف النجار ، ولكن الحق الصادر من لدن الرحمن يؤكد حقيقة الميلاد يذكرها رغم تكذيب الكثيرين ، يؤكدها ليرفع من قدر عيسى وأمه ويدرأ عنهما ما لصق بهما من أوزار المنكرين .

يبدأ القرآن بذكر تبشير جبريل لمريم بغلامها الزكى ، يقول سبحانه « واذكر فى الكتاب مريم إذا انتبذت من أهلها مكانا شرقيا ، فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا إليها روحنا (٢) فتمثل لها بشرا سويا قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا ، قالت . أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أكُ بغيا ، قال : كذلكِ قال ربكِ هو علىّ هيّنٌ ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا »(٣) .

(٢) بترسون سميث : حياة يسوع - ترجمة حبيب سعيد ص ٢٤ .

(٢) جبريل عليه السلام .

(٣) سورة مريم ١٥ - ٢٠ .

ثم يستطرد القرآن فى ذكر الآلام النفسية التى تعرضت لها مريم بسبب الحمل وابتعادها عن الناس اتقاء ألسنتهم الجارحة ونظراتهم الوقحة ، حتى أنها فضلت الموت على الحياة ، ويذكر أقاويل الناس وافتراءاتهم ، وتهكمهم وتقريعهم للعذراء المسكينة ، بقوله جل وعلا « فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت : يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا ، فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهزى إليك بجزع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا ، فكلى واشربى وقرى عينا ، فإمَّا ترينَّ من البشر أحدا فقولى إنى نذرتُ للرحمن صوما فلن أكلِّم اليومَ إنسيا ، فأتت به قومها تحمله قالوا : يا مريمُ لقد جئت شيئا فريا ، يا أخت هارون ما كانَ أبوك امرأ سوء وما كانت أمُّك بغيا » (١) .

هذا هو القرآن ، حديث الرحمن ، يرفع عن مريم وإبنها قالة السوء ويطهرها من الدنس والفاحشة ، ويرفع عن إبنها نجاسة الأصل وسوء المنبت ، يرفع مريم من درك الزانيات والبغيات إلى مرتبة الطهر والعفاف ، بل إلى درجة القداسة والاصطفاء ، يرفعها إلى أعلى المراتب بين نساء العالمين وهى التى رماها قومها بالسوء والدنس.

يقول الكتاب الكريم « وإذ قالت الملائكة : يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » « (٢) بل إن القرآن يجعل التقول على مريم بهذه الأكاذيب التى اخترعها قومها فى درجة مساوية للكفر ، فمن ينكر ولادة عيسى بن مريم وهى عذراء فهو فى مرتبة واحدة مع الكافر ، لاينفعه إيمانه ، ولايشفع له دينه

---

(١) سورة مريم ٢١ — ٢٧ .

(٢) سورة آل عمران ٤١ .

وإسلامه ، يقول تبارك وتعالى عن اليهود أعداء الحق « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما » (١) فالتقول على مريم بهتان وكذب ، والخوض فى عرضها الشريف إثم وكفر ، يستحق فاعله عذاب الجحيم .

هذا هو الميلاد العذراوى لعيسى ، ينفيه الكثيرون ويتندر به الكثيرون ، ويتشكك فيه الكثيرون ويخشى ذكره الكثيرون ، حتى كتاب الأناجيل أنفسهم لم يشر إليه منهم سوى متى ولوقا ، أما الباقون فيعرضون عن ذكره ، حتى بولس رسول المسيحية ويوحنا حبيب عيسى لا يذكران شيئا عن هذا الميلاد ، وكأنه شىء يخشى الخوض فيه أو الحديث عنه ، مخافة السخرية والتهكم ، أو مخافة الظن والشكوك . ولكن القرآن حديث الرحمن ، لا ينطق إلا بالحق للناس أجمعين ، فيذكر الميلاد العذراوى لعيسى ويتعرض له ويخوض فيه ويؤكده ، ويقضى على الشائعة وعلى الشكوك ويلقم المستهزئين والمتهكمين حجرا ، بل إن القرآن يذكر لعيسى معجزة حدثت عند مولده لا تقل فى روعتها عن معجزة ميلاده من عذراء ، معجزة لم يرد لها ذكر فى كل الأناجيل ، تلك هى معجزة حديث عيسى إلى الناس بمجرد ولادته ، وهو ما زال فى المهد طفلا لم تمض على ولادته ساعات ، حديث أنطقه به الله ليؤكد براءة أمه وخلو ساحتها ، وليدفع عنها ألسنة السوء وسياط التقريع . أتت مريم تحمل إبنها فقابلها الناس كالجلادين . . من هذا ؟ وابن من هذا ؟ . . ومن أين أتت به ؟ ومن أى رجل حملت به ؟ وفزعت مريم وتلفتت حولها فلم تجد أحدا تستنجد به غير هذا الرضيع الذى يعرف الحقيقة كلها ولكنه لا ينطق ، فأشارت إليه فى يأس واستكانة ، فأنطقه الله

---

(١) سورة النساء ١٥٥ .

بالحقيقة ، يقول سبحانه « فأشارت إليه قالوا : كيفَ نُكلم من كان في المهد صبيا ، قال : إنى عبدُ الله أتانىَ الكتابَ وجعلنى نبيًّا ، وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاةِ والزكاةِ ما دمت حيا ، وبرًّا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا » (١).

هذا هو القرآن ، حديث الحق من لدن الرحمن ، يؤكد معجزة الميلاد ، ويذكر أيضا حديث الميلاد ، ويقضى على شائعات اليهود ، ويمحو تشككات المسيحيين ، ويجعل مريم وابنها آية للعالمين ، ولو كان من عند غير الله ، لشايع هؤلاء وهؤلاء ، أو لغفل عن هذا وذاك ، ولترك الكذب يقضى على الصدق كما يحدث كثيرا ، ولكن الحق تبارك وتعالى ينصر الصدق فى النهاية ويقضى على الكاذبين .

نسب عيسى :

قلنا أن عيسى ولد فى وقت كانت فيه إسرائيل مستعمرة رومانية صغيرة ، مقطعة الأوصال مهيضة الجانب ، مذلولة الكرامة ، تستصرخ ربها يهوه أن يرسل إليها مسيحا يخلصها من عبودية الرومان ويعيد إليها مجد داود وذهب سليمان .

ولد عيسى وسط هذه الآلام والآمال ، وحاول كتاب الأناجيل أن يلقوا فى روع الناس أن عيسى هو المسيح المنتظر ، المسيح الجديد ، الذى أتى ليخلصهم من عبودية روما ويعيد إليهم مجدهم الضائع ، وتهافت كتاب الأناجيل على استدعاء آيات العهد القديم ، واستنطاق أنبياءه قسرا ، وتحوير الكلمات والروايات التى تحدثت عن المسيح المنتظر ليكون المقصود بها عيسى ، وتعديل الأوصاف والأشكال التى قيلت عن المسيح لتصدق على عيسى ،

---

(١) سورة مريم ٢٨ — ٣١ .

بل شكلوا عيسى نفسه ليوضع فى قالب المسيح المخلص . ولقد سبق أن ذكرنا أن أكثر النبوءات شيوعا عن المخلص الذى سيرسله الله لتحرير إسرائيل أنه سيكون من سلالة داود ، ملك العصر الذهبى لليهود ، من أجل هذا قرر كتاب الأناجيل أن عيسى من سلالة داود ، وأجبروا مريم فى صحفهم على أن تترك بلدتها الناصرة وتذهب إلى مدينة بيت لحم التى كانت منبت داود لتلد فيها عيسى .

ولكن هؤلاء الكتاب قد وقعوا هنا فى مأزق عجيب ، بل وفى تناقض صارخ ، فبينما يقررون أن عيسى ولد من مريم دون أن يمسها رجل ، يعودون فيقررون — جريا وراء أسطورة المسيح المخلص — أن عيسى من نسل داود ، ولو كان عيسى ينتسب إلى داود من جهة أمه مريم لكان أمرا من الممكن قبوله ، أى لو كانت مريم من ذرية داود لكانت نسبة عيسى إلى داود أمرا مفهوما ، ولكن الدهشة تعلو وجوهنا عندما نراهم يربطون بين عيسى ودواد عن طريق يوسف النجار . يقول الحوارى متى عن نسب عيسى « كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم ، إبراهيم ولد اسحق ، واسحق ولد يعقوب ، يعقوب ولد يهوذا إخوته ، ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامار . . ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التى ولد منها يسوع الذى يدعى المسيح فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلا ، ومن داود إلى سبى بابل أربعة عشر جيلا ، ومن سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلا » (١) .

ويتحدث لوقا أيضا عن نسب عيسى رابطا بينه وبين داود عن طريق زوج أمه يوسف النجار يقول لوقا إن مريم كانت مخطوبة

(١) متى ص ١ : ١ — ١٧ .

لرجل من بيت داود اسمه يوسف . . ثم يستطرد لوقا فيؤكد أن عيسى سيخلف جده داود على عرش إسرائيل ، ويعطيه الرب الاله كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ، ولا يكن لملكه نهاية (١) .

هكذا ربطوا بين عيسى ودواد برابطة الدم والقرابة ، وجعلوا أولهما فرعا للثانى وخارجا من صلبة ، كل هذا عن طريق رجل تؤكد الأناجيل أنه لم يمس مريم أثناء حملها بعيسى ، ولم يضاجعها إلا بعد مولده ، فكيف يسوغ هذا فى العقل والمنطق ؟ الواقع أنهم قد وقعوا هنا فى مأزق خطير ، لقد أرادوا أن يلبسوا عيسى ثوب المسيح المنتظر فخلعوا عليه كلية أوصافه ولم يبق إلا أن يكون عيسى من نسل داود ، ولما كانت مريم أم عيسى ليست من نسل داود فلم يكن بد من أن يربطوا بينها وبين رجل من سلالة داود هو يوسف ، ربطوا بين مريم ويوسف برباط الحب والخطبة ، وجعلوا من يوسف خطيب مريم أبا لعيسى وأصلا له فعلوا ذلك فى الوقت الذى اختارت فيه السماء مريم لتلد إحدى معجزات الله ، فشوهوا بذلك من قيمة المعجزة ، وجعلوا مريم تنشغل بخطيب ظنه الناس عاشقا ورفيقا ، بل تمادوا فجعلوا يوسف والد عيسى ، كل ذلك ليكون عيسى ابن داود . والواقع أنهم بجريهم وراء أسطورة المسيح المخلص ومحاولتهم خلع لباس المسيح على عيسى ، قد جردوا عيسى ابن العذراء من ميزته الكبرى ومعجزته العظمى ، جردوه من حيث لا يشعرون من معجزة ميلاده دون زرع رجل ، بل وصموه وأمه دون أن يشعروا بأشنع الأوصاف وأحط الاتهامات ، فسايروا بذلك

---

(١) لوقا ص ١ : ٢٧ ، ٣٢ -- ٣٣ .

افتراءات اعدائه عن دنس مولده وفحش أمه . هكذا فضلوا الأسطورة على الحقيقة ، فضلوا أسطورة المسيح ابن داود على حقيقة عيسى ابن العذراء ، جعلوا عيسى المسيح بن يوسف ابن داود ، ورفضوا أن يكون عيسى المبارك صاحب الميلاد المعجز الفريد :

وفى رواياتهم عن نسب عيسى نرى بعضهم يقرر أن يوسف والد عيسى ابن يعقوب بينما يقرر البعض الآخر أن يوسف ابن هالى وليس ابن يعقوب ، وخلاف آخر نراه بينهم حول الجد التالى لعيسى من أبناء داود أهو سليمان أم ناثان ، فنرى البعض يذكر أن عيسى من أبناء سليمان بن داود ، بينما يذكر آخرون أن عيسى من أبناء ناثان وليس سليمان ، وعند سرد الأجيال التى انقضت بين زمن عيسى وزمن داود يقرر البعض أنه مر منذ زمن عيسى إلى داود ٢٦ ستة وعشرون جيلا بينما يذكر آخرون أن بين الاثنين واحدا وأربعين جيلا .

قلنا إن الربط بين عيسى ويوسف وداود برابطة القرابة وإن كان قد خدم القول بأن عيسى هو المسيح المنتظر إلا أنه هدم معجزة ميلاد عيسى الفريد ، وهذا ما دعا الكثيرين إلى إغفال ذكر حادث الميلاد لما أحاط به من شبهات وافتراءات ، بل إن الكثيرين من تلاميذ عيسى اللصيقين به لا يعرفونه إلا بأنه ابن يوسف . يروى الحوارى يوحنا محاورة جرت بين اثنين من التلاميذ كانا يتحدثان عن عيسى يقول يوحنا أن « فيلبس وجد نثنائيل وقال له : وجدنا

الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء ، يسوع ابن يوسف الذى من الناصرة » (١) .

وعرف الجميع عيسى على أنه ابن يوسف ، شقيقا لأخوته الآخرين أبناء النجار ومريم ، يقول متى « ولما جاء إلى وطنه كان يعلمهم فى مجمعهم حتى بهتوا ، وقالوا : من أين لهذا هذه الحكمة والقوات ؟ أليس هذا ابن النجار ؟ أليست أمه تدعى مريم ؟ وإخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا ، أو ليست أخواته جميعا عندنا ؟ (٢) .

طمسوا معجزة الميلاد سعيا وراء أسطورة قديمة . . قضوا على عيسى ابن العذراء ليقيموا المسيح ابن داود ، مخلص إسرائيل وباعث مجدها ، ولو كان ابن النجار مطعون النسب سيء المنبت ، قضوا على ابن العذراء وأعطوا أعداءه سهاما ومدى ينهشون بها عرض أمه البتول ، ورفض أغلبهم ذكر شيء فى أنجيله عن معجزة الميلاد وكأنها عار أو فضيحة يجدر ابقاؤها فى طى الكتمان ، وحتى من ذكر المعجزة منهم فانه كان فى سردها أقرب إلى الشك منه إلى اليقين ، مما أزكى لهيب الشائعات فاندفعت تنتشر بين الناس انتشار النار فى الهشيم ، وتساءل الناس أحقا عيسى ابن العذراء كما يدعى البعض ؟ أم أنه ابن يوسف ؟ هل ولد عيسى حقا بغير أب ؟ وضحك الناس ، استهزؤا بالمعجزة وكأنها خرافة وضرب من الخيال ،

---

(١) يوحنا ص ١ : ٤٤ — ٤٥ .
(٢) متى ص ١٢ : ٥٤ — ٥٦ .

ومالوا إلى تصديق الشائعات والأكاذيب التى كان أخفها وقعا القول بأن يوسف قطف الثمرة قبل الأوان ، وضاجع مريم قبل الزواج ، فولدت عيسى ونسبته إليه .

ومرت الأيام ونسى الناس الحقيقة وسط الترهات ، وتمسكوا بالأكاذيب والشائعات ، وضاعت فى اليم معجزة الميلاد ، إلى أن نزل القرآن فأعلن الحقيقة ، وقطع دابر الشكوك وأعاد لمريم عفافها وطهارتها ، وأعاد لعيسى قدره واحترامه ، ولولا القرآن لاندثرت رواية الميلاد ، ولعدت من الأباطيل والخرافات التى ترددها الأديان الوثنية القديمة ولما صدقها أحد ، ولكنت أنا أول المكذبين .

الفصل الثانى

شباب عيسى

الصبى يســـوع :

بعد تبشير الملاك لمريم بغلامها الزكى حملت به ، وظل ينمو فى بطنها جنينا طوال تسعة أشهر كاملة ، مر فيها بكل الأدوار التى يمر بها سائر الأجنة ، أخذ من لحمها لحما ، ومن عظمها عظما ، ومن دمها دما (١) ، ومن روحها وأعصابها وأنفاسها وكل شىء فيها ، حتى اكتملت أشهر الحمل ، وحان وقت الوضع ، وجاءها المخاض فلفظته من فرجها ليقابل الحياة .

يقول لوقا عن مريم ويوسف والمولود « وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد ، فولدت ابنها البكر ، وقمطته وأضجعته فى المذود إذ لم يكن لهما موضع فى المنزل » (٢) .

ولد عيسى طفلا كسائر الأطفال ، يصرخ جوعانا فتلقمه أمه ثديها ، ويبكى ضجرانا فتهدهده فى حجرها ، يغوط ويتبول فتغسله وتنظفه ، وتزيل عنه اتساخه وتعيد إليه هندامه ، وتقمطه وتكسوه ، يمرض أو يتوعك فتهرع إلى الأقارب والأحباب تسألهم

---

(١) انظر التوراة سفر التكوين .
(٢) لوقا ص ٢ : ٥ — ٧ .

الدواء وتستشير هم العلاج ، ينام فتضجعه فى مذود البقر وتسهر إلى جواره ، تحرسه وترعاه هى وزوجها يوسف .

وحين أصبح عيسى ابن ثمانية أيام ختن كما يختن سائر الأطفال ، وقطعت لحمة غرلته تنفيذا لعهد الله مع إبراهيم بأن يختن كل ذكر فى لحم غرلته وأن يحفظ هذا العهد فى شعب إسرائيل إلى الأبد، يقول لوقا عن ختان عيسى . . « ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبى سمى يسوع » (١) .

وبعد أن تطهرت مريم من طمثها ، وانتهت أيام نفاسها ، حرصت ورجلها يوسف اليهوديين الصالحين على أن يقدما ليهوة إله إسرائيل الذبائح والمحرقات ، حمدا وعرفانا له على ما رزقهما من حسن الولد ، كما حرصا على تنشئة الصبى ليكون إسرائيليا حقيقيا حسب الناموس والشريعة فقاما بتهويده ونذره مقدسا للرب باعتباره ابنهما البكر ، يقول الحوارى لوقا « ولما تمت أيام تطهيرها حسب شريعة موسى (أربعين يوما) صعدوا به إلى أورشليم ليقدموه للرب كما هو مكتوب فى ناموس الرب (شريعة إسرائيل) إن كل ذكر فاتح رحم يدعى قدوسا للرب . ولكى يقدموا ذبيحة كما قيل فى ناموس الرب زوج يمام أو فرض حمام » (٢) .

---

(١) لوقا ص ٢ : ٢١ .
(٢) لوقا ص ٢ : ٢٢ — ٢٤ .

ومع مرور الأيام والسنين أخذ جسد عيسى يكبر ، وأخذ عوده يشتد وعقله ينمو وقلبه يتفتح للحياة ، يقول عنه الحوارى لوقا « أما يسوع فكان يتقدم فى الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » (١) . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره أصبح بحسب الشريعة اليهودية بالغا « جادول » وصار يعامل معاملة الرجال ، فكان عليه أن يختار مهنة ، ففى هذه السن ينبغى لكل يهودى أن يحترف حرفة ، وكان يخرج مع أبيه يوسف إلى حانوته ، فهوى النجارة وتدرب عليها واتخذها حرفته ، كان يعمل فى حانوت والده المتواضع بكل جد واجتهاد من شروق الشمس إلى غروبها ، فاذا جاء الليل أو حل يوم العطلة « السبت » ذهب إلى المعبد يطالع الشريعة الاسرائيلية ويسبر أغوارها على يد الأحبار والكهان .

وكان على كل يهودى أن يذهب إلى أورشليم مرة كل سنتين للحج وذلك وقت عيد الفصح ، العيد الأكبر لليهود ، ذكرى خروجهم من مصر مع موسى وتخلصهم من عبودية فرعون وقومه ، ولكن أبوى عيسى الإسرائيليين الحقيقيين كانا يحجان كل سنة ، وكانا يأخذان معهما ولدهما عيسى حتى يتشرب منذ نعومة أظفاره حب الشريعة وتقديس الناموس ، وفى إحدى المرات التى ذهب فيها الأبوان مع ولدهما للحج ، وبعد إتمام مراسيمه وإنهاء طقوسه ، تأهب الوالدان للعودة ، ولكن الصبى النابه انسل من بينهما وعاد إلى

---

(١) لوقا ص ٢ : ٥٢ .

الهيكل يلتمس مزيداً من العلم والدراسة ، تاركا والديه فى جزع وهلع ، يقول الحوارى لوقا« وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم فى عيد الفصح ، ولما كانت له أثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد ، وبعد ما أكملوا الأيام بقى عند رجوعهما الصبى يسوع فى أورشليم ويوسف وأمه لم يعلما ، وإذ ظناه بين الرفقة ذهبا مسيرة يوم وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف ، ولما لم يجداه رجعا إلى أورشليم يطلبانه ، وبعد ثلاثة أيام وجداه فى الهيكل جالسا بين المعلمين يسمعهم ويسألهم ، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته ، فلما أبصراه اندهشا وقالت له أمه : يابنى لماذا فعلت بنا هكذا ؟ هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين ... ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعا لهما » (١) .

ويتحدث الروائى فالتون أورسلر عن عذاب الأم الحنون والأب المسالم وما كابداه من حزن وضيق خلال الأيام الثلاثة التى غاب فيها عنهما ولدهما الصغير دون أن يعرفا مكانه ، ومقدار الخوف والفزع الذى ألم بهما خشية أن يكون قد أصابه مكروه ، هذا بينما عيسى منشغل فى دراسة الديانة الاسرائيلية مع أحبار اليهود ، يقول أورسلر « ولم يحس « يسوع » ولا أحس متتبعوا هذه المناقشة المثيرة بمضى الوقت الطويل حتى رأى يسوع من فوق رؤوس الجالسين من حوله وجه « مريم » المصفر وقد لمع فى عينيها عتابا

(١) لوقا ص ٢ : ٤١ — ٥١ .

وانهمرت منهما الدموع ، وكانت هذه هى المرة الأولى بل المرة الوحيدة التى بدا عليها أنها لم تكن تتفاهم معه بروحها إذ قالت :

ولدى . لماذا فعلت هذا بنا ؟ لقد كنا — والدك وأنا — نبحث عنك طوال الوقت متوجعين ؟ وودع يسوع العلماء والأساتذة ورأى أنه — حتى الآتين أخيراً منهم — قد بدا عليهم الاجهاد . . ولف على كتفى والدته العباءة العميقة الزرقة التى كانت تلبسها ، وأمسك بيدها إلى الخارج ، وروت له ما كان من أمرها « ويوسف » ثم عاد يسوع إلى بنوته لهما فورا فاندفع يعانق أمه ، وقبل لحية أبيه الذهبية التى بدت فيها شعيرات أخذت تحيلها رمادية ، وانتهت فترة قلقهما ، وأقبل شباب يسوع طيعا لهما ، ورأياه يتقدم نحو الرجولة ، وينمو فى الحكمة والنعمة عند الله والناس » (١) .

وعندما بلغ عيسى الثامنة عشرة من عمره توفى أبوه يوسف ، فأصبح العائل الوحيد لأمه وإخوته باعتباره الابن الأكبر ، وكان عليه أن يواصل العمل فى حانوت والده ليطعم هذه العائلة الصغيرة ويسد حاجيات أفرادها من الغذاء والكساء ، فظل يكدح بالمنشار والمسحاة طوال النهار من أجل العيش ، فمن لا يعمل لا يأكل ، ومن لا يأكل يموت .

ولما صار ابن الثلاثين ذهب إلى نهر الأردن ، حيث ابن خالته

---

(١) فالنتون أورسلر — الانسان الخالد — ص ١١١ .

يوحنا ، النبي الحصور ، يعمد الناس لغفران الخطايا ، وطلب عيسى من يوحنا أن يعمده وأن يغسل جسده فى مياه نهر الأردن ، ليصير أشد طهرا وصلاحا ، فعمده يوحنا كما عمد باقى الشعب ، يقول لوقا « ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً » (١) .

عاش عيسى منذ مولده حتى بعثه فى سن الثلاثين إنسانا عاديا ، طفلا خاضعا لوالديه يطعمانه ويكسوانه ، وصبيا صغيراً يربيانه ويعلمانه ، وشابا يافعا ينصحانه ويرشدانه ، تصقله الأيام وتحنكه التجارب ، ويتعلم النجاح والفشل ، لم يحدث فى حياته طوال هذه الفترة شيء غير عادى ، خلا معجزة ميلاده الفريد ، ومعجزة نطقه فى المهد ليدفع عن أمه قالة السوء ، ميلاده الفريد الذى أخفاه أهله وكذبه أصحابه ، ونطقه فى المهد لحظة ميلاده ليصد الشائعات ويناوىء الترهات ، خلا هاتين المعجزتين لم يكن لعيسى حتى سن الثلاثين ما يجعله غريبا عن باقى الناس ، أو شاذا عن سائر البشر ، نطق عيسى فى مهده مرة واحدة لحكمة أرادها الرحمن ثم توقف بعد ذلك عن النطق ، وعاد كسائر الأطفال لا ينطق ولا يتحدث ، حتى حان موعد نطقه العادى فنطق كالباقين وهكذا فى سائر أطوار حياته ، وكافة مراحل نموه ، طفل وصبى وشاب ، لم يحدث له طوال تلك الفترة حادث يرفعه عن مرتبة الآدميين ، أو يشتم منه خروجه عن فطرة البشر العاديين ، أو حتى بلوغه مرتبة الأنبياء أو الأولياء .

---

(١) لوقا ص ٣ : ٢١ .

ولو تصورت مريم أو زوجها وأقاربها أن فى عيسى شيئاً ينأى به عن مرتبة البشر ، لما أعادت وزوجها الاتصال ببعضهما لإنجاب المزيد من الأبناء والبنات أخوة عيسى ، ولنفرت من زوجها يوسف ولترفعت عنه ، فهى أم إله وليست أم إنسان ، وأم الاله لا تلد الأناسى ، ولا تعاشر الرجال ، ولا تنجب الأطفال ، ولكن مريم الإنسانة أم عيسى الإنسان عاودت الحمل والولادة من زوجها يوسف ، وأنجبت له بنين وبنات ، كانوا وعيسى قرة عين والديهم.

يروى لنا الحوارى مرقس أن عيسى لم يكن يعرف بين مواطنيه إلا بمهنته ، وبأمه وأخوته ، فهو النجار الشاب ابن مريم ، وأخو يعقوب ويوسى والآخرين ، ويورد مرقس قول الجموع عن عيسى « أليس هذا هو النجار ابن مريم ، وأخو يعقوب ويوسى ، ويهوذا وسمعان ؟ أو ليست أخواته هنا عندنا ؟ (١).

مسرات عيسى :

فى حديثنا عن شباب عيسى يجمل بنا أن نذكر شيئاً عن لهوه وسروره ، وساعات فرحه وسعادته هل كان عيسى زاهداً منسحقا ، عازفا عن الحياة ، كارها للمرح والسرور ؟ أم كان بشوشا ضاحكا محبا للحياة ، مقبلا عليها ؟ لقد حلا للبعض تصوير عيسى بصورة الرجل المتبتل الذى يمقت كافة متع الدنيا حتى ما حلله الله لسائر الناس ، بل ما دعا الله إليه إسعادا للناس ، وإشعاراً لهم

---

(١) مرقس ص ٦ : ٣ .

بعظيم نعمه وفضله ، صوروا عيسى بصورة الرجل النافر من الدنيا ، الفار من الناس والحياة ، وتصوروا أنهم بهذا قد أحسنوا إلى عيسى أو رفعوا من قدره ، وما دروا أنهم قد أساءوا إليه ، بل ورموه بما هو منه برىء .

وفى هذه الفترة نتحدث عن عيسى الإنسان المحب للحياة ، ولكافة متعها الحلال التى خلقها الله وذللها لعباده ، وأنعم بها على خلقه ، ليشكروا ويكبروا ، ويسبحوا بحمده .

لم يبن عيسى بامرأة قط ، ولكن عرفته النساء صديقا ، عرفنه وعرفهن صحبة بريئة ، مستطابة حلوه .

تروى لنا مريم المجدلية إحدى صديقات عيسى قصة لقائها الأول معه ، ومريم تلك الملقبة بالمجدلية كانت من أجمل نساء عصرها ، يخطب ودها الأمراء والعظماء ، ويشبع فى أحضانها طلاب الجنس ولذا كانت تدعى الساقطة التى استحوذ عليها الشيطان ، أعطت مريم جسدها لكل طالب ، ولكنها لم تعط روحها لأحد ، أحبها الكثيرون ولم تحب أحداً ، إلى أن رأت عيسى فأحبته ، وأعطته روحها وقلبها ولم تفرط فيهما لأحد من قبل ، أحبته حبا بريئا ، وعشقته عشقا عذريا ، تحدثنا المجدلية عن مشاهدتها الأولى لحبيبها وحديثها معه فتقول : « تطلعت إليه واضطربت نفسى فى أعماقها فقد كان جميلا ، كان ذا جسد فريد ، ولقد خيل إلى أن بين أجزاء جسمه عشقا متبادلا . وهنا ارتديت ثوبا من الحرير الدمشقى ،

وتركت بيتى أقصد قصده ، ترى أكانت هى وحدتى التى دفعتنى إليه أم هى ريحه العطرة التى جذبتنى نحوه ؟ أكان نهم فى عينى إلى الحسن ، أم كان جماله هو الذى خطف بريق عينى ؟ لست أدرى من هذا شيئاً إلى وقتى هذا . لقد سرت نحوه فى ثيابى بشذاها العطر ونعلى الذهبية التى أهداها إلى القائد الرومانى وعندما أدركته قلت : عم صباحا ، قال : عمى صباحا يا مريم .

وهنا قلت له : هلا أتيت إلى دارى ؟ فقال : أولست حقا فى دارك ؟ . . وثانية قلت له : تعالى إلى دارى فشاركنى الخبز والنبيذ ، فقال : ولم تطلبين إلى أن أكون ضيفك ؟ قلت وكأن كل ما فى جسدى من تراب وما يلابسه من روح يدعوه إلى: لقد ضرعت إليك أن تلم بدارى.وهنا نظر تجاهى ، ينعكس إلى نور من عينيه كنور النهار فى رابعته وقال : ما أكثر محبيك ، ولكنك لن تجدى غيرى لك حبيبا ، غيرى من الرجال يحبون أنفسهم فى وصلك ، أما أنا فأحبك لنفسك ، غيرى من الرجال يرون فيك جمالا سيذبل قبل أن تذبل سنوهم ، أما أنا فأرى فيك جمالا لن يذبل ولن يبيد . . أنا وحدى أحب فيك مالا يراه سواى » (١) .

ويحدثنا الحوارى لوقا عن صديقة أخرى لعيسى ، كانت زانية أيضاً ، ولكنها أحبت عيسى وتابت على يديه ، وبذلت من أجله

---

(١) انظر جبران خليل جبران « عيسى » ترجمة د . ثروت عكاشـــة ص ١٦ — ١٨ .

كل غال ، يقول لوقا أنه بينما كان عيسى مدعوا إلى الغذاء على مائدة أحد الأغنياء « وإذا امرأة فى المدينة كانت خاطئة إذ علمت أنه متكىء فى بيت الفريسى جاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميه من ورائه باكية ، وابتدأت تبل قدميه بالدموع ، وكانت تمسحهما بشعر رأسها وتقبل يديه وتدهنهما بالطيب ، فلما رأى الفريسى الذى دعاه ذلك تكلم فى نفسه قائلا : لو كان هذا نبيا لعلم من هذه المرأة التى تلمسه وما هى إنها خاطئة » (١) .

كان قبول عيسى لتصرف الزانية معه وسماحه لها بأن تدهن قدميه بالعطر الثمين ، وتمسحهما بشعر رأسها ، مثار دهشة المتكئين مع عيسى ومبعث استغرابهم واستنكارهم ، فكيف وهو المعلم والنبى يرضى لا مرأة ، وأى امرأة ، امرأة ساقطة زانية ، كيف يقبل منها عيسى هذا الرفق وهذا الحنان ، وهذا الود وهذا التقرب...

وثالثة قابلها عيسى بالقرب من بئر ، كانت تستقى منه ، فطلب منها عيسى أن تعطيه ليشرب ، فسقته وتجاذبا أطراف الحديث وطابت لهما الصحبة ، فأمضى عيسى أكثر اليوم معها حتى أن تلاميذه الذين كانوا قد تركوه لبعض حاجتهم عادوا آخر النهار فوجدوه ما زال مع المرأة فتعجبوا لذلك كثيراً ، وأن لم يصارحوا معلمهم بدهشتهم ، يقول الحوارى يوحنا إن التلاميذ كانوا

(١) لوقا ص ٧ : ٣٧ — ٣٩ .

« يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة . ولكن لم يقل أحد ماذا تطلب أو لماذا يتكلم معها » (١) .

وزانية رابعة ضبطوها فى حضن أحد عشاقها ، فأتوا بها إلى عيسى وطلبوا منه رجمها حسب الشريعة ، فدافع عنها ، ونهى الناس عن قتلها ، فأحبته وصارت صديقته (٢) .

وخامسة وسادسة ، مرثا وأختها مريم ، شقيقتى ألعازر ، أحبهما عيسى وأحبتاه ، وصادقهما وصادقتاه ، كم دعتاه إلى بيتهما ، وكم من الأيام والليالى قضاها بينهما ، كم بذلتا من أجله وكم بذل من أجلهما ، حتى مات شقيقهما ألعازر فأقامه من الموت لأجلهما .

وغير هؤلاء وهؤلاء كثيرات عرفوا عيسى وصادقوه ، وأحب صحبتهن وألفوه ، ولكن لم تكن له باحداهن علاقة شائنة أو مريبة ، فالمقطوع به أن علاقته بهن لم تتعد الصداقة البريئة ، هن يعشقن فيه حسنه ووداعته وعقله وحكمته ، وهو يصاحبهن لينأى بهن عن طريق الرذيلة ، لم ين عيسى باحداهن ، ولم يضاجع أيا منهن .

يقول الواعظ بولس الياس « إن المسيح امتنع ونصح تلاميذه بالامتناع عن الزواج المشروع » (٣) ويقول القديس بولس فى رسالته إلى أهل بلدة كورنثوس « حسن للرجل أن لا يمس

(١) انظر : يوحنا ص ٤ : ٢٧ .
(٢) يوحنا ص ٨ : ٣ — ١١ .
(٣) بولس الياس : يسوع المسيح ص ٤٦ .

امرأة . . أقول لغير المتزوجين وللأرامل ، إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا — أى بغير زواج — أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة (١) » . . .

هؤلاء وغيرهم توهموا أن عيسى قد امتنع عن الزواج ، وأوهموا الناس أن عيسى كره المرأة ، وابتعد عنها واعتبرها رجسا من عمل الشيطان ، وتمادى البعض فى وصف عيسى بالبكر البتول الذى لم تمسسه امرأة ، ولم تقترب منه إحدى بنات حواء ، حتى اعتقد البعض أن نفور عيسى من المرأة راجع إلى نقص فى رجولته أو عيب فى تكوينه ، والحقيقة أن هذا وذاك غير صحيح فى حق عيسى الإنسان السوى الكامل ، الطبيعى فى كل شىء .

حقا لم يتزوج عيسى ، ولكنه أيضاً لم يكره المرأة ، ولم يبتعد عنها ، بل كانت له بالنساء علاقات وصداقات ولقاءات ، ولقد كان من الممكن أن يتزوج عيسى لو طال به العمر أو قطع شوطا فى تحقيق رسالته ، ولكن عيسى لم يعش أكثر من ثلاث وثلاثين سنة هى كل عمره على ظهر الأرض ، وكم منا يقضى مثل هذا العمر أو أكثر ولا يفكر فى الزواج ، ثم يتزوج بعد ذلك فى سن الأربعين أو حتى الخمسين ... كم من الرجال شغلتهم أعباؤهم الكبيرة عن المرأة فانشغلوا عنها ، ونفضوا عن كاهلهم أحمالها ، كم من العظماء والكبراء امتنعوا عن الزواج تضحية بأنفسهم وإنكارا لذواتهم من أجل

(١) ١ كورنثوس : ص ٧ .

أوطانهم وعظيم أهدافهم ، رغم أنهم يتفجرون شبابا ورجولة ، عظام آثروا أن ينفقوا حيويتهم فى سبيل إسعاد الناس ورفع شأن الأوطان ، بدلا من سكبها فى أحضان النساء وإهراقها تحت أقدامهن ، فهل يمكن اعتبار هؤلاء شواذ أو ناقصى رجولة ؟ .

وعيسى عليه السلام ، النبي العظيم ، انشغل فى شرخ شبابه بما اختاره له ربه ، بأن ينذر بنى إسرائيل باقتراب الملكوت ، ويدعوهم إلى ترك المعاصى والشرور ، وإلى العودة إلى حظيرة الله ، ليكونوا أبناء أبيهم الذى فى السموات .. انشغل عيسى برسالته الكبيرة ، فلم يتزوج صغيراً ، ولم يلجأ إلى اللذة الحرام بل اكتفى بالصداقة والصحبة البريئة مع النساء ، ولو قدر لعيسى أن يمتد به العمر ، وأن يرى نجاح رسالته وقبول تعاليمه ، لآثر أن يستريح ويهنأ فى ظل بيت سعيد وزوجة هانئة ، بل لتزوج بزوجة وزوجات وأبعد عن نفسه مظنة الشك فى رجولته أو الافتراء بشذوذه .

وبالإضافة إلى علاقات عيسى البريئة بالنساء ، فقد كان عيسى محبا للضحك والمرح وللسرور والابتهاج ، كان يحضر الولائم والأفراح ويشارك الناس سعادتهم ، وكان يجالس العشارين والخطاة ويصاحب الاشرار كما يصاحب الاخيار .

كان عيسى يحب أطايب الطعام ، ويقبل الدعوة إلى الموائد الكبيرة ، ولو كان الداعى عشاراً (١) ، والجالسين معه من أهل

---

(١) العشار هو المرابى الذى يقرض النقود بالربا الفاحش .

السوء ، ولقد كان هذا التصرف من عيسى بقبول مجالسة الأشرار مثار النقد والتعجب من كثيرين من الناس يحدثنا الحوارى لوقا أن أحد الأغنياء صنع وليمة لعيسى وتلاميذه وكان أغلب المدعوين إليها من العشارين والخطاة يقول لوقا « وصنع له لاوى ضيافة كبيرة فى بيته ، والذين كانوا متكئين معهم كانوا جمعا كثيراً من عشارين وآخرين ، فتذمر كتبتهم والفريسيون على تلاميذه قائلين : لماذا تأكلون وتشربون مع عشارين وخطاة » (١) .

ويحدثنا الحوارى متى الذى كان أحد جباة الرومان أنه صنع أيضاً لعيسى وليمة كبيرة ودعاه إلى بيته ودعا معه عبيد المال واللذة العشارين والخطاة ، فجالسهم عيسى وأكل معهم وشرب الطعام والخمر ، ويعترف متى أن هذا التصرف من عيسى كان مثار النقد والاستنكار ، يقول متى « وبينما هو متكىء فى البيت إذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا واتكأوا مع يسوع وتلاميذه ، فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه : لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة » (٢) .

وكان عيسى يهوى حضور الأعراس والأفراح ، ويطرب لسماع الأغانى والموسيقى ، ويشارك الناس أنواع اللهو ، وفى أحد تلك الأفراح التى دعى إليها عيسى شرب الناس خمر العرس كله ،

---

(١) لو ص ٥ : ٢٩ — ٣٠ .
(٢) متى ص ٩ : ١٠ — ١١ .

ولم يبق خمر بعد ، وما زال الليل فى أوله ، وخشى عيسى وأمه على على الناس أن يتحول سرورهم وجوما وأن تضيق العروس رفقة — صديقة عيسى — بهذا النقص فى الشراب ، فقام بمعجزة أحالت الماء إلى خمر جيد ، شرب منه المدعوون فزاد سرورهم وعلا صخبهم ، وكانت هذه هى معجزة عيسى الأولى ، يحدثنا عن ذلك الحوارى يوحنا فيقول « وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل (١) وكانت أم يسوع هناك ودعى أيضاً يسوع وتلاميذه إلى العرس ، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر ، فقال لها يسوع : مالى ولك يا امرأة ، لم تأت ساعتى بعد ، قالت أمه للخدام : مهما قال لكم فافعلوه ، وكانت ستة أجران من حجارة موضوعة هناك حسب تطهير اليهود يسع كل واحد مطرين أو ثلاثة فقال لهم يسوع : املأوا الأجران ماء ، فملأوها إلى فوق ثم قال لهم استقوا الآن وقدموا إلى رئيس المتكأ ، فقدموا . فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمراً ولم يكن يعلم من أين هى لكن الخدام الذين كانوا قد استقوا الماء علموا ، دعا رئيس المتكأ العريس وقال له : كل إنسان إنما يضع الخمر الجيدة أولا ، ومتى سكروا فحينئذ الدون ، أما أنت فقد أبقيت الخمر الجيدة إلى الآن » (٢) .

هذه الحياة التى كان يحياها عيسى ، إذا ما قارناها بكثير من تعاليمه ، أو على الأصح التعاليم التى نسبها البعض إليه ، تعاليم

---

(١) احدى المدن الفلسطينية .

(٢) يوحنا ص ٢ : ١٠١ .

الزهد والانسحاق والتجرد والتى حلا للبعض تصوير عيسى بها ، وإلباسه ثوب الفاقة والضنك والبؤس والشقاء، إذا قارنا بين الحياة الواقعية لعيسى وبين هذه التعاليم التى نسبت إليه ، أحسسنا بكثيرة من الغموض والتناقض ، بل الحيرة والاضطراب .

فاذا كان عيسى قد نادى فعلا بهذه التعاليم الزاهدة ، التى تدعو إلى ترك الدنيا والاندثار فى الصوامع والأديرة فلماذا لم يطبق هذه التعاليم على نفسه ؟ ولماذا لم يقرن الفعل بالقول ! ؟

وإذا لم تكن هذه تعاليم عيسى — وهذا هو الأرجح — فلماذا ينسبها البعض إلى عيسى ، وعيسى نفسه لم يكن بهذه الصورة التى يحاول البعض تصويره بها ! ؟

إن هذا التناقض بين الأقوال والأفعال جعل بعض الباحثين يعتقدون أن عيسى قد عدل عن تعاليم التجرّد والتحنث ، وعاد إلى طبيعته الإنسانية عندما أتى هذه التصرفات ، يقول الأستاذ العقاد « أن عيسى غير المحور حين قبل إنفاق الدنانير فى عطر تمسح به قدماه وحين قبل أن يشهد الأعراس ، ويضرب الأمثال لأتباعه فى أفراح الحياة ، وفى براءة كل فرح يأتى من القلب ويسر الجسد ولا يحزن الروح » (١) .

والحقيقة فى نظرنا أن عيسى لم يغير المحور ، ولم يعدل عن تعاليم

---

(١) عباس العقاد : عبقرية المسيح ص ١٤٥ .

العزلة والسحت ، ولكن هذه التعاليم نسبت إليه وهو منها برىء ، نسبت إليه وظن اتباعه أنهم بها يرفعون قدره وهم لا يدرون أنهم قد أساءوا إلى عيسى وطعنوه فى إنسانيته ورجولته ، فعيسى عليه السلام النبى الإنسان ، قد ترك نفسه على سجيتها ، وعاش الحياة السارة المرحة التى أرادها الله للناس ، واستمتع بطيبات ما سخر الله لنا ، وحمد الخالق على جليل نعمه ، فكان مثال العبد المؤمن الصالح ، يقول جل وعلا « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » (١) .

يحيى وعيسى :

يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان هو ابن الكاهن الصالح زكريا وأمه تدعى أليصابات ، وقد كبر الزوجان الطيبان حتى شاخا ولم ينجبا نسلا ، فقد كانت أليصابات عاقرا ولكنهما كانا يدعوان الله دائما أن يرزقهما بغلام يكون قرة لأعينهما ، ويخلف أباه فى خدمته وكهنوته ، وأخيراً استجاب الله لتضرعاتهما ، وبشرهما الملاك بغلام زكى صالح حصور ، يكون نبيا من أنبياء بنى إسرائيل ، يحدثنا الحوارى لوقا عن تبشير الملاك لزكريا بغلامه يحيى فيقول « فظهر له ملاك الرب واقفا عن يمين مذبح البخور ، فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف ، فقال له الملاك لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد

---

(١) سورة الاعراف ٣٢ .

سمعت وامرأتك أليصابات ستلد لك إبنا وتسميه يوحنا ، ويكون لك فرح وابتهاج ، وكثيرون يفرحون بولادته ، لأنه يكون عظيما أمام الرب ، وخمراً ومسكراً لا يشرب ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس ، ويرد كثيرين من بنى إسرائيل إلى الرب إلههم » (١) .

ويتحدث القرآن الكريم عن معجزة ميلاد يحيى بكلمة من الله منذوراً للبتولة منذ مولده ، طاهراً لا يقرب الخمر ولا النساء ، يقول سبحانه « هنالك دعا زكريا ربه فقال ، رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء ، فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب ، أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصوراً ونبيا من الصالحين ، قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال : كذلك الله يفعل ما يشاء . قال رب أجعل لى آية قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا وأذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والابكار » (٢) .

والتشابه بين يحيى وعيسى يكاد يكون تاما ، فبين الرسولين صلة قرابة متينة ، فأما هما أختان ، ذلك أن أليصابات أم يحيى هى الأخت الشقيقة لحنة أم مريم ، أى أن يحيى وعيسى يعتبران ولدى خالة ، كذلك هما متقاربان كثيراً فى السن ، ولا يتجاوز الفرق بين عمر يهما أشهراً معدودات ، فبعد أن بشر جبريل عليه السلام

---

(١) لوقا ص ١ : ١١ — ١٦ .
(٢) سورة آل عمران : ٣٨ — ٤١ .

الكاهن زكريا بمولد يحيى ، عاد بعد ستة أشهر فبشر مريم بمولد عيسى ، أى أن يحيى يكبر عيسى بستة أشهر .

ولقد بدأ يحيى دعوته قبل عيسى ، فكان يدعو الناس إلى التوبة ويعمدهم فى نهر الأردن لتطهيرهم من الخطايا والذنوب ، ولقد أتى عيسى إلى يوحنا وطلب منـــه تعميده لغفران الخطايا شأنه شأن الآخرين ، يحدثنا الحوارى مرقس عن ذلك فيقول « كان يوحنا يعمد البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا ، وخرج إليه جميع كورة اليهودية وأهل أورشليم واعتمدوا جميعهم منه فى نهر الأردن معترفين بخطاياهم . . وفى تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا فى الأردن » (١) ويقول الحوارى متى أن عيسى عندما سمع بمعمودية يوحنا سافر خصيصا من مدينة الجليل إلى الأردن ليعتمد من يوحنا وينال بركته يقول متى « حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه » (٢) . وفى أنجيل العبريين — وهو غير الأناجيل المعتمدة من الكنيسة — أن أم عيسى وإخوته قالوا له إن يوحنا المعمدان يوالى التعميد لغفران الخطايا فهلم بنا إليه ليعمدنا ، فقال لهم أى خطيئة جنيت حتى أذهب إليه لتعميدى . . اللهم إلا أن يكون هذا القول الذى قلته .

وعيسى لم يبدأ دعوته إلا بعد أن انتهى يحيى ، وبعد أن قدم

---

(١) مرقس ص ١ : ٤ — ٦ ، ٩ .
(٢) متى ص ٣ : ١٣ .

رأسه قربانا على مذبح الشهادة ، عند د [illegible] عيسى الخيط وسار على النهج وبدأ ينذر الناس ، دعوتان مترابطان متشابهتان حتى كأنهما دعوة واحدة بدأها يحيى وأتمها عيسى ، بنفس الطريقة والمنهج ، ونفس الألفاظ والأسلوب ، وإذا كان هنالك من خلاف بين الدعوتين فى بعض التفاصيل فانما مرجعه الاختلاف البسيط بين الشخصيتين لاختلاف ظروف النشأة والبيئة .

ويعترف كتاب الأناجيل بهذه الحقيقة ، حقيقة التماثل والتطابق بين دعوتى يحيى وعيسى ، وحقيقة أن عيسى كان مكملا ليحيى ، وأنه لم يبدأ رسالته إلا بعد أن عمده وباركه يحيى ، ثم مات يحيى فخلفه عيسى فى رسالته ، يقول الحوارى مرقس « وبعد ما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ، ويقول : قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله » (١) .

ويقول الحوارى متى « ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف إلى الجليل . . ومن ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (٢) ويصيح عيسى منذرا الأشرار « ايتها الحيات أولاد الأفاعى كيف تهربون من دينونة جهنم » (٣) .

---

(١) مرقس ص ١ : ١٤ ــ ١٥ .

(٢) متى ص ٤ : ١٢ ــ ١٧ .

(٣) متى ٢٣ : ٣٣ .

هذه الدعوة التى بدأها عيسى بعد موت يحيى لم تكن إلا ترديدا لدعوة يحيى عليه السلام بنفس الطريقة والألفاظ والأسلوب ، حتى لنحس بوضوح أنهما دعوة واحدة ، يقول الحوارى متى عن يحيى ودعوته « وفى تلك الأيام جاء يوحنا يكرز فى برية اليهودية قائلا : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » (١) .

وقبل أن يصبح عيسى منذرا الأشرار كان يحيى يصرخ متوعدا أهل السوء « يا أولاد الأفاعى من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى ، فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة » (٢) .

هذا التشابه بين دعوتى يحيى وعيسى ، وقيام عيسى بترديد ألفاظ يحيى والسير على نهجه قد جعل الكثيرين يرون فى يحيى أستاذاً لعيسى ، يقول الكاتب ول ديورانت « إن الذى أثار حماسة يسوع الدينية هو عظات يوحنا ابن أليصابات قريبة مريم ، وقد آمن المسيح بتعاليم يوحنا وإن تعاليمه هو لم تفترق فى جوهرها عن تلك التعاليم » (٣) .

ويؤيد القرآن الكريم هذا التشابه والتماثل بين يحيى وعيسى ، ويخلع على عيسى نفس الصفات والمزايا التى خلعها على يحيى يقول تبارك وتعالى عن يحيى « يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم

---

(١) متى ص ٣ : ١ — ٢ .
(٢) متى ص ٣ : ٧ — ٨ ، لوقا ص ٣ : ٧ — ٨ .
(٣) قصة الحضارة جـ ٣ — ص ٢١٦ .

صبيا ، وحنانا من لدُنَّا وزكاة وكان تقيا ،وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يُبعثُ حيا» (١)

ويقول سبحانه عن عيسى « قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا أين ما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » (٢) .

ولقد شهد الجميع بعظمة يحيي وفضله ، وبطهره وقداسته ، أثنى عليه المؤرخ الكبير يوسفيوس فى الوقت الذى لم يشر فيه إلى عيسى ، إذ قال عنه أنه كان إنسانا صالحا أوصى اليهود أن يبر بعضهم ببعض وأن يتقوا الله ، أما عيسى نفسه فقد أقر ليحيي بأنه أفضل الأنبياء وأعظم المولودين من النساء ، يقول عيسى للناس « ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا أنبيا ؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبي . . لأنى أقول لكم : أنه بين المولودين من النساء ليس نبي أعظم من يوحنا المعمدان » (٣) .

وقد تشبه عيسى دائما بيحيي ، ومثل نفسه به طالبا من الناس أن يؤمنوا به كنبي كما آمنوا بيحيي ، وأن يقبلوا تعاليمه كما قبلوا تعاليم يحيي ، يحدثنا الحوارى متى عن ذلك فيقول عن عيسى

---

(١) سورة مريم ١٢ — ١٥ .
(٢) سورة مريم ٣٠ — ٣٤ .
(٣) انجيل لوقا ص ٧ : ٢٦ ، ٢٨ .

« ولما جاء إلى الهيكل تقدم إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وهو يعلم قائلين : بأى سلطان تفعل هذا ، ومن أعطاك هذا السلطان ، فأجاب يسوع وقال لهم : وأنا أيضاً أسألكم كلمة واحدة فان قلتم لى عنها ، أقول لكم أنا أيضاً بأى سلطان أفعل هذا : معمودية يوحنا من أين كانت ، من السماء أم من الناس ، ففكروا فى أنفسهم قائلين : إن قلنا من السماء يقول لنا : فلماذا لم تؤمنوا به ، وإن قلنا من الناس نخاف من الشعب ، لأن يوحنا عند الجميع مثل نبى ، فأجابوا يسوع وقالوا : لا نعلم . فقال لهم هو أيضاً . . ولا أنا أقول لكم بأى سلطان أفعل هذا » (١) .

ومع ذلك فقد كان بين يحيى وعيسى بعض التمايز ، تمايز فى الشخصية والطباع ، وفى العادات والاتجاهات ، كان هناك تطابق بين الدعويين ، وتمايز بين الشخصيتين ، كان عيسى يحب اللهو والمرح ، والمتعة والصخب ، وكان يحيى يكره كل ذلك ويميل إلى السكون والنسك ، كان عيسى يستمتع بالطعام الجيد ويحتسى الخمور فى الأفراح ، أما يحيى فكان زاهداً فى متاع الدنيا ، يهيم فى الصحارى والقفار ، بجسد أعياهالضنك والنحول ، يقتات على الحشائش والحشرات ، ويتدثر بجلود الحيوانات ، يقول الحوارى متى عنه « ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الابل وعلى حقويهمنطقة من جلد ، وكان طعامه جرادا وعسلا بريا » (٢) .

---

(١) متى ص ٢١ : ٢٣ — ٢٧ ، لوقا ص ٢٠ : ١ — ٨ .

(٢) متى ص ٣ : ٤ ، مرقس ص ١ : ٦ .

وفى الوقت الذى كان فيه عيسى يصادق الخطاة ، كان يحيى يعتزل الناس ويكره الساقطات وصناع الاثم ، ويهرب بنفسه من فجور العالم إلى البرارى والصحارى حيث الهدوء والصفو ، وحيث النقاء والطهر ، يأكل الجراد ويلتحف السماء ، ويعتصم بالجبال ويصوم أكثر الأيام ، ويشتد على نفسه فى تهجده ونسكه وفى صلاحه وتقواه ، ومن هنا تسربت دعوى الرهبانية إلى المسيحية .

ولقد عرف عيسى هذا التمايز بينه وبين يحيى ، وهذا الاختلاف بينهما فى الميول والمشارب ، ولكنه احتار وزميله عليهما السلام فى كيفية إرضاء البشر الذين لا يعجبهم شىء ، لم يعجبهم العبوس ولم يرضوا عن المرح ، ضاقوا بالزاهد ولم يعبأوا بالمتحرر ، رفضوا يحيى البتول ، ونفروا من عيسى الأكول ، يقول عيسى عليه السلام مصوراً هذه الحيرة « بمن أشبه هذا الجيل يشبه أولاداً جالسين فى الأسواق ينادون إلى أصحابهم ويقولون : زمرنا لكم فلم ترقصوا ، نحنا لكم فلم تلطموا ، لأنه جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فيقولون فيه شيطان ، جاء ابن الإنسان (عيسى) يأكل ويشرب فيقولون هو ذا إنسان أكول وشريب خمر ، محب للعشارين والخطاة ، والحكمة تبررت من بنيها » (١) .

شرب عيسى الخمر وحول الماء فى الأفراح إلى خمر ، هذا ما تقوله الأناجيل وإن كنا نعتقد أن عيسى عليه السلام لم يشرب

---

(١) متى ص ١١ : ١٦ — ١٩ .

الخمر لأنها محرمة فى جميع الشرائع ، حرمها الله على هارون وأولاده عند دخول قبة الشهادة لئلا يموتوا (١) ، وذم النبى أشعياء شاربى الخمر ولعنهم (٢) ، أما يحيى عليه السلام فكان من صفات تقواه عدم شرب الخمر « لأنه يكون عظيما أمام الرب وخمراً ومسكراً لا يشرب » (٣) .

ومن يوحنا المعمدان أخذت المسيحية أيضاً سر المعمودية وهو أحد أسرار الكنيسة السبعة فكما كان يحيى يعمد الناس فى نهر الأردن ليتطهروا من الدنس والاثم ، صار العماد بالماء أهم شعائر الكنيسة ، فبمجرد ولادة الطفل يحضره والداه إلى الكنيسة لتعميده وإلا ظل كافرا ، فبالعماد فقط يصير الإنسان مسيحيا . وطريقة العماد فى الكنائس هى نفس طريقة يحيى عليه السلام ، صنعوا بئراً أو بحيرة صغيرة فى كل كنيسة على غرار نهر الأردن الذى كان يعمد يحيى فيه الناس ، وملأوا البحيرة بالماء ، فاذا احتاجوا لتعميد شخص لتنصيره سواء كان طفلا حديث الولادة ولد لأبوين مسيحيين ، أو كان رجلا أو امرأة اعتنقت المسيحية حديثا فانه يخلع ملابسه ويصير عاريا كما ولدته أمه ثم يأتى الكاهن ومساعدوه ويحملونه ويضعونه داخل البئر ويقومون بتغطيسه بأكمله ثلاث مرات فى البحيرة حتى يتطهر من دنس الحمل وخطيئة الميلاد ، ويصير مسيحيا مباركا :

---

(١) التوراة : أخبار ص ١٠ : ٨ — ٩ .
(٢) أشعياء ص ٥ : ٢٢ ، ص ٢٨ : ٧ .
(٣) انجيل لوقا ص ١ : ١٥ .

كان عيسى يتحاشى الجدل السياسى وتوجيه النقد للحكام أو ذوى السلطان ، بل كثيراً ما كان يلاينهم ، أما يحيى فكان سيفا بتارا على كل عوج أو انحلال ولو تعرض لأكبر الرءوس والعتاة ، لم يخشى فى الحق لائما ، ولم يكن على شىء نادما ، حتى دمه الثمين لم يبخل أن يبذله رخيصا على مذبح الفضيلة والشرف .

كان عيسى يدعو إلى طاعة الرومان وقيصرهم أغسطس مستعمرى إسرائيل ، وكان يحث مواطنيه على دفع الجزية والمكوس لهم ، أتوا إليه يوما يلتمسون منه النصح والإرشاد « قالوا له : أيجوز أن نعطى جزية لقيصر أم لا . نعطى أم لا نعطى ؟ » كان هذا السؤال المباشر محرجا لعيسى ، عيسى الذى حرص دواما على إرضاء الحكام ، وعدم الإصطدام بذوى السلطان ، كيف يرد على هؤلاء الذين أتوا إليه يتفجرون حنقا وغضبا على المستعمرين يبحثون عن زعيم يشعل فيهم نار الثورة ، ويحل قيودهم فى حرب التحرير . . ولكن عيسى لم يكن هذا الرجل ، ولذلك فقد أحرجه السؤال وتحير فى الإجابة ، ولذلك وقبل أن يجيب عاتب السائلين على هذا المأزق الذى أوقعوه فيه « قال لهم لماذا تجربوننى ؟ » . طلب عيسى إعفاءه من الإجابة ولكن أصرت الجماهير على طلبها ، وتمسكت بأملها ، ولكن عيسى خيب الآمال وحطم أحلام الجماهير ، وأمرهم باطاعة القيصر والانصياع للولاة ، ودفع الجزية والرسوم وحذرهم من الثورة والعصيان . . قال عيسى « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » (١) .

---

(١) الاناجيل متى ص ٢٢ : ١٥ — ٢٢ ، مرقس ص ١٢ : ١٣ — ١٧ ، لوقا ص ٢٠ : ٢٠ — ٢٦ .

دعا عيسى قومه إلى إطاعة قيصر كما يطاع الله ، وكانت إجابة عيسى مثار دهشة الجماهير ، ولقد أعترف كتاب الأناجيل بما أصاب الناس من ضيق وأسف لرد عيسى الذى خيب الآمال ، تقول الأناجيل إن الجموع « تعجبوا منه » وحزنوا على آمالهم الضائعة فيه .

وعلى درب عيسى سار تلاميذه من بعده ، يدعون إلى طاعة السلاطين ، والانصياع للملوك ، كلمة الله وظله على الأرض ، الذين أقامهم سبحانه نوابا عنه ، وأمر الناس بإطاعتهم والخضوع لرغباتهم ، يقول بولس فى رسالته إلى أهل مدينة رومية « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ، لأنه ليس سلطان إلا من الله والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة . . أعطوا الجميع حقوقهم ، الجزية لمن له الجزية . الجباية لمن له الجباية ، والخوف لمن له الخوف والاكرام لمن له الاكرام » (١) .

وفى الرسالة إلى أهل مدينة أفسس يدعو بولس العبيد إلى إطاعة السادة ، فتلك هى مشيئة الله « أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب » (٢) أما بطرس التلميذ الأول لعيسى وخليفته فيدعو

---

(١) رومية ص ١٣ : ١ — ٢ ، ٧ — ١٨ .
(٢) افسس ص ٦ : ٥ — ٦ .

أيضاً إلى إطاعة الملوك والولاة والسلاطين ليس الصالحين منهم فقط بل أيضاً الظالمين والمتجبرين ويدعوا العبيد لاطاعة السادة « اخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب ، إن كان للملك فكمن هو فوق الكل ، أو للولاة فكمرسلين منه أكرموا الملك ، أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ، ليس للصالحين المترفقين فقط بل للقساة أيضاً » (١) .

دعا تلاميذ عيسى أتباعهم إلى طاعة الملوك والسلاطين وإلى الخضوع للجباة ودفع المكوس والضرائب لهم والاستكانة لكافة رغباتهم ، كما دعوا العبيد للخضوع للسادة والرضى بالذل والهوان ، دعوا إلى طاعة الملوك والسادة ، ففى طاعتهم طاعة الله ، وفى رضاهم رضا الرحمن .

هكذا كان عيسى ملاينا أما يحيى فكان صارما ، كان يحيى ثورة من أجل الحق ، وبركانا يغلى بالغضب والحمية على الشرف ، لم يعرف فى الحق كبيراً ، ولم يخش فيه سلطانا أو أميراً ، حارب الظلم والفساد فى القصور وتعقبه فى الفلوات ، أصر على تطهير الرءوس قبل تنظيف الأقدام ، وظل حياته أمينا على الصدق ، يسعى دائما للقضاء على الاثم ولو كلفه ذلك عمره ، ولم يبخل بحياته يبذلها رخيصة فى سبيل الحق ، كان يستطيع أن ينقذ رأسه بكلمة ، ليست لفظ استعطاف أو استجداء بل مجرد العدول عن رأى سابق ،

---

(١) بطرس ٢ : ١٣ — ١٤ ، ١٧ — ١٨ .

مجرد التخفيف من هجومه الحاد على الملك وزوجه ، ولكنه رفض وقدم رأسه طواعية واختياراً فوق طبق ، ضريبة هينة وتضحية ضئيلة من أجل القيم والمبادىء .

كان الملك هيروديس حاكم الجليل فى ذلك الوقت ، وكان غارقا فى الشهوة حتى أنفه تساق إلى قصوره أجمل الفتيات ، وأفتن الراقصات عاريات ، يقضى الليالى بينهن فى خلاعة ومجون ، يتجرع كئوس الخمر ويعب كئوس الشهوة ، ويتباهى بارتكاب المعاصى والمنكرات ، كان لا يلمح جميلة إلا انطلق الوحش الكامن فى نفسه يبغى افتراسها ولو كانت من المحرمات شرعا ، ولو ارتكب فى ذلك أبشع الجرائم أو هتك الحرمات . ذهب يوما لزيارة شقيقه فيلبس فى روما ، فأعجبته هيروديا زوجة أخيه ، عبث جمالها بفؤاده ، وأيقظ الحيوان بداخله فراح يرمقها فى اشتهاء ، ويغازلها فى غفلة أخيه ، ويزين لها الهرب معه إلى بلاده حتى وافقت اللعوب وتركت زوجها وعادت مع الذئب إلى مملكته ، فطلق زوجته واقترن بها ، ولم يرض نبى الله يحيى عن هذه المعاصى فراح يندد بآثام الذئب واللعوب ، ويدعو هيروديس إلى ترك زوجة أخيه ، مما أثار غضب الملك وزوجه ، وكلف يوحنا حياته ، دفعت ثمنها سالومى ابنة هيروديا ، وكان الثمن رقصة ماجنة لسالومى أثارت الملك فدفع إليها برأس يوحنا . ونترك للحوارى مرقس يروى لنا قصة مصرع يحيى عليه السلام ، يقول مرقس « لأن هيروديس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه فى السجن من أجل هيروديا إمرأة فيلبس

أخيه إذ كان قد تزوج بها لأن يوحنا كان يقول لهيروديس لا يحل لك إمرأة أخيك ، فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله ولم تقدر ، لأن هيروديس كان يهاب يوحنا عالما أنه رجل بار وقديس وكان يحفظه وإذ سمعه فعل كثيراً وسمعه بسرور . وإذا كان يوم موافق لما صنع هيروديس فى مولده عشاء لعظمائه وقواد الألوف ووجوه الجليل ، دخلت ابنة هيروديا ورقصت ، فسرت هيروديس والمتكئين معه فقال الملك للصبية : مهما أردت أطلبى منى فأعطيك ، وأقسم لها أن مهما طلبت منى لأعطينك حتى نصف مملكتى ، فخرجت وقالت لأمها وماذا أطلب : فقالت : رأس يوحنا المعمدان فدخلت للتو بسرعة إلى الملك وطلبت قائلة : أريد أن تعطينى حالا رأس يوحنا المعمدان على طبق فحزن الملك جدا ، ولأجل الأقسام والمتكئين لم يرد أن يردها ، فللوقت أرسل الملك سيافا وأمر أن يؤتى برأسه فمضى وقطع رأسه فى السجن وأتى برأسه على طبق وأعطاه للصبية والصبية أعطته لأمها » (١) .

ويعلق الأديب عبد الحميد السحار على هذا الحادث الأليم بقوله « ذبح يحيي ، ذبح من قال عيسى عنه : لم تلد النساء مثله ، ذبح وما اقترف إثما ولا خطيئة ، ذبح طاهر الذيل عفيفا ، ولو كانت دعوى الفداء حقا ، وأن الله يريد فداء عن خطيئة آدم ، ولو كان الأبناء يكفرون عن خطايا الآباء لكان ذلك الدم الطاهر ، الذى

---

(١) مرقس ص ٦ : ١٧ — ٢٩ ، متى ١٤ : ٣ — ١١

أهدر بلا جريرة ، أزكى دم يقدم للفداء ، وخير كفارة عن خطيئة دم » (١) .

هذا هو يحيى النبي العظيم بدأ الرسالة قبل عيسى ، وأتى إليه عيسى فتعمد منه وتتلمذ على يديه ، وأخذ عنه طريقته وتعاليمه ، وإن لم يكن عيسى فى زهده وتحنثه ، وفى صرامته وشدته ، فلما نال يحيى شرف الشهادة وقدم رأسه قربانا على مذبح الفضيلة ، التقط عيسى الخيط وأكمل الرسالة بمساعدة تلاميذ يحيى الذين صاروا تلاميذاً لعيسى .

وهنا قد يثور التساؤل . . كيف يظهر يحيى وعيسى فى وقت واحد ، نبيان مختلفان فى عصر واحد برسالة واحدة ، يكمل كل منهما الآخر ، أليس الأمر مثيرا للدهشة ؟

قد يبدو ذلك غريبا لأول وهلة ولكن من يطلع على تاريخ بنى إسرائيل يعلم أن حدوث ذلك شىء عادى فى إسرائيل ، فأنبياء بنى إسرائيل كثيراً ما يتعاصرون ، فيظهر عدة أنبياء فى وقت واحد ، وقد يكونون أيضاً من عائلة واحدة ، فلقد تعاصر إبراهيم ولوط ، وإسماعيل وإسحق ، وتعاصر يعقوب ويوسف وباقى الأسباط ، وتعاصر موسى وهارون ، وداود وسليمان ، ويحيى وعيسى ، وتعاصر غيرهم كثيرون . يحدثنا سفر الملوك الأول أن أنبياء بنى إسرائيل كانوا يكثرون فى الزمن الواحد حتى يعدوا بالمئات ،

---

(١) عبد الحميد جودة السحار — المسيح عيسى ابن مريم ١٣٨

يقول السفر « فجمع ملك إسرائيل الأنبياء نحو أربعمائة رجل ، وقال لهم : أأذهب إلى راموت جلعاد للقتال أم أمتنع ، قالوا : اصعد فيدفعها السيد ليد الملك » (١) وخير ما ورد فى وصف أنبياء بنى إسرائيل ، وطبيعة عملهم ، وكثرة عددهم فى الزمن الواحد ، قول محمد عليه الصلاة والسلام « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل» فعمل النبى فى إسرائيل كعمل العالم والفقيه فى الاسلام ، تفسير للشرائع والنواميس وحض على اتباع الخير ، وسير على نهج سنن الأولين ، يقول عيسى عليه السلام مؤكدا أن رسالته ليست إلا تفسيراً وإكمالا لما بدأه سالفوه يقول عيسى « لاتظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ، ما جئت لأنقض بل لأكمل » .

جاء يحيى وعيسى برسالة واحدة سارا بها على درب الأنبياء السابقين ، وأتما بها شرائع الأولين ، ثم جاء محمد خاتم المرسلين ، فأكمل برسالته الرسائل ، وختم بشريعته الشرائع ، يقول تبارك وتعالى « اليومَ أكملتُ لكم دينَكم ، وأتممتُ عليكم نعمتى ورضيتُ لكم الاسلامَ (٢) دينا » (المائدة) .

---

(١) ملوك ١ ص ٢٢ : ٦

(٢) انظر معنى الاسلام فى كتابنا « الله واحد أم ثالوث » ع

الفصل الثالث

حديث المعجزات

لم تخل معظم الدعوات صادقة أو كاذبة ، ولم يعدم جل الدعاة فجرة أو صالحين الاستعانة بالخوارق والآيات يؤيدون بها دعاواهم ، ويرمون بها إلى السيطرة على الناس ، وتطويعهم لإرادتهم وحملهم على الانصياع لهم .

والدعاة الصادقون يلجئون إلى السماء يسألون العون والنصرة ، فيمن عليهم العلى القدير بما يشاء من مواهب وامكانيات ، أما الدعاة الكاذبون فيحالفون الجن والشياطين يطلبون المساندة والتأييد ، فتجند لهم مملكة الشيطان ما تيسر من القوى والاستعدادات .

معجزات عيسى :

تروى السير المسيحية أن عيسى عليه السلام قد صنع كثيراً من المعجزات ، أخرج الشياطين وشفى المجانين ، جعل العرج يمشون والخرس يتكلمون ، والعمى يبصرون والبرصى يبرأون ، بل أحيا الموتى من القبور وخلق من الطين الطيور .

هذه المعجزات كانت دليل عيسى الأول ، وبرهانه على صحة نبوته وصدق رسالته ، بل كانت الركيزة الأولى التي قامت عليها

المسيحية ، يقول الأمام محمد عبده « أول أصل قامت عليه المسيحية وعمادها هو خوارق العادات ، فاذا قرأت الأناجيل المعتمدة فلا تجد للمسيح دليلا على صدقه إلا ما كان يصنع من الخوارق التى تطيل الأناجيل فى شرحها وتزيد فى عددها ، فخوارق العادات من أظهر الآيات على صحة الاعتقادات » .

ولقد كانت هذه المعجزات التى لجأ إليها عيسى لتأييد دعواه . ولحمل الناس على تصديقه بابا نفذت منه دعوى القول بتأليهه ، فما دام يشفى الأمراض والأوجاع ، ويرد البصر والحياة ويأتى بالخوارق التى يعجز عنها سائر البشر ، فلا شك أنه ليس إنسانا عاديا ، والأرجح أنه إله أو إبن إله أو بعض إله نزل من السماء وأتى إلى الأرض يعرض على الناس مكنات الآلهة وقدراتها على البشر .

صاحب المعجزات :

ومع تسليمنا بصحة المعجزات التى فعلها عيسى ، وبصدق ما روته الأناجيل عنها فانه يهمنا بادىء ذى بدىء أن نتساءل : هل كان عيسى يعزو هذه المعجزات إلى نفسه ، أم إلى غيره ؟ هل كان ينسب فضل الآيات إلى ذاته زاعما أنه صاحبها ومصدرها ؟ أم أنه كان مجرد أداة سخرها آخر لأظهار هذه المعجزات ؟ ومن هو هذا الآخر الذى سخر عيسى وأيده بتلك المعجزات ؟ قبل أن نجيب على هذا السؤال يهمنا أن نتتبع معجزات عيسى لنرى كيفية إتيانه لها ولمن ينسبها ؟

تحدثنا الأناجيل عن معجزة إشباع آلاف من الجياع بخمسة أرغفة وسمكتين فتقول : « فأمر الجموع أن يتكئوا على العشب ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسر ، وأعطى الأرغفة للتلاميذ ، والتلاميذ للجموع ، فأكل الجميع وشبعوا ، ثم رفعوا ما فضل من الكسر أثنتى عشرة قفة مملوءة والأكلون كانوا نحو خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأولاد » (١) .

هنا نرى عيسى قبل أن يقوم بالمعجزة وقبل أن يبارك الخبز ويقطعه آلاف القطع لاشباع الناس « يرفع نظره نحو السماء » فلماذا يرفع عيسى نظره إلى السماء ؟ ولمن يتجه ؟ ومن الذى يطلب منه عيسى العون على إتيان المعجزة ؟ هل كان يتطلع إلى أحد النجوم أو الكواكب ؟ أو إلى الشمس أو القمر ؟ أو أحد المخلوقات فى السماء يلتمس منها التأييد لاتمام المعجزة ؟ أم كان يدعو خالق الأرض والسماء ليمنحه القوة على تحقيق المعجزة ؟ .

ومرة أخرى تتكرر معجزة الاشباع ، فيقوم عيسى باطعام أربعة آلاف رجل خلا النساء والأطفال بسبع خبزات وقليل من صغار السمك ، وهنا نرى عيسى أيضاً يصلى ويبارك ويحمد ويشكر « أخذ السبع خبزات والسمك وشكر وكسر (٢) » فمن يا ترى

(١) متى ١٤ : ١٥ — ٢١ ، مر ٦ : ٣٤ — ٤٤ ، لو ٩ : ١١ — ١٧ ، يو ٦ : ٥ — ١٣

(٢) متى ١٥ : ٣٢ — ٣٨ ، مر ٨ : ١ — ٩.

ذلك الذى صلى إليه عيسى ، وحمده وشكره على هذه المعجزة ؟ هل كان يصلى إلى نفسه ويحمدها ويشكرها ؟ أم كان يشكر آخر ؟ ومن هو هذا الآخر ؟ يروى لنا الحوارى مرقس قصة شفاء عيسى لرجل أصم الأذنين أعقد اللسان ، لا يسمع ولا يتكلم يقول مرقس « وجاءوا إليه بأصم أعقد وطلبوا إليه أن يضع يده عليه ، فأخذه من بين الجمع على ناحية ووضع أصابعه فى أذنيه وتفل ولمس لسانه.. ورفع نظره نحو السماء وقال له : افنا أى انفتح ، وفى الوقت انفتحت أذناه وانحل رباط لسانه وتكلم مستقيما » (١) .

هنا أيضاً نرى عيسى قبل أن يقوم بالمعجزة يرفع نظره نحو السماء ويئن ويتوجع على الرجل الأصم الأبكم ، ويسترحم السماء ويتوسل إليها أن تعيد السمع والنطق إلى الرجل المسكين ، وعندما يصل دعاء عيسى إلى عنان السماء ويسمح خالقها لعيسى بصنع المعجزة ، يتخذ عيسى الخطوات التنفيذية لإتمام المعجزة فتنفتح أذنا الرجل وينحل رباط لسانه .

الله صاحبهـــا :

ومع استطرادنا فى ذكر المعجزات التى قام بها عيسى ، يتضح لنا صاحب هذه المعجزات والمصدر الذى استمد منه عيسى القدرة على إتيانها ، يتضح لنا ذلك كما اتضح للجموع الذين شاهدوا هذه المعجزات ، بل وللمرضى أنفسهم الذين كانوا محلا لهذه المعجزات •

---

(١) مر ٧ : ٣٢ — ٣٥

يروى الحوارى لوقا قصة شفاء عيسى لصبى كان به روح نجس ، كان يتقمصه شيطان فيصرخ الصبى فزعا ، وينتابه الصرع والهوس ، ولا يتركه الشيطان إلا وقد أنهك قواه . يقول لوقا « فانتهر يسوع الروح النجس وشفى الصبى وسلمه إلى أبيه ، فبهت الجميع من عظمة الله » (١) .

ومرة ثانية يرى عيسى امرأة مقوسة الظهر ، ظلت منحنية طوال ثمانى عشرة سنة ، تسير وقد أنهكها الضعف وأجهدها الخور والهزال ، فيرق لها قلب عيسى فيقوم بشفائها ، يقول لوقا « فلما رآها يسوع دعاها وقال لها : يا امرأة إنك محلولة من ضعفك ، ووضع عليها يديه ففى الحال استقامت ومجدت الله » .

ومرة ثالثة يزداد بها وضوح المصدر وينجلى بها الطريق إلى المنبع ، ويعرف الجميع الفرق بين المالك والمملوك ، وبين التابع والمتبوع ، وبين الأصل والأداة ، يحدثنا متى عن مفلوج أتوا به إلى عيسى محمولا على فراشه لا يستطيع السير أو الحركة « حينئذ قال للمفلوج : قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك ، فقام ومضى إلى بيته ، فلما رأى الجموع تعجبوا ومجدوا الله الذى أعطى الناس سلطانا مثل هذا » (٢) .

ومرة رابعة شحاذ أعمى يعيد إليه عيسى قوة الابصار ، وحين تتفتح عينا الأعمى يمجد الله وجميع الشعب إذ رأوا سبحوا الله » (٣)

---

(١) لو ٩ : ٣٧ — ٤٣
(٢) متى ١٣ : ١٠ — ١٣
(٣) لو ١٨ : ٣٥ — ٤٣

ومرة خامسة يقوم عيسى بأحياء ابنة أرملة نايين ، فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين قد قام فينا نبى عظيم وافتقد الله شعبه : (١)

معجزات مختلفة جرت على أيدى عيسى وشاهدها الناس فسعدوا بها وفرحوا لها ، ولكن أبصارهم لم تقف عند الأداة التى صنعت المعجزة بل امتدت إلى خالق الأداة ومحركها ، امتدت إلى مصدر المعجزات وصاحبها ، عرفوا الأصل والمنبع ، وردوا الحق إلى نصابه ، شفى عيسى الصبى الذى كان يتقمصه الشيطان فبهت الجموع من عظمة الله ، لم يندهش الناس من عظمة عيسى ولم يقدسوه أو يؤلهوه ، بل بهتوا من عظمة الله مصدر الآيات ومجريها على أيدى عيسى ، واستقام ظهر المرأة المنحنية فسارت مستقيمة فمجدت الله ، مجدت صاحب السلطان ، وخالق عيسى الإنسان ، وشفى المفلوج ورأت الجموع ذلك فمجدوا الله الذى أعطى عيسى وغيره من المرسلين هذا السلطان على صنع المعجزات .

وأصدقاء عيسى وأخصاؤه الذين عرفوا مكانته وخبروا أدق أموره ، جهروا صراحة بأن معجزات عيسى وآياته هى من صنع الرحمن ، وما عيسى إلا الأداة التى سخرها سبحانه لأظهار الأعاجيب للناس ، هذا نيقودیموس أحد أشراف اليهود ، وصديق عيسى الحميم ، يشهد لعيسى بأنه مرسل من قبل الله وبأنه لولا تأييد الله له

---

(١) لو ٧ : ١١ — ١٧

لما استطاع أن يقوم بشيء من المعجزات يقول الحوارى يوحنا « كان إنسان من الفريسيين اسمه نيقوديموس رئيس لليهود ، هذا جاء إلى يسوع ليلا وقال له : يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلما لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التى أنت تعمل إن لم يكن الله معه » (١) .

ونفس الحقيقة يعلنها للناس فى صراحة بطرس ، خليفة عيسى وصديقه الصدوق يقول بطرس : « أيها الرجال الإسرائيليون إسمعوا هذه الأقوال ، يسوع الناصرى رجل قد تبرهن من قبل الله ، بقوات وعجائب صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم أيضاً تعلمون » (٢).وعيسى نفسه النبى الصادق الأمين ، لم يخدع الناس ولم يوهمهم أنه صاحب المعجزة أو مصدر الآية ، بل كاشف الجموع بالحقيقة كاملة ، ما هو إلا رسول سخره الله لخدمة الحق ومنحه المعجزات لتأييد رسالته .

بينما عيسى يسير فى الطريق مع حوارييه إذ رأى إنسانا أعمى منذ ولادته ، وسأل الحواريون معلمهم ، لماذا ولد هذا أعمى ؟ هل لخطأ ارتكبه هو أم لذنب جناه أبواه ؟ أجاب يسوع لا هذا أخطأ ولا أبواه ، ولكن لتظهر أعمال الله فيه . . ينبغى أن أعمل أعمال الذى أرسلنى » (٣) إذن فالأعمال أعمال الله ، والمعجزات

(١) يو ٣ : ١ — ٢
(٢) أعمال الرسل ص ٢ : ٢٢
(٣) يو ٩ : ١ — ٥

من عند الله ، وليس أمام عيسى إلا أن ينفذ ما رسمه الله له ، وأن ينجز العمل الذى كلفه سبحانه به .

ورواية أخرى يرويها لنا لوقا نرى فيها عيسى يدعو الناس إلى تمجيد الله الذى وهبه قدرة الشفاء ومنّ عليه بمكنة الابراء ، يقول لوقا عنه « وفيما هو داخل إلى قرية استقبله عشرة رجال برصى فوقفوا من بعيد ، ورفعوا صوتا قائلين : يا يسوع يا معلم ارحمنا ، فنظر وقال لهم : أذهبوا وأروا أنفسكم للكهنة ، وفيما هم منطلقون طهروا فواحد منهم لما رأى أنه شفى رجع يمجد الله بصوت عظيم ، وخر على وجهه عند رجليه شاكراً له وكان سامريا ، فأجاب يسوع وقال : أليس العشرة قد طهروا . فأين التسعة ؟ ألم يوجد من يرجع ليعطى مجدا لله غير هذا الغريب الجنس ؟ ثم قال له : قم وأمض إيمانك قد خلصك » (١) .

هنا نرى عيسى يشفى عشرة رجال برصى ، وقبل أن يقوم بشفائهم يأمرهم بالذهاب إلى هيكل اليهود وتقديم أنفسهم للأحبار والكهان ، والابتهال إلى يهوة إله إسرائيل ، وعندما يطيعون فى الطريق يطهرون ويعود أحدهم إلى المعلم عيسى يشكره ويمجد الله رب عيسى ، وهنا يفرح عيسى بالرجل الذى وضع الأمور فى نصابها وأعطى لكل ذى حق حقه ، فالمجد لله مصدر المعجزات ، والشكر للإنسان الذى أجرى الله على يديه المعجزة ، ويأسف عيسى

---

(١) لو ١٧ : ١١ — ١٩

لأن باقي العشرة لم يفعلوا كما فعل هذا السامرى الغريب عن السلالة اليهودية الأصيلة . !

خوف الفشـــــل :

وعندما ذهب عيسى لاحياء لعازر ، شقيق صديقتيه مريم ومرثا ، نرى عيسى عندما يسمع بوفاة صديقه يضطرب وينزعج ، ويحزن ويبكى على الراحل العزيز ، وما هذا شأن الواثق من عمله ، المطمئن إلى إنجاز مهمته باعادة الحياة إلى صديقه ، بل نرى عيسى يشخص بعينيه إلى أعلا ويبتهل إلى الله أن يستجيب له وألا يرفض طلبه ، ولا يرد وجهه ويقيم صديقه من الموت من أجله ، ومن أجل الجموع الشاهدة لتؤمن بالله وبرسوله عيسى ، يحدثنا يوحنا الحوارى عن هذه الأحداث وتلك المشاعر والمخاوف فيقول « فلما سمع يسوع قال : هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله . وكان يسوع يحب مرثا وأختها ولعازر . . فقالت مرثا ليسوع : يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخى ، ولكنى الآن أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه . . ولما قالت هذا مضت ودعت مريم أختها سراً قائلة : المعلم قد حضر وهو يدعوك ، أما تلك فلما سمعت قامت سريعا وجاءت إليه . . فلما رآها يسوع تبكى واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب ، وقال : أين وضعتموه ؟ فقالوا له : يا سيد تعال وانظر ، بكى يسوع . فقال اليهود أنظروا كيف كان يحبه ، وقال بعض منهم : ألم يقدر هذا

الذى فتح عينى الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت ، فانزعج يسوع أيضاً فى نفسه (خوف الفشل) وجاء إلى القبر ، وكانت مغارة وقد وضع عليه حجر قال يسوع : ارفعوا الحجر ، قالت له مرثا أخت الميت يا سيدى قد انتن لأن له أربعة أيام ، قال لها يسوع : ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله ، فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعا ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال : أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لى وأنا علمت أنك فى كل حين تسمع لى ، ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتنى ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجا ، فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل ، فقال لهم يسوع : حلوه ودعوه يذهب » (١) .

لم ينسب عيسى الخوارق والآيات التى أتاها إلى نفسه ، ولكنه ردها إلى صاحبها ، إلى الله مرسله وخالقه ، إلى « إصبع الله » ، وإلى روح الله ، وإلى قوة الله ، فليس لعيسى من الأمر شىء ، ولكن الأمر كله لله ، هذه الحقيقة الكاملة ، وهذا التسليم الكامل بالعجز أمام قدرة الله ، يعلنه عيسى فى صدق « أنا لا أقدر أن أفعل من نفسى شيئاً » (٢) . هذا هو الحق ، وهذا هو الصدق ، فليس عيسى إلا الأداة والوسيلة التى سخرها الله لتحقيق أغراضه وإجراء المعجزات على يديه ، ليؤمن الناس بالرسالة التى بعثه

---

(١) يو ١١ : ١ — ٤٤ (٢) يو ٥ : ٣٠

الله بها لخيرهم وسعادتهم ، وليصدقوا انه رسول الله يامرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر .

زهـــده فيها :

عرف عيسى أن هذه المعجزات التى سخره الله لأدائها ليست مقصودة لذاتها بل لدفع الناس إلى الإيمان بالرسالة ، فهى ليست غاية فى ذاتها وإنما وسيلة لحمل الناس على التصديق ، ورغم ضرورتها فى بعض الظروف والأوقات فانها ليست الوسيلة المثلى لاقناع الناس بصحة الرسالة ، وليست الطريقة المستحبة لإرشاد البشر إلى طريق الله .

عرف عيسى هذه الحقائق وكان يأمل فى إرشاد الناس إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة دون إرهاب أو تخويف ، لذلك لم يكن يلجأ إلى تلك الوسائل إلا مضطراً كارها وبعد إلحاح الناس عليه وإصرارهم عليها ، فهو يبدأ فى القاء العظات على الناس شارحا لهم جمال الطاعة ومغبة العصيان مبينا لهم طريق الحق والصدق ، فاذا استمع الناس وتنبهت عقولهم فرح عيسى وانشرح ، أما إذا وجد أمامه قوما عميت أبصارهم وختمت أفئدتهم ، وران الصدأ والغباء على عقولهم وقلوبهم ، فلا يؤمنون إلا بالخوارق والقوارع والأعاجيب ، ولا يصدقون إلا القوة والأرهاب والتخويف فلا مفر من الاتيان بمعجزة تصدع هؤلاء الغلف ، وتردهم عن الغى والخلف .

يحدثنا الحوارى يوحنا أن خادما للملك كان ابنه مريضا فأتى

لى عيسى وطلب منه أن يذهب إلى بيته ويشفى ابنه ، وتبرم عيسى من طلب الرجل وضاق بأن تكون كل مهمته فى الحياة تطبيب الناس وشفاء الأمراض « فقال له يسوع : لا تؤمنون إن لم ترو آيات وعجائب » (١) ولكن الرجل ازداد إلحاحا ورجاء مما اضطر عيسى إلى الذهاب معه وشفاء ابنه ، وهنا فقط آمن الرجل وأهل بيته برسالة عيسى .

وكثيراً ما نرى عيسى يزداد به الضيق والتبرم من هذا الأسلوب لحمل الناس على الإيمان ، فيرفض تماما القيام بأى معجزة مهما طلب القوم وألحوا فى الرجاء ، يروى لنا الحوارى مرقس قصة إحدى المرات التى أصرفيها عيسى على عدم اللجوء إلى المعجزة لفرض الإيمان على الناس ، يقول مرقس « فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكى يجربوه فتنهد بروحه وقال : لماذا يطلب هذا الجيل آية ، الحق أقول لكم لن يعطى هذا الجيل آية ، ثم تركهم ودخل السفينة ومضى إلى العبر » (٢) .

بل كثيراً ما يصل الضيق والتبرم بعيسى إلى غايته ، فلا يكتفى فقط بعدم القيام بالمعجزة بل يزجر طالبيها ويعنفهم ، ويسبهم ويلعنهم على جهلهم وغبائهم ، وعلى الحاحهم لحمله وهو الرسول الكريم على اللجوء إلى هذا الطريق ، تقول الأناجيل « حينئذ أجاب قوم من الكتبة والفريسين قائلين : يا معلم نريد أن نرى منك آية ،

---

(١) يو ص ٤ : ٤٦ — ٥٣
(٢) متى ١٢ : ٣٨ — ٣٩ ، لو ١١ : ٢٩

فأجاب وقال لهم : جيل شرير وفاسق يطلب آية ولا تعطى له آية » (١) .

فى هذه الحوادث المتكررة التى تواترت فيها روايات الأناجيل نرى عيسى زاهداً فى هذا الأسلوب لحمل الناس على الإيمان ولا رشادهم إلى طريق الله ، بل نراه يضيق ويتبرم من هذه الوسيلة ، ويرفض كثيراً اللجوء إليها أو استعمالها ، مؤكداً أن طريق الله واضح مستقيم لكل من له عقل أو بصيرة ، وأنه لا يحجب الله عن الناس إلا الفسق والفجور ، والدنس والاثم ، ولو تطهر الناس من شرهم وفسوقهم لما احتاجوا إلى الخوارق لاكراههم على الايمان ، ولا هتدوا إلى الحق بعقولهم وفطرتهم السليمة .

يقول الكتاب الكريم « قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » (يونس ١٠٨) .

حرصه على اخفائها :

وحتى عندما كان عيسى يقبل إلحاح الناس للاتيان بمعجزة ، وعندما كان يستجيب له ربه فيجرى على يديه الآية ، فانه كان حريصا على ألا تعلن المعجزات أو تشيع بل كان يوصى دائما بابقائها فى طى الكتمان .

---

(١) متى ١٢ : ٣٨ — ٣٩ ، لوقا ص ١١ : ٢٩

تحدثنا الأناجيل أن رجلا أبرص أتى إلى عيسى وطلب أن يشفيه « فتحنن يسوع ومد يده ولمسه وقال له : أريد فاطهر فللوقت وهو يتكلم ذهب عنه البرص وطهر ، فانتهره وأرسله للوقت وقال له : أنظر لا تقل لأحد شيئاً (١) » .

وعندما شفى عيسى أعميين قابلهما فى الطريق ، كرر لهما نفس التحذير ، ألا يقولا لأحد . يقول الحوارى متى « فقال لهما يسوع : أتؤمنان أنى أقدر أن أفعل هذا ، قالا له : نعم ياسيد ، حينئذ لمس أعينهما قائلا : بحسب إيمانكما ليكن لكما ، فانفتحت عينهما فانتهرهما يسوع قائلا : أنظرا لا يعلم أحد » (٢) .

وحادثة ثالثة يرويها لنا مرقس ، قصة أعمى شفاه عيسى ، يقول مرقس عنه « فأخذ بيد الأعمى وأخرجه إلى خارج القرية ، وتفل فى عينيه ووضع يديه عليه وسأله : هل أبصرت شيئاً ؟ فتطلع وقال : أبصر الناس كأشجار يمشون ، ثم وضع يديه أيضاً على عينيه وجعله يتطلع فعاد صحيحا وأبصر كل إنسان جليا ، فأرسله إلى بيته قائلا لا تدخل القرية ولا تقل لأحد فى القرية » (٣) .

فى هذه الحوادث وأمثالها التى تتكرر فى الأناجيل نرى مدى حرص عيسى على أن تظل معجزاته طى الكتمان ، لا يعلمها

---

(١) مرقس ١ : ٤٠ — ٤٤ ، متى ٨ : ٢ — ٤ ، لوقا ٥ : ١٢ — ٤١

(٢) متى ٩ : ٢٧ — ٣٠

(٣) مرقس ٨ : ٢٢ — ٢٦

أحد ، ولا يدرى بها أحد ، بل نرى عيسى فى بعض الأحيان يبالغ فى إخفاء معجزاته ، وإبعاد أحداثها عن أعين الجماهير حتى أننا نراه فى هذه الحادثة الأخيرة التى فتح فيها عينى الأعمى نراه قبل أن يقوم بمعجزته يأخذ بيد الأعمى إلى خارج القرية ، بعيداً عن الناس ، وعن أعين الطفيليين والرقباء ، فاذا اختلى بالرجل قام بشفائه من عجز عينيه ، وبعد إتمام المعجزة يكرر عيسى تحذيره للرجل بأن يعود إلى بيته فى هدوء وألا يدخل القرية مرة أخرى حتى لا يراه الناس سليم العينين ، بل حتى إذا رآه أحد أهالى القرية خارجها بعد ذلك ولم يلحظ أنه هو الذى كان أعمى ، فلا يقل له شيئاً .

هذا الاتجاه من عيسى يدعونا إلى التأمل ، لماذا كان يحرص عيسى على إخفاء المعجزات وإبقائها فى طى الكتمان ، وعلى ألا يفعلها وسط الجموع أو بين الجماهير . هل كانت فى معجزاته بعض ثغرات كان يخشى إذا أعيد سردها على الجماهير أن يلحظوا ما فيها من قصور ويتناولوها بالنقد والتجريح ، خاصة وأن أغلب آثار تلك المعجزات كانت تعتمد على الايحاء ، وعلى إيمان الناس بقدرة عيسى على الشفاء ، بحيث أن غير المصدقين لم تكن تفلح معهم المعجزة . . . نرى صدى لهذا الرأى فى كثير من معجزات عيسى « قم وامض إيمانك قد خلصك » ، « إن آمنت ترين مجد الله » ، « بحسب إيمانكما ليكن لكما » ، وغير ذلك كثير .

أم كان عيسى يختص بمعجزاته أشخاصا معينين ، قريبين إلى

قلبه ، يرتاح إليهم ويريد راحتهم ، فيرفض منح هباته للآخرين ، ويحرص على ألا تنتشر أخبارها بين الجموع حتى لا يزعجوه برغباتهم وطلباتهم ، يحدثنا بترسون سميث عن معجزات عيسى فيقول « كان المسيح حريصا مقتصداً فى فعلها ، ولم يكن قصده فى صنعها إكراه القوم على الإيمان به ، وقد استخدم القوة الإلهية بالأكثر للترويح عن البشر وإسعادهم » (١) .

قد يكون فى بعض معجزات عيسى ما يؤيد رأى سميث من أن عيسى كان يستخدم قوته المعجزية فى الترويح عن البشر واسعادهم ، فبعض معجزاته لا علاقة لها بما بعثه به ربه فها هو ذا يدعى إلى عرس صديقته رفقة — عروس قانا الجليل — ويفرغ الخمر ، ويتضايق المدعوون وتخجل العروس وتتعرض للخزى أمام صواحبها ، فيسخر عيسى قوته المعجزية لتحويل الماء إلى أعتق الخمور ، من أجل إسعاد المدعوين .

بل نجد حادثا آخر نخرج منه بنفس المعنى والمدلول ، يأتى جابى الجزية إلى عيسى ومعه بطرس ويطلب منهما دفع ما عليهما من مكوس ، ويبحث عيسى وصديقه فلا يجدان معهما نقوداً فى ذلك الوقت ، وبدلا من أن يطلبا إلى الجابى إمهالهما إلى وقت آخر تكون فيه معهما نقود ، يأمر عيسى تلميذه قائلا « إذهب إلى

(١) بترسون سميث : حياة يسوع — ترجمة حبيب سعيد ص ٧٨

البحر وألق صنارة والسمكة التي تطلع أولا خذها ، ومتى فتحت فاها تجد إستاراً (١) فخذه وأعطهم عني وعنك » (٢) .

ونحن لا نرى رأي سميث ، القول بأن معجزات عيسى كانت مسرحيات حواة أو ألاعيب سحرة ، تسعد الناظرين ، وتروح عن المشاهدين ، نحن لا نرى هذه الوجهة من النظر بل الأصوب القول بأن رغبة عيسى في عدم إعلان معجزاته ، وعدم الدعاية لها والتهويل فيها ، راجع إلى رغبته في ألا تشغل المعجزات الناس عن جوهر الدين والرسالة ، وفي ألا تكون محور اهتمام الجموع ، فيتركون الشريعة والجوهر ويهتمون بالأشكال والأعراض ، وتصبح الخوارق شغلهم الشاغل ، وحديثهم بالليل والنهار ، وتسليتهم الوحيدة مع عيسى ، كلما حدثهم عن الله أو دعاهم إلى البر ، سألوه المعجزة ، وطلبوا منه الترويح ، ثم جلسوا يستمتعون بمشاهدة الآيات والأعاجيب ونسوا شريعة الله وناموسه .

الخلاف في حبكها :

هذه المعجزات الكثيرة لعيسى ، والتي بالغ البعض في ترديدها وسردها ، نلاحظ عدم اتفاق الرواة عليها ، لا في الكيف ولا في الكم ، ولا في الزمن ولا في الأسلوب ، البعض يقتصد في سرد الأحداث ، والبعض الآخر يغلو ويبالغ إلى درجة تفوق التصور ، البعض يورد

---

(١) عملة اسرائيلية قديمة

(٢) متى ١٧ : ٢٤ ـ ٢٧

حوادث لا يوردها الباقون ، والبعض الآخر يورد نفس الحادثة ولكن بطريقة أخرى تختلف كل الاختلاف عما أورده عليها غيرهم ، بعضهم يؤيد المعجزة والبعض ينفيها ، يقول الدكتور مول « جاء فى (الابو كريفا) وهى أناجيل غير معترف بها ولم تدمج فى أسفار العهد الجديد المعتمدة قصص معجزية لا تنسجم مع طبيعة المسيح كما نعرفها فى الأسفار المشروعة ، فهل نقدر أن نصدق مثلا ما جاء فى إنجيل توما من أن غلاما صعق لأنه اصطدم بيسوع وهو بعد صبى (١) .

بل كثيراً ما يشطح الخيال ببعض الرواة ، ولكن لا يسعفه التصور ، أو يخشى التكذيب فيطلق القول ، ولا يقيد حديثه بشىء .

البعض يؤكد أن عيسى أحيا صديقه العازر من الموت بعد بقائه فى القبر طوال أربعة أيام ، وهذا الحادث الكبير من أعظم معجزات عيسى ،ومع ذلك فقد أغفل ذكره معظم كتاب الأناجيل فهل وقع هذا الحادث فعلا أم أنه كان من وحى خيال يوحنا .

حوادث مختلفة يؤكدها ذلك وينكرها هذا ، ثم اقتصاد تارة ، وتهويل ومبالغات تارات ، وخيال جامح وأقوال بعيدة عن التصور ثم اختلافات وتناقضات .

---

(١) مول : رسل المسيح — ترجمة حبيب سعيد ص ٢٣

كل ذلك جعل الناس يتشككون فى صحة بعض معجزات عيسى ، وفى مدى اتفاقها مع الواقع هل قام عيسى حقا بهذه المعجزات ؟ أم قام فقط ببعضها ؟

المعجزة والايمـــان :

ولنتساءل الآن . هل نجحت معجزات عيسى فى حمل الناس على الإيمان ، وهل أفلحت فى إرشاد الناس إلى الطريق القويم ؟ من المؤسف أن الوقائع قد أثبتت عكس ذلك ، فلم تفلح المعجزة فى إقناع المكابر ، ولم تصلح الآية لتوجيه الغافل ، ولم تُجْدِ القوارع فى إرشاد من عميت أبصارهم وقلوبهم فعاشوا كالسوائم عن الحق غافلين . وتعترف الأناجيل بهذه الحقيقة ، وتقرر فى صراحة أنه لم يؤمن برسالة عيسى سوى نفر قليل ، أما الكثرة الغالبة فقد أنكروا نبوته وحاربوه ، حاربوه رغم المعجزات الكثيرة التى صنعها بينهم ، ورغم الآيات المتعددة التى قام بها أمامهم . يقول الحوارى يوحنا فى أسى « ومع أنه قد صنع أمامهم آيات هذا عددها لم يؤمنوا به » (١) .

وليت الأمر اقتصر على الجحود والنكران ، أو توقف عند الانكار والتكذيب ، فلم يكتف القوم بذلك ، لم يكتف اليهود بتكذيب عيسى وإنكار معجزاته ، بل اعتبروا عيسى من الأنبياء الكاذبين والدعاة المخاتلين ، الذين يلجئون إلى الحيل والألاعيب

---

(١) يو ١٢ : ٣٧

لتأييد دعواهم ، والذين يتحالفون مع المردة والشياطين لتدعيم شأنهم ، كذبوا عيسى ونسبوا معجزاته إلى الجن والشيطان ، بل جعلوه حليف « بلعزبول » رئيس الشياطين ، انضوى عيسى تحت لوائه ليسخر له قوى مملكة الشيطان ، ويخدع بألا عيبه بنى الإنسان .

تحدثنا الأناجيل أنه أحضر إلى عيسى مجنون أعمى وأخرس فشفاه عيسى فأبصر وتكلم ولما سمع اليهود بهذا الخبر « قالوا : هذا لا يخرج الشياطين إلا بعلزبول رئيس الشياطين » (١) .

ومرة أخرى شاهد عيسى إنسانا أخرس مجنونا ، فلما أخرج منه الشيطان تكلم الأخرس وكان تعليق الناس « برئيس الشياطين يخرج الشياطين » (٢) .

وحتى علماء اليهود وكتبتهم فقد كان لديهم نفس الاعتقاد عن عيسى حليف الشيطان ، يقول مرقس « وأما الكتبة الذين نزلوا من أورشليم فقالوا : إن معه يعلزبول ، وإنه برئيس الشيطان يخرج الشياطين » (٣) .

اعتبروا عيسى حليف الشيطان واعتبروه ساحرا ومشعوذا يتقمصه الشيطان ، يصف لنا الحوارى يوحنا محاورة بين عيسى

---

(١) متى ١٢ : ٢٣ — ٢٤
(٢) متى ٩ : ٣٢ — ٣٤
(٣) مرقس ٣ : ٢٢

واليهود انتهت بافصاح اليهود لعيسى عن رأيهم فيه « فأجاب اليهود وقالوا له : ألسنا نقول حسنا أنك سامرى وبك شيطان (١) » .

هذا الكفر والاعنات من اليهود الذين طمست أفئدتهم وعميت أبصارهم ، فلم يتوبوا إلى الله ويعودوا إلى الحق ، رغم المعجزات والقوات التى أظهرها سبحانه لهم على أيدى رسوله عيسى عليه السلام ، هذا الكفر والاعنات الذى قابل به اليهود عيسى ، جعله يضيق بهم ويلعنهم لما وصلوا إليه من ضلال ، يقول عنه الحوارى متى « حينئذ ابتدأ يوبخ المدن التى صنعت فيها أكثر قواته لأنها لم تتب ، ويل لك يا كورزين ، ويل لك يا بيت صيدا ، لأنه لو صنعت فى صور وصيدا القوات المصنوعة فيكما لتابتا قديما فى المسوح والرماد ، ولكن أقول لكم أن صور وصيدا تكون لهما حالة أكثر احتمالا يوم الدين مما لكما ، وأنت يا كفرنا حوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية ، لأنه لو صنعت فى سدوم القوات المصنوعة فيك لبقيت إلى اليوم ، ولكن أقول لكم إن أرض سدوم تكون لها حالة أكثر احتمالا يوم الدين مما لك » (٢) .

لم تفلح المعجزات فى بث الايمان فى النفوس ، ولكن كانت لها فى كثير من الأحيان نتائج عكسية ، إذا اعتبروها ضربا من السحر والشعوذة ، واتصالا بالجن والشياطين ، بل إن الأناجيل

---

(١) يو ٨ : ٤٨ (٢) متى ١١ : ٢٠ — ٢٤

تحدثنا أن كثيرين من تلاميذ عيسى أنفسهم ، ارتابوا فى معجزاته ، وتشككوا فى مصدرها ، ولم يعودوا يمشون معه ظنا وارتيابا ، يقول الحوارى يوحنا « من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء ، ولم يعودوا يمشون معه » (١) .

أنكر الناس معجزات عيسى ، وعزاها بعضهم إلى الشيطان وتخفف البعض فأرجعها إلى دراية عيسى بالطب وتمرسه بشفاء بشفاء الأمراض والأوجاع ، يقول الصيدلى اليونانى فيلمون « عاش الناصرى بين قومه شيخا للنطاسيين ، ولم يكن غيره يعرف الكثير الذى وعاه هو عن الأجساد وعناصرها وخواصها ، وكم من مرضى برئوا على يديه من أمراض استعصت على الاغريق والمصريين ويقال فيما يقال : إن عيسى زار الهند وبلاد ما بين النهرين ، وإن الكهنة فى تلك البلاد قد أطلعوه على ما يعلمون من أسرار تتصل بالأجسام.. وكذلك يمسح (أبولو) (٢) على القلب الفارغ (يقصد قلب عيسى) فينطقه بالحكمة » (٣) .

ورأى ثالث ينكر المعجزات أكثر مما يؤيدها ، ويعزوها إلى الايحاء والوهم أكثر مما يعزوها إلى اليقين والواقع ، يقول ول ديورانت « أكبر الظن أن هذه المعجزات كانت تحدث فى أكثر

---

(١) يو ٦ : ٦٦ (٢) احد آلهة اليونان القدامى
(٣) انظر : جبران خليل جبران : عيسى ص ٢٠

الأحوال بقوة الايحاء أى بتأثير روح قوية واثقة من نفسها ، فى روح قابلة للتأثر . . وهناك عاملان يدلان على أن هذه المعجزات ظاهرة نفسانية : أولهما أن المسيح نفسه كان يعزو شفاء المرضى على يديه إلى « إيمان » من يشفيهم وثانيهما عجزه عن القيام بمعجزات فى الناصرة ، لأن أهلها فيما يظهر كانوا ينظرون إليه على أنه « ابن النجار » ولا يؤمنون بقواه غير العادية . . ويقال لنا عن مريم المجدلية إن سبعة شياطين قد أخرجت منها ، أى أنها كانت تشكو آلاما ونوبات عصبية (ويذكرنا هذا باعتقاد البعض أن الشياطين تتقمص أجسام الناس) والظاهر أن هذه الآلام كانت تخف فى حضرة عيسى ، ومن أجل هذا كانت تحبه لاعتقادها أنه أعاد إليها الحياة ، وأن قربه منها كان أمراً لا غنى عنه لسلامة عقلها ، أما إبنة بايروس فقد قال المسيح عنها صراحة إن البنت لم تمت بل كانت نائمة ولعلها كانت مصابة بالشخوص (التخشب) أو داء الثبوت وهو مرض عصبى يفقد الإرادة وتصلب العضلات سببه مرض الجهاز العصبى المركزى ، ويبدو أن عيسى نفسه كان يحس بخور نفسانى بعد أن يقوم بمعجزاته ، وأنه كان يحاولها وهو كاره (١) » .

ونلحظ فى الأناجيل صدى هذا الرأى . . نرى عيسى يؤكد للأشخاص الذين استفادوا من المعجزات ، والذين برئوا من العلل

---

(١) ول ديورانت : قصة الحضارة — ج ٣ ص ٢٢١—٢٢٢

والأمراض ، أن إيمانهم هو الذى شفاهم ، إيمانهم فقط وليس شيئاً آخر ، يقول عيسى « إيمانك خلصك » ، « بحسب إيمانكما ليكن لكما » ، « ثقى يا إبنة : إيمانك قد شفاك » ، كما تحدثنا الأناجيل عن مرات كثيرة لم يستطع فيها عيسى الاتيان بمعجزة رغم رغبته فى ذلك ، فعندما ذهب إلى مقابلة هيروديس ترجى الملك أن يرى آية تصنع منه ، فلما فشل عيسى ، « احتقره هيروديس مع عسكره واستهزأ به » (١) .

أنكر اليهود معجزات عيسى وعزاها بعضهم إلى السحر والشعوذة وإلى الجن والشياطين وإلى النطس والطب ، وإلى الايحاء والوهم ، وصدق الناس هذه الشائعات والترهات ، صدقوا الشائعات التى طمست معجزات عيسى وأنكرتها عليه ، وأنصتوا إلى الترهات التى عزتها إلى العرافة والكهانة .

وكاد حساب المعجزات يحسب على عيسى وليس له ، ويضاف إلى أخطاءه لا إلى حسناته ، لولا أن صوت الحق ارتفع مدويا يؤيد معجزات عيسى ويؤيد نسبتها إلى الله ، لا إلى المردة أو الشياطين أو السحرة أو الطب أو الايحاء ، يؤيدها جميعا ويذكر منها ما فات الأناجيل ذكره ، وهنا يصمت المنكرون ، وينقطع دابر المتشككين ، يورد القرآن الكريم قول عيسى لقومه بنى إسرائيل « أنى قد جئتكم

---

(١) انجيل مرقس ٦ : ٥ ، لوقا ٢٣ : ٩ — ١١

بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً باذن الله، وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى باذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، إن فى ذلك لآية لكم ن كنتم مؤمنين » (١) .

يأتى القرآن حديث الرحمن فيرفض مجاراة المتشككين ، ويسد أفواه المكذبين ، ويرفع عن عيسى شبهات المضللين ، وتأولات العابثين الذين لمزوه بالسحر والشعوذة ، ورموه بالافك والعرافة ، واتهموه بمعاقدة الشيطان ، يأتى القرآن فيمحوا عن عيسى هذه التهم والأباطيل ويشيد بمعجزاته التى أيده الله بها ، بل يذكر معجزات لعيسى فات رواة الأناجيل ذكرها ، كخلق الطير من الطين والانباء بالغيب وهى معجزات قد تفوق معجزات الأناجيل ، كل ذلك ذكره القرآن لعيسى فأعز به قدره ، ورفع به شأنه ، وجعله نعم الرسول الصادق الأمين

معجزات الآخرين :

ونتساءل . . هل اختص الله نبيه عيسى فقط بصنع الخوارق ؟ أم أنه سبحانه قد منح هذه القدرة لعديد من أنبيائه الآخرين لتكون دليلا على صدقهم ، ومعينا لهم فى صراعهم ضد المناوئين والمكذبين ؟

---

(١) سورة آل عمران ٤٩

الحقيقة التي تؤكدها كافة الكتب السماوية أن الله سبحانه قد أيد أنبياءه بمعجزات عديدة ، كل ذلك بحسب الزمان الذى يبعث فيه ذلك النبي وحسب طبيعة الشعب الذى أرسل إليه ، معجزات من جنس ما برع فيه ذلك الشعب فى ذلك الزمان ، من نفس الجنس ولكن تفوقها فى المرتبة درجات ، برع قوم عيسى فى الطب فأرسل إليهم النطاسى البارع ، وبرع قوم موسى فى السحر فأرسل إليهم المبهر القارع ، وبرع العرب فى اللغة فأرسل إليهم البليغ الجامع ، وهكذا فى سائر الأنبياء يؤيدهم الله بمعجزات تفوق ما برع فيه قومهم ، حتى يصدقهم الناس ويصدعوا بالدليل والبرهان .

وفى عرض موجز نحاول سرد بعض المعجزات التى أيد الله بها أنبياءه الصالحين لتكون دليل صدقهم وبرهانا على إرسالهم .

ابراهيـــم :

ونبدأ بابراهيم أبى الأنبياء وخليل الرحمن وأول الداعين إلى التوحيد ، إبراهيم هذا الذى ظهر الله له مرات عديدة وتحدث معه كما يتحدث الصديق إلى صديقه ، تقول التوراة « ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لابرام وقال له : أنا الله القدير ، سر أمامى وكن كاملا ، فاجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيراً جدا ، فسقط إبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهوذا عهدى وتكون أبا لجمهور من امم ، وأثمرك كثيراً جدا وأجعلك

أمما ، وملوك منك يخرجون ، وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا » (١) .

وأوفى الله بعهده مع إبراهيم فباركه وجعله أمة عظيمة ، وتباركت فيه قبائل الأرض ، وخرجت من صلبه شجرة الخير ، شجرة الأنبياء والمرسلين ، إسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وموسى وهارون ، وداود وسليمان ، وعيسى ومحمد وغيرهم ، كل هؤلاء أبناء إبراهيم يقول تبارك وتعالى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن ، واتبع ملة إبراهيم حنيفـــا ، واتخذ الله إبراهيم خليلا » (٢) .

دعا إبراهيم قومه إلى التوحيد ، وحطم أصنامهم وأوثانهم ، فكادوا له وصنعوا أتونا من النار وضعوه فى سعيره ، وبدلا من أن تحرق النار إبراهيم ، أو تلهبه أو تؤذيه ، جعلها الله برداً وسلاما على خليله إبراهيم ، فسار فيها إبراهيم يتبختر وكأنه يتمتع بنسمات الجنة .

ويقول سبحانه « قالوا : أحرقوه وانصروا آلهتكم أن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كونى برداً وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين ، ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين » (الأنبياء ٦٨ — ٧١) .

---

(١) تكوين ١٧ : ١ — ٧ (٢) سورة النساء ١٢٥

موسى :

وبعد إبراهيم يأتى موسى عليه السلام ، كليم الله الذى ظهر له سبحانه وسط لهيب نار وتحدث إليه ، (١) وتكرر الحديث بين الله وكليمه موسى ، تقول التوراة « ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » (٢) .

حول موسى العصا الخشبية الجامدة إلى حية كبيرة التهمت حيات سحرة فرعون وعرافيه ، يحدثنا سفر الخروج عن هذه الآية « فقال له الرب : ما هذه فى يدك ، فقال : عصا ، فقال اطرحها إلى الأرض ، فطرحها إلى الأرض فصارت حية » (٣) ، وفى القرآن « وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فاذا هى تلقف ما يأفكون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ، فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين » (الأعراف ١١٧ — ١٢١) .

ومعجزة أخرى أمد الله بها موسى ، هى ضر ص
وشفائها فى الحال ، يقول سفر الخروج « ثم قال
أدخل يدك فى عبك ، فأدخل يده فى عبه ،
برصاء مثل الثلج ، ثم قال له رد يدك إلى

---

(١) خروج ص ٣ : ٢ —
(٢) خروج ٢٣ : ١ — ١

أخرجها من عبه فاذا هى قد عادت مثل جسده » (١) . ويقول سبحانه عن موسى « ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين ، قال الملأ من قوم فرعون أن هذا لساحر عليم » (الأعراف ١٠٨ — ١٠٩) .

ومعجزة ثالثة فعلها موسى ، حول الماء إلى دم ، بل أحال نهراً بأكمله إلى دم ، يقول الله لموسى « تأخذ من ماء النهر ، وتسكب على اليابسة ، فصير الماء الذى تأخذه من النهر دما على اليابسة » (٢) . ومرة أخرى ضرب موسى النهر بعصاه أمام فرعون وجنوده فتحول ماءه إلى دماء ، تقول التوراة عنه « رفع العصا وضرب الماء الذى فى النهر أمام عينى فرعون وأمام عيون عبيده فتحول كل الماء الذى فى النهر دما » (٣) :

ورابعة ضرب موسى البحر بعصاه فانفلق نصفين وانشق فى وسطه طريق يابس ، سار فى وسطه موسى وجميع شعبه آمنين مطمئين ، تقول التوراة « ومد موسى يده على البحر ، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل وجعل البحر يابسة وانشق الماء فدخل بنوا إسرائيل فى وسط البحر على اليابسة ، والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم » (٤) .

وفى القرآن « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسرِ بعبادى فاضرب

(١) خروج ٤ : ٦ — ٨ (٢) خروج ٤ : ٩
(٣) خروج ٧ : ٢٠ — ٢١ (٤) خروج ١٤ : ٢١ — ٢٢

لهم طريقا فى البحر يبسا ، لاتخاف دركا ولا تخشى » (طه ٧٧) .

ومن معجزات موسى عليه السلام أنه كان يحيل الماء الفاسد المر إلى ماء عذب فرات ، تقول التوراة عن موسى « فأراه الرب شجرة فطرحها فى الماء فصار الماء عذبا » (١) ، بل كان موسى يضرب الصخر الجاف بعصاه فتتفجر منه ينابيع المياه ، يقول الله لنبيه موسى « ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة فى حوريب ، فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب » (٢) .

وكما أشبع عيسى الجياع أشبع موسى الجياع أيضا ، تحدثنا التوراة أن عشرات الألوف من بنى إسرائيل كانوا مع موسى فى الصحراء يتهددهم الموت من الجوع والعطش ، وأن موسى دعا ربه أن يشبع بطون هؤلاء الجياع فاستجاب الله لنبيه العظيم وأمطرت السماء المن والسلوى ، كان ينزل عليهم الخبز كل صباح واللحم مطهوا كل مساء ، فيطعمون ويشبعون هادئين ناعمين (٣).

وفى القرآن عن معجزتى إشباع الجياع وإرواء العطاشى « وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم ، وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى ، كلوا من طيبات مارزقناكم » (الأعراف ١٦٠) .

---

(١) خروج ١٥ : ٢٥ (٢) خروج ١٧ : ٥ — ٦

(٣) خروج ١٦ : ٤ — ٢٦

والمقارنة هنا يقوم بها بنو إسرائيل بأنفسهم ، إنهم يقارنون بين موسى وعيسى ويطلبون من عيسى أن يأتيهم بمعجزات عظيمة كما فعل موسى ، مؤكدين له أن معجزة تكثير الطعام التى قام بها لا تقارن بانزال المن والسلوى من السماء كل صباح ومساء ، يقول بنو إسرائيل لعيسى « قالوا له : فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك ، ماذا تعمل ؟ آباؤنا أكلوا المن فى البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزا من السماء ليأكلوا » (١) .

ويبدو فى نظرهم أن عيسى قد فشل فى مطاولة موسى ، أو الوصول إلى شأوه ومرتبته عند قومه إذ أن اليهود تمسكوا برأيهم فى أن موسى أعظم من عيسى ، بل أعظم أنبيائهم أجمعين ، تقول التوراة « ولم يقم بعد نبى فى إسرائيل مثل موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه » (٢) .

وكم عقد اليهود المقارنات بين موسى وعيسى مؤكدين أن موسى أعظم كثيراً من عيسى ، بل إنه لا وجه للمقارنة فى نظرهم بين موسى كليم الله ، وعيسى الذى لا يعرف أهله أو نسبه ، يورد القديس يوحنا فى انجيله قول اليهود : « نحن نعلم أن موسى كلمه الله ، وأما هذا (عيسى) فما نعلم من أين هو ؟ » (٣) .

---

(١) انجيل يوحنا ٦ : ٢٥ — ٣١
(٢) تثنية ٣٤ : ١٢
(٣) يو ٩ : ٢٩

ويقول سبحانه عن نبيه العظيم موسى « قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين » . (الأعراف ١٤٤)

ليليا :

نبى الله إيليا ، الذى يرجح المفسرون أنه أدريس عليه السلام الذى ورد ذكره فى القرآن اختصه جل وعلا بمعجزات كثيرة تماثل معجزات عيسى وموسى ، أحيا عيسى الموتى وأحيا إيليا الأموات ، ورفع عيسى إلى السماء وصعد إيليا أيضاً إلى السماء ، وشق موسى البحر بعصاه وفلق إيليا المياه ، وكانت دعوات إيليا تفتك بأعدائه دون انتظار . . يحدثنا كتاب الملوك الأول عن إحياء إيليا لأحد الموتى فيقول إن إيليا « قال : يارب إلهى لترجع نفس هذا الولد إلى جوفه فسمع الرب لصوت إيليا ، فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش » (١) :

ويحدثنا كتاب الملوك الثانى عن صعود إيليا حيا إلى السماء فيقول : « وكان عند إصعاد الرب إيليا فى العاصفة إلى السماء أن إيليا واليشع (تلميذه) ذهبا من الجلجال . . وفيما هما يسيران ويتكلمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما ، فصعد إيليا فى العاصفة إلى السماء » (٢) .

---

(١) ملوك ١ ص ١٧ : ٢٠ — ٢٤
(٢) ملوك ٢ ص ٢ : ١ ، ١١

وكما فلق موسى البحر بعصاه ، شق إيليا المياه واحالها إلى يابس سار فيه هو وتلميذه اليشع « وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى هنا وهناك فعبرا كلاهما فى اليبس » .

كان إيليا لا يخشى أحداً ولا يهاب كبيراً أو أميراً ، كان يغضب للحق وينزل سخطه على الظالمين ، ولو كانوا ملوكا أو سلاطين ، بل لقد منحه الله السطوة عليهم فكانوا يهابونه ويرهبونه ، لأنه كان ينزل دعواته عليهم فيميتهم ويحرق أتباعهم بنار السماء ، يروى لنا كتاب الملوك الثانى أن إيليا غضب على موآب ملك إسرائيل فى ذلك الوقت ، وأخذ يندد بظلمه وآثامه فاغتاظ الملك وأرسل أحد قواده ومعه خمسون جنديا للقبض على إيليا وإحضاره إليه ، ولما أتوا إلى إيليا دعا الله أن ينزل ناراً من السماء فتحرق أعدائه ، واستجاب الله لدعاء نبيه وأنقذه من أيدى غرمائه ، وأنزل ناراً من السماء التهمتهم أجمعين ، يقول كتاب الملوك الثانى « فأجاب إيليا وقال لرئيس الخمسين إن كنت أنا رجل الله فلتنزل نار من السماء وتأكلك أنت والخمسين الذين لك ، فنزلت نار من السماء وأكلته هو والخمسين الذين له » ثم يذهب إيليا شامخا إلى الملك الظالم ، ويلعنه ويطلب له الموت حتى يستريح شعبه من آثامه ، يقول إيليا للملك ، « السرير الذى صعدت عليه لا تنزل عنه بل موتا تموت ، ويستجيب الله دعاء نبيه إيليا فيموت الملك فى الحال « فمات حسب كلام الرب الذى تكلم به إيليا » (١) .

---

(١) ملوك ٢ ص ١ : ٩ — ١٧

هكذا تكون منعة الأنبياء ، وهكذا تكون قدرتهم أمام الولا والسلاطين ، فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولا خشية لإنسان طمعا أو خوفا ، ولكن الخشية والرغبة والثواب والعقاب فى يد خالق الكون ورب العباد .

يقول سبحانه عن إيليا « واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ، ورفعناه مكانا عليا » .

اليشـــع :

وبعد إيليا يأتى تلميذه اليشع ، أحد أنبياء اليهود ، منحه الله من المعجزات الشىء الكثير ، أحيا الموتى وأبرأ البرصى ، وأشبع الجياع وأعاد البصر للعميان ، وفلق البحر وشق فيه طريقا ، وأحال المياه الرديئة إلى مياه عذبة .

تحدثنا التوراة أن اليشع كان ينزل ضيفا على إحدى الأرامل ، وأثناء وجوده عندها مات ابنها فأحياه اليشع ، تقول التوراة « ودخل اليشع البيت وإذا بالصبى ميت مضطجع على سريره ، فدخل وأغلق الباب على نفسيهما كليهما وصلى إلى الرب . . فعطس الصبى سبع مرات ثم فتح الصبى عينيه » (١) .

كان اليشع يشفى البرصى ، بل ويصيب بالبرص الأصحاء ،

---

(١) ملوك ٢ ص ٤

شفى اليشع نعمان قائد جيش ملك آرام من البرص ، فرجع لحمه كلحم صبي صغير وطهر » (١) وانحرف خادم اليشع عن الطريق المستقيم فدعا عليه سيده بالبرص فخرج من أمامه أبرص كالثلج(٢).

فتح اليشع أعين العميان ، فرادى وجماعات ، وضرب الآثمين بالعمى ، رد البصر إلى غلام أعمى « وصلى اليشع وقال : يارب إفتح عينيه فيبصر ، ففتح الرب عيني الغلام فأبصر » (٣) .

كما أبرأ في مرة واحدة عدداً كبيراً من العميان « قال اليشع يارب افتح أعين هؤلاء فيبصروا ففتح الرب أعينهم فأبصروا » ، وكان لأ ليشع القدرة على ضرب الأشرار بالعمى « صلى اليشع إلى الرب وقال : اضرب هؤلاء الأمم بالعمى ، فضربهم بالعمى كقول اليشع » (٤) .

وكان لاليشع القدرة على تكثير الطعام فأشبع الجموع بقليل من الخبز والسويق ، تقول التوراة « وجاء رجل من بعل شلشه وأحضر لرجل الله (اليشع) خبز باكورة عشرين رغيفا من شعير وسويقا في جرابه . . فقال اعط الشعب فيأكلون لأنه هكذا قال الرب : يأكلون ويفضل عنهم فجعل أمامهم فأكلوا وفضل عنهم حسب قول الرب » (٥) .

---

(١) ملوك ٢ ص ٥ : ١ - ١٤.
(٢) ملوك ٢ ص ٥ : ٢٠ - ٢٧
(٣) ملوك ٢ ص ٦ : ١٧ (٤) ملوك ٢ ص ٦
(٥) ملوك ٢ ص ٤ : ٤٢ - ٤٤

والمياه الرديئة المجدبة احالها اليشع إلى مياه عذبة مخصبة تجرى بالحياة ، اشتكى إليه بعض الناس من أن موقع مدينتهم حسن ولكن مياهها رديئة فاسدة مما جعل أرض المدينة مواتا وجدبا ، وجعل الحياة فيها ضنكا وبؤسا ، فصلى اليشع للرب « وقال : هكذا قال الرب : قد أبرأت هذه المياه لا يكون فيها أيضاً موت ولا جدب ، فبرئت المياه إلى هذا اليوم حسب قول اليشع الذى نطق به » (١) .

يقول جل وعلا « واذكر اسماعيل واليشع وذا الكفل وكل من الأخيار » (سورة ص ٤٨) .

حزقيــــال :

أما نبى الله حزقيال فقد أحيا الله على يديه آلاف الموتى ورد الحياة إلى آلاف الراقدين ، وبعثهم من قبورهم بعد أن طال رقادهم وتحللت أجسادهم ، يقول حزقيال « كانت علىّ يد الرب فأخرجنى بروح الرب وأنزلنى فى وسط البقعة وهى ملآنة عظاما وأمرنى عليها من حولها وإذا هى كثيرة جداً على وجه البقعة وإذا هى يابسة جداً ، فقال لى يا ابن آدم أتحيا هذه العظام ، فقلت يا سيد الرب أنت تعلم فقال لى : تنبأ على هذه العظام وقل لها : أيتها العظام اليابسة اسمعى كلمة الرب ، هكذا قال السيد الرب لهذه العظام ، هأنذا أدخل فيكم روحا فتحيون ، وأضع عليكم عصبا وأكسيكم لحما

---

(١) كتاب الملوك الثانى ص ٢ : ١٩ ــ ٢٢.

وأبسط عليكم جلدا وأجعل فيكم روحا فتحيون وتعلمون أنى أنا الرب ، فتنبأت كما أمرت وبينما أنا أتنبأ كان صوت وإذا رعش فتقاربت العظام كل عظم إلى عظمه ، ونظرت وإذا بالعصب واللحم كساها وبسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح ، فقال لى تنبأ للروح ، تنبأ يا ابن آدم وقل للروح هكذا قال السيد الرب هلم يا روح من الرياح الأربع وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا فتنبأت كما أمرنى فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جداً (١) » .

إن معجزة حزقيال هنا تفوق كل معجزات عيسى ، ففضلا عن أن عدد الموتى الذين أحياهم قد يصل إلى الآلاف فأنه قد طال بهم الزمن فى القبور ، وتوالت عليهم السنون حتى تحللت أجسادهم وتناثرت عظامهم ، وتآكلت لحومهم وجلودهم ، وتلاشت عروقهم وحواسهم ، واستحالوا إلى شذرات كالرماد ، ولكن نبى الله حزقيال تمكن بقدرة الله ، وبروحه سبحانه وكلمته ، أن يلم شعث الشذرات ، وأن يجمع عظام كل شخص منها على حدة ، ثم كسا العظام لحما وجلداً وعصبا ، وأجرى فيها الخلايا والعروق والدماء ، ثم أعاد إليها الروح التى فارقتها سنوات وسنوات ، أن معجزة حزقيال أقرب إلى الخلق منها إلى الأحياء . . ولكن ما فضل عيسى وحزقيال ، الفضل لله الخالق البارىء ، المحى المميت ، صاحب المعجزات ومصدر الآيات .

---

(١) حزقيال ص ٣٧ : ١ — ١٠

يقول سبحانه « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ، ومخرج الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون » (الأنعام ٩٥) :

اخنــــوخ :

وهذا نبى الله اخنوخ لعله سيدنا الخضر ، صعد حيا إلى السماء كما صعد عيسى تقول التوراة « وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه » (تك ص ٥ : ٢٤) .

شمشون :

وهذا شمشون الجبار يعطيه الله قوة خارقة يسحق بها فى الحروب آلاف الرجال وكأنهم البعوض أو الذباب ، ويقابل الأسود والوحوش فتفر منه مذعورة كالفئران ، فاذا وقعت فى قبضته فتك بها فى لحظات ، وإذا استعصى عليه جبل أو صخر فتته بأصابعه كالرمال .

سليمان :

وسليمان بن داود أحكم الرجال ، تحدث الناس على مر العصور بالحكمة الفائقة التى منحها إياه العلى القدير ، كما تحدثوا بقدرته على الحديث إلى الطيور والنمل ومخاطبة مختلف المخلوقات وتسخير الريح والشياطين لخدمته ، يقول سبحانه « ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها وكنا بكل شىء عالمين ، ومن

الشياطين ما يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين »
(الأنبياء ٨١ – ٨٢) .

يونان :

وهذا يونان النبي الذى سماه القرآن يونس عليه السلام ، يبتلعه حوت ضخم ويبقى يونان فى بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال ، ثم يخرج سليما معافا من بطن الحوت لم يمسه سوء وكأنه فى رحلة فى عرض البحر داخل أحد اليخوت (١) .

وفى القرآن عنه : « وإن يونس لمن المرسلين ، إذ أبق إلى الفلك المشحون . . » (الصافات ١٣٩ – ١٤٤) .

وهذا عيسى يشبه نفسه بيونان ، ويطلب من قومه أن يعتبروه نبيا مثل يونان ، وأن يكرموه كما كرموا يونان ، وأن يصدقوا معجزاته كما صدقوا معجزات يونان ، طلب اليهود من عيسى أن يظهر لهم آية تدل على صدقه ولكنه أجابهم قائلا « هذا الجيل شرير يطلب آية ولا تعطى له آية إلا آية يونان النبى ، لأنه كما كان كان يونان النبى آية لأهل نينوى ، كذلك يكون ابن الإنسان « عيسى » أيضاً لهذا الجيل (٢) » .

هذه بعض المعجزات التى أيد الله بها أنبياءه و ولياءه ومنهم

(١) انظر يونان ص ١ ، ص ٢
(٢) لوقا ١١ : ٢٩ – ٣٠

عيسى عليه السلام فكيف يدعى المضللون أن لمعجزات عيسى شأنا آخر يرفعه عن سائر البشر ؟

معجزات الحواريين :

ولماذا نقتصر على ذكر معجزات الأنبياء ، والأناجيل تروى لنا أن تلاميذ عيسى كانوا يقومون بمعجزات كثيرة لا تقل عن معجزات عيسى بل تفوقها فى بعض الأحيان ، فكم من أمراض شفوها وكم من شياطين شريرة تلبست أجساد الناس فأخرجوها ، وكم من أموات أعادوا إليها الروح .

هكذا تلاميذ عيسى ، يحيون ويميتون ، ويأتون بالخوارق التى يعجز عنها الرسل والأنبياء ولا عجب فى هذا ولا استغراب . وعيسى نفسه يعترف بأن معجزات تلاميذه تفوق معجزاته فيقول « من يؤمن بى فالأعمال التى أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها » (١) .

بطرس :

خليفة عيسى يشفى المقعدين ، ويبرىء العرج ، ويحيي الموتى ، ويميت الأحياء ، يحدثنا كتاب أعمال الرسل أنه عندما كان يتجول بطرس بين قرى اليهودية للتبشير شاهد رجلا مفلوجا يرقد على

(١) انجيل يوحنا ص ١٤ : ١٢

سريره منذ ثماني سنوات ، فأمره بطرس قائلا « قم وافرش لنفسك ، فقام للوقت ورآه جميع الساكنين فى لده وسارون » (١) .

وأعرج آخر شفاه بطرس ، ولد هكذا من بطن أمه ، وكانوا يضعونه على باب الهيكل يسأل الناس الصدقات ، فلما رآه بطرس ، أمسك بيده اليمنى وأقامه « ففى الحال تشددت رجلاه وكعباه فوثب وصار يمشى » (٢) .

ويروى لنا كتاب أعمال الرسل قصة الأموات التى أحياها بطرس ، فتاة اسمها طابيثا من بلدة يافا ، ماتت وغسلوها وكفنوها ، وأتت النسوة والأرامل يبكين عليها ويولولن ، ثم أتى بطرس « فأخرج بطرس الجميع خارجا وجثا على ركبتيه وصلى ثم التفت إلى الجسد وقال : ياطابيثا قومى ففتحت عينيها ولما أبصرت بطرس وجلست فناولها يده وأقامها ، ثم نادى القديسين والأرامل وأحضرها حية » (٣) .

ويروى كتاب أعمال الرسل أن ظل خيال بطرس كان إذا وقع على أحد المرضى فانه كان يكفى لشفائه من أعضل الأمراض وأشد الأوبئة يقول الكتاب « إن الناس كانوا يحملون المرضى خارجا

---

(١) اعمال الرسل ص ٩ : ٣٢ — ٣٥
(٢) اعمال ٣ : ١ — ٨
(٣) أعمال ٩ : ٣٦ — ٤١

فى الشوارع ويضعونهم على فرش وأسرة حتى إذا جاء بطرس يخيم ولو ظله على أحد منهم » (١) .

وحادث عجيب يرويه كتاب الأعمال ، فى معرض الحديث عن قدرة التلاميذ على سلب أرواح الناس بسبب وبغير سبب ، ومن الخبيث والطيب ، ومن الطالح والصالح :

يحدثنا الاصحاح الرابع من الكتاب المذكور أن التلاميذ تركوا العمل كعشارين وجباة وصيادى أسماك ، وتفرغوا لوظيفة الكهانة ، ولهذا كان على أتباعهم إعالتهم ، بل كان الأتباع يقومون ببيع أملاكهم ويأتون بأثمانها ويضعونها تحت أقدام التلاميذ ليتصرفوا فيها حسبما يشاؤون ، يقول الاصحاح عن هؤلاء التلاميذ الذين يدعوهم رسلا « لم يكن فيهم أحد محتاجا لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل » (٢) وحدث أن أحد هؤلاء الأتباع الصالحين باع وزوجته ملكهما ، وأتيا بالثمن ووضعاه عند أرجل التلاميذ ، ولكن نظرا لحاجتهما فقد احتفظا بجزء يسير من هذا الثمن يسدان به بعض أعوازهما فماذا كان الجزاء . . نترك سفر الأعمال يروى لنا قصة هذا المسكين وزوجه ، يقول السفر « ورجل اسمه حنانيا وامرأته سفيرة باع ملكا واختلس من الثمن وامرأته لها خبر ذلك وأتى بجزء ووضعه عند أرجل الرسل ، فقال بطرس : ياحنانيا ،

(١) اعمال الرسل ص ٥ : ١٥
(٢) أعمال ٤ : ٣٤ — ٣٥

لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس وتختلس من ثمن الحقل ، أليس وهو باق كان يبقى لك ، ولما بيع ألم يكن فى سلطانك فما بالك وضعت فى قلبك هذا الأمر ، أنت لم تكذب على الناس بل على الله ، فلما سمع حنانيا هذا الكلام وقع ومات ، وصار خوف عظيم على جميع الذين سمعوا بذلك ، فنهض الأحداث وألقوه وحملوه خارجا ودفنوه ، ثم حدث بعد مدة نحو ثلاث ساعات أن امرأته دخلت وليس لها خبر ما جرى فأجابها بطرس : قولى أبهذا المقدار بعتما الحقل ؟ فقالت : نعم بهذا المقدار : فقال لها بطرس ؟ ما بالكما اتفقتما على تجربة روح الرب ، هوذا أرجل الذين دفنوا رجلك على الباب وسيحملونك خارجا ، فوقعت فى الحال عند رجليه وماتت ، فدخل الشباب ووجدوها ميتة فحملوها خارجا ودفنوها بجانب رجلها » . (١) .

يقول سفر الأعمال معلقا على هذا الحادث المروع « فصار خوف عظيم على جميع الكنيسة ، وعلى جميع الذين سمعوا بذلك » (٢) . والقصة بذاتها تغنى عن كل تعليق . . ! !

بولس :

وهذا بولس لم يكن تلميذا لعيسى ولم يشاهده البتة ، بل كان عدوا لأتباع عيسى ، مضطهدا لهم ، ثم صار فجأة داعيا لعيسى

---

(١) أعمال الرسل ص ٥ : ١ — ١٠

(٢) أعمال ٥ : ١١

وصديقا للتلاميذ ، يقولون عن بولس هذا إنه كان يبرىء المرضى ويحيي الموتى . وإنه كان محصنا ضد كافة أنواع الأذى لا تقربه الحيات ولا تناله العقارب .

هذا بولس تنقض عليه حية رقطاء تريد عقره ، ويتصور الناس أنه هالك لا محالة ، ولكنه ينفضها عنه بيده كأنها حشرة ضئيلة ويمضى فى طريقة كما كان (١) .

وفى الشفاء كان بولس يزيل أعضل الأمراض ، ويشفى العرج والمشلولين والمقعدين ، يروى لنا سفر الأعمال قصة أحد المقعدين الذين شفاهم بولس فيقول « وكان يجلس فى لسترة رجل مقعد من بطن أمه ولم يمش قط ، هذا كان يسمع بولس يتكلم ، فشخص إليه وإذ رأى له إيمانا ليشفى قال بصوت عظيم : قم على رجليك منتصبا ، فوثب وصار يمشى » (٢) .

بل إن الأناجيل تؤكد أن قدرة بولس على شفاء الأمراض كانت أعظم من قدرة عيسى ، فلكى يتمكن عيسى من شفاء المريض كان يذهب إليه بنفسه ويصلى عليه ويدعو الله له بالشفاء ، أما بولس فكان جسده كله قوة وعافية وبركة ، كانت معجزاته غير عادية ، فلم يكن من اللازم أن يذهب بنفسه إلى المريض ليراه أو يلمسه ، بل كان يكفى أن يرسل بولس إلى المريض منديلا أو سر الا أو أى

---

(١) أعمال الرسل ص ١٠.
(٢) أعمال ١٤ : ٨ — ١٠.

شيء لامس جسد بولس المبارك ، ثم يوضع الشيء على المريض فيشفى فى الحال ، ولا شك أن هذا لم يكن يستطيعه عيسى ، يقول كتاب الأعمال « كان الله يصنع على يدى بولس قوات غير المعتادة ، حتى كان يؤتى عن جسده بمناديل أو مآزر إلى المرضى فتزول عنهم الأمراض وتخرج الأرواح الشريرة منهم » (١) .

حتى الموتى أحياهم بولس ، هذا شاب اسمه افتيخوس وقع من مكان عال إلى أسفل وحمل ميتا فنزل إليه بولس واعتنقه فعاش الفتى « وأتوا بالفتى حيا وتعزوا تعزية ليست بقليلة » (٢) .

وهذا فيلبس أحد التابعين يخرج الشياطين ، ويشفى العرج والمفلوجين ، يقول كتاب الأعمال عنه « وكان الجموع يصغون بنفس واحدة إلى ما يقوله فيلبس عند استماعهم ونظرهم الآيات التى صنعها لأن كثيرين من الذين بهم أرواح نجسة كانت تخرج صارخة بصوت عظيم وكثيرون من المفلوجين والعرج شفوا ، فكان فرح عظيم فى تلك المدينة » (٣) .

وهكذا بالنسبة لباقى التلاميذ ، تمثلوا بعيسى ففاقوه ، وقلدوا معجزاته فبزوه ، يقول كتاب الأعمال عن معجزات التلاميذ « وحدثت على أيدى الرسل آيات وعجائب كثيرة فى الشعب » .

---

(١) أعمال الرسل ص ١٩ : ١١ — ١٢
(٢) أعمال ٢٠ : ٩ — ١١ (٣) أعمال ٨ : ٦ — ٨

معجزات الكاذبين :

إتيان المعجزات والأعاجيب لم يقتصر على عيسى وأتباعه أو سائر الأنبياء ، بل لقد استطاع أفراد كثيرون شفاء الأمراض واتيان الخوارق ، وأتى إليهم الأتباع من كل حدب وصوب يتمسحون بمنازلهم ويتبركون ، ويتلمسون منهم الدعوات والبركات ، بعض هؤلاء أولياء الرحمن وأكثرهم أولياء الشيطان ، يصنعون خوارق تذهل العقول وتشده الأبصار ، يسيرون على النار ويأكلون الزجاج ، ويخلقون الطيور ، ويقطعون الأجساد بالسيوف ثم يجمعون الأشلاء ، ويعيدون تكوين الإنسان ويردون الروح ، ويشفون مختلف الأمراض ويضربون الناس بالأمراض ومختلف أنواع الايذاء .

هؤلاء الكاذبون ، أنبياء الجان ، وأولياء الشيطان ، ضل من أفعالهم الكثيرون ، وآمن بقدرتهم الكثيرون ، خدعتهم الآية وأسكرتهم الخارقة فانساقوا إلى الإيمان بهؤلاء المخادعين المخاتلين ، وانضووا تحت لوائهم وانخرطوا فى طاعتهم ، ورفعوهم إلى مرتبة النبوة بل قدسوهم ومجدوهم وألهوهم .

ويعترف عيسى نفسه بهذه الحقيقة ، ويحذر الناس من الانسياق وراء هؤلاء الكاذبين الذين يدعى كل منهم أنه نبى الله أو أنه مسيح الله ، وأنه بعض الله أو ذات الله ، ثم يخدع الناس بآياته ومعجزاته ، ويضلل حتى المؤمنين والمختارين ، يقول عيسى « سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات وعجائب لكى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً » (١) .

---

(١) مرقس ص ١٣ : ٢٢

ويقول أيضاً « ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين » (١) .

فهل هؤلاء جميعا آلهة ؟ . . .

معجزات محمـــد :

فى غزوة الأحزاب كان المسلمون قد أصابتهم مجاعة شديدة ، وكان أهلوهم يبعثون إليهم بما قدروا عليه ، فأرسلت عمرة ابنة رواحة ابنتها بحفنة تمر عجوة فى ثوبها إلى زوجها وأخيها ، فوجدت الرسول جالسا فى أصحابه ، فأخذه فى كفيه ونثره على ثوب بسيط له وقال لجعال بن سراقة : أصرخ يا أهل الخندق ، هلم إلى الغداء ، فاجتمعوا عليه يأكلون منه ، حتى صدر أهل الخندق وإنه ليفيض من أطراف الثوب .

وفى غزوة تبوك تتكرر معجزة الأشباع ، أرمل الناس إرمالا شديدا (٢) فنادى منادى الرسول : من عنده فضل زاد فليأت به ، وأمر بالانطاع فبسطت ، فجعل الرجل يأتى بوعاء الدقيق أو السويق أو التمر وكل ذلك قليل ، ثم توضأ وصلى ركعتين ودعا الله ، ونادى مناديه : هلموا إلى الطعام خذوا منه حاجتكم ، فأقبل الناس فجعل كل من جاء بوعاء ملأه وأخذ الناس يتزودون حتى نهلوا عن آخرهم ، حتى كان آخر ذلك أن أخذت الانطاع ونثر ما عليها(٣) .

(١) متى ص ٢٤ : ١١ (٢) أى نفذ الطعام
(٣) أنظر المقريزى امتاع الاسماع ص ٢٣٥ .

وعن أنس بن مالك أن النبي عليه السلام أطعم ثمانين رجلا من أقراص من شعير أتى بها أنس تحت إبطه :

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قال : كنا عند النبي ثلاثين ومائة وسوى لنا شاة ، ثم أعطى لكل منا حزة أى قطعة ، ثم جعل منها قصعتين فأكلنا أجمعون وفضل فى القصعتين .

ضرب موسى الصخر بعصاه فانفجر منه الماء ، أما محمد فقد نبع الماء من بين أصابعه فارتوى الناس وتوضأوا واغتسلوا مرات ومرات . .

عن أنس بن مالك أنه قال : رأيت رسول الله وقد حانت صلاة العصر فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوا ماء فأتى الرسول باناء فوضع يده فيه ، وأمر الناس بأن يتوضأوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ الناس عن آخرهم .

كما يروى الإمام البخارى عن جابر بن عبد الله أنه قال : « عطش الناس يوم الحديبية والنبي بين يديه ركوة (١) فتدافع الناس نحوه ؟ فقال : مالكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك ، فوضع يده فى الركوة فجعل الماء يفور بين أصابعه كأمثال العيون ، فشربنا وتوضأنا ، قلت : كم كنتم ؟ قال : لو كنا مائة ألف لكفانا ، كنا خمس عشرة مائة .

وفتح عيسى عيني الأعمى ، وأتى محمد بنفس المعجزة ، عن حبيب ابن فديك أن أباه ابيضت عيناه فكان لا يبصر بهما شيئاً ،

---

(١) قليـــل من الماء .

فنفث رسول الله فى عينيه فأبصر ، فرأيته يدخل الابرة وهو ابن ثمانين . وكان عليه الصلاة والسلام مكشوفاعنه الحجاب ، يعلم ما لا يعلمه الناس ، أهدت إليه زينب بنت الحارث شاة مطهية ، فجلس وأصحابه حولها ليأكلوها ، وتناول النبى الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ، وكان بشر ابن البراء معه قد تناول منها مثل ما تناول فأما بشر فأساغها وازدردها وأما الرسول فلفظها وهو يقول : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ، ثم دعا زينب فاعترفت وقالت : لقد بلغنى من قومى (اليهود) ما لم يخف عليك فقلت : إن كان ملكا استرحت منه ، وإن كان نبيا فسيخبر ، ومات بشر من أكلته هذه .

ويشاء العلى القدير أن يؤيد رسوله الكريم بالمعجزات التى تدفع أذى الكفار ، وترد غوائل شرورهم ، عزم المشركون على قتل الرسول وأجمعت القبائل على ذلك ، فترك محمد لهم مكة وهاجر وصاحبه أبو بكر إلى المدينة ، وفى الطريق لاحقهما الكفار ، فلجأ الصاحبان إلى غار ثور ، يستريحان فيه قليلا من عناء الطريق ، وأقبل بعض الكفار يتسلقون الغار ، ثم عادوا أدراجهم ، فسألهم أصحابهم : مالكم لم تدخلوا الغار ولم تنظروا فيه ؟ قالوا : إن عليه العنكبوت قبل ميلاد محمد ، وقد رأينا حمامتين وحشيتين قد باضتا بفم الغار ، وشجرة قد تدلت فروعها إلى فوهة الغار ولا سبيل إلى الدخول فيه من غير إزالة هذه الفروع ، فعرفنا أن ليس فيه أحد فانصرفنا .

هذه المعجزة ذات دلالة كبيرة ، فقد أراد الله حماية رسوله ونصرة دعوته ، حتى إذا لجأ النبى وصاحبه إلى الغار أسرعت العنكبوت إلى نسج بيتها تستر به من فى الغار ، وجاءت الحمامتان

فباضتا عند بابه ، ونمت فى الحال شجرة كبيرة تدلت بفروعها إلى فوهة الغار ، حدث كل ذلك فى فترة قصيرة لا تتجاوز ساعات وقانون الطبيعة يجعله محتاجا إلى سنوات . يقول القرآن للكافرين « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » (١) .

وبعد خروج محمد وصاحبه من الغار لحق بهما أحد الكفار بسلاحه وفرسه فلما دنا سراقة منهما دعا عليه الرسول ، فرسخت أقدام فرسه فى الأرض ، فصرخ سراقة إلى الرسول : يا محمد ادع الله أن ينطلق فرسى فأرجع عنك وأرد من ورائى ، فدعا الرسول ربه فأطلق سراقة وفرسه فرجع ، وهنا وقفة صغيرة . . كافر يلاحق الرسول بسلاحه وفرسه يبغى قتله والقضاء على دعوته ، وبدلا من أن يدعو محمد ربه فينزل نارا من السماء تحرق الرجل كما فعل نبى اليهود إيليا ، أو يدعو على الرجل بالموت كما فعل بطرس خليفة عيسى ، يكتفى الرسول الكريم بالدعاء لربه أن يكف عنه أذى الرجل وأن يوقف شره حتى يتم دعوته ، ولو أن الرسول دعا على الرجل بالاحراق أو الموت لكان له عذره ، فهذا الكافر أتى وراءه يبغى قتله فاستحق أن يرتد سهمه إلى نحره وأن يهلك جزاء جرمه ، أما من أحرقهم إيليا فلم يكونوا يبغون قتله بل طلبوا منه فقط أن يصحبهم إلى الملك ، أما الرجل وزوجته اللذين أماتهما بطرس لمنعهما عنه جزءا يسيرا من أملاكهما بعد أن أعطياه معظمها فقصة نادرة تتحدث بها الأجيال . . بل إن الرسول الكريم حين علم بعدول

---

(١) سورة التوبة ٤٠ .

سراقة عن قصده ورجوعه إلى رشده . دعا الله فأطلقه وفرسه فعاد سالما إلى أهله .

ومعجزة عظيمة أخرى اختص الله بها نبيه محمدا وفضله بها وبغيرها على سائر الأنبياء ، تلك هي معجزة الاسراء والمعراج ، فبينما كان الرسول نائما على فراشه بمكة إذ أتاه جبريل فأيقظه وخرج معه ، فاذا أمامهما دابة بيضاء تدعى البراق ، ركبها الرسول وجبريل خلفه ، وطارت بهما الدابة حتى انتهيا إلى بيت المقدس ، فوجد فيه الرسول نفرا من إخوته الأنبياء بينهم إبراهيم وموسى وعيسى فصلى الرسول بهم إماما . يقول القرآن عن معجزة الاسراء « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » (١) .

وعندما انتهى الرسول من الصلاة فى بيت المقدس ، عرج به جبريل إلى السماء ، وأخذ يرتقى السماوات السبع سماء سماء ، حتى تجاوزها إلى سدرة المنتهى ، وإلى قاب قوسين أو أدنى من العرش العظيم ، هناك حيا الرسول ربه : التحيات لله ، والصلوات والطيبات . وأجاب الرحمن مصطفاه : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته . وقال الرسول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، اشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله . وفى هذه اللحظات الخالدة التى وقفها محمد عليه الصلاة والسلام بين يدى رب العزة والجلال فرضت الصلوات الخمس على الأمة الإسلامية .

ويتحدث القرآن عن معجزة المعراج « والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى ،

---

(١) سورة الاسراء : ١ .

علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى ، وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى ، فكان قابَ قوسين أو أدنى ، فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤادُ ما رأى ، أفتمارونه على ما يرى ؟ ولقد رآه نزلة أخرى عند سِدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السِّدرة ما يغشى ، ما زاغ البصرُ وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى » (١) .

المعجزة والرسالة :

إن الإيمان بالله تحت ضغط المعجزة أو الآية إيمان ناقص ، مبعثه الخوف والرهبة ، هو إيمان المكره وليس إيمان الواثق ، ومن ثم فهو إيمان ضعيف متهاو لا يثبت أمام الأحداث والتجارب ولا يبقى مع الأيام ، تحدثنا الأناجيل أنه عندما كان عيسى يصنع المعجزات كانت تأخذ المشاهدين الدهشة والخوف والرهبة ، « فأخذ الجميع خوف » (٢) . « فبهت الجميع (٣) » وهكذا . .

هذا الإيمان المفروض غالبا ما يكون مؤقتا سرعان ما يزول بزوال مؤثراته ، فبمجرد إنتهاء المعجزة وتلاشى عوامل الخوف أو الرهبة أو الاعجاب يعود الناس إلى الكفر والتكذيب والبهتان

---

(١) سورة النجم : ١ — ١٨ .
(٢) لوقا ص ٧ : ١٧ .
(٣) لوقا ص ٩ : ٤٣

مرجعين المعجزة إلى السحر أو السكر أو أحد عوامل الطبيعة ، يقول تبارك وتعالى : « وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ، ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا : إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » (١) .

هذا عن المشاهدين ، الذين رأوا المعجزة بأعينهم ولمسوها بحواسهم ، أما من اقتصر على السماع فسيكون أقل تصديقا وأشد أنكارا وتكذيبا . .وشاهدوا المعجزات قليلون إذا قورنوا بمعاصريهم من الأهلين ، وبغيرهم من البشر فى شتى البقاع ، فكيف يؤمن هؤلاء بمعجزات لم يشاهدوها بأعينهم ، ولم تحسها أجسادهم ؟ بل تناقلتها الألسنة من مكان إلى مكان ، وزادت فيها وانقصت منها حسبما أراد الراوى هنا أو هناك . . وحتى إذا شاهد المعجزة معظم أمة النبى وهذا محال ، فالمعجزة دورها تاريخى ، غالبا ما ينتهى أثرها بالجيل الذى حدثت فيه ، ونادرا ما يمتد إلى جيل لاحق ، ذلك أن مرور الوقت ينال من تأثيرها وآثارها ويفقدها روعتها وحرارتها فتصبح فى عداد الروايات والأساطير بلا أدلة أو براهين . هكذا تندثر المعجزات ولكن تبقى الرسالة على مر الأجيال ، شاملة جميع الناس ، رسالة الحق والصدق وشريعة الخير والبر ، لا تحتاج إلى معجزة ولا تعوزها آية ، يقول الدكتور نظمى لوقا « إن الحقيقة آية نفسها ، تحمل برهانها فى مضمونها فيطمئن إليها العقل ويبدو ما يباينها هزيلا واضح البطلان (٢) .

---

(١) سورة الحجر .

(٢) كتاب محمد الرسالة والرسول ص ٤٩ .

من أجل هذا وإيمانا من الإسلام بقصور هذا الأسلوب فى تأييد الشرائع والرسالات وخاصة فى أطوار النضج العقلى وانفتاح الأذهان ، فقد رفض محمد عليه الصلاة والسلام أن تكون الخوارق — رغم ما أعطاه الله منها — رفض أن تكون دعامة رسالته أو آية نبوته ، يقول جل وعلا « وقالوا ان نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أ تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقروءه ، قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا » (١) .

جاءت الخوارق طائعة مختارة لنبى الإسلام ، ولكنه رفض أن تكون برهان صدقه أو دليل شريعته ، مات ابنه إبراهيم فخسفت الشمس ، فتصايح المسلمون لروعة المعجزة التى خص الله بها نبيهم العظيم فجعل الشمس تخسف لموت ابنه ، وسمعهم النبى ، أترى فرط حبه لوحيده ، وشدة جزعه لوفاته قد جعله يتعزى بمشاركة السماء له فى حزنه ؟ أو يسكت على الأقل مشغولا بمصابه ، أو يعذر الناس لبساطتهم وانبهارهم بآيات الطبيعة ؟ كلا . فليس هذا محمد ، ليس هذا يكون موقف الصادق الأمين ، فلم ينس فى ساعة حزنه العميق أمانة الهداية وصدق الرسالة التى تتمخض لاقناع العقل وانتهر الناس معلنا فيهم كلمات ربه « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة » .

---

(١) الاسراء : ٩٠ — ٩٣ .

إن العقل السوى يجد امتهانا له أن يحتال عليه صاحب دعوى بخارقة لا علاقة لها بصدق تلك الدعوى ، فالدعوى صادقة أو كاذبة لذاتها لا لأمر خارج عنها ، لهذا كان لابد للعقل البشرى فى طور نضوجه ورشده أن تأتيه الدعوة إلى الهداية بأسلوب عقلى يحترم فطرته وبداهته ، إن يقظة قد نبهت الناس أن الخوارق لا تنهض بذاتها دليلا على صحة الرسالة ، فمنطق العقل هو تاج الحياة الإنسانية ومن حق هذه الهبة الالهية أن تستعمل فيما خلقت له ، وألا يكلف أصحابها بما لا تحتمله عقولهم من خوارق ومغيبات ، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، يقول سبحانه « إن فى اختلافِ الليلِ والنهارِ وما خلق الله فى السمواتِ والأرض لآياتٍ لقوم يتقون » (١) .

لذلك فقد أتت دعوة محمد متمخضة لهداية العقول والضمائر ، متخلصة مما غبر فى الأوهام من قيام الشرائع على روعة الآيات ودهشة المعجزات ، يقول محمد عزة دروزة « إن حكمة الله اقتضت ألا تكون الخوارق دعامة لنبوة محمد ، وبرهانا على صحة رسالته ؛ وصدق دعوته التى جاءت بأسلوب جديد، أسلوب لفت النظر إلى الكون وما فيه من آيات باهرة والبرهنة بها على وجود الله وقدرته الشاملة ، ثم أسلوب مخاطبة العقل والقلبِ فى الحث على الفضائل والتنفير من الرذائل ، وإثبات قدرة الله على الحياة الأخرى وفكرة الحق والعدل فيها » (٢) .

هكذا تتمخض العقيدة لهداية العقل بعد أن بلغ رشده ،

---

(١) سورة يونس ٦ .

(٢) كتاب سيرة الرسول جـ ١ ص ٢٢٦ .

ولإطمئنان القلب بعـــد أن ثبت يقينه ، هكذا تتنزه الدعوة من الخوارق ولو كانت مما يملك صاحبها ، فكذلك يكون الإيمان عن تقبل واختيار لا عن إذعان وإجبار . هداية البصائر والضمائر ، وبقي العقل والقلب ، لا إكراه التسليم والخوف ، واستسلام الرهبة والخضوع ، حض على استعمال الفكر والتبصر فى الظواهر الكونية وفى حقائق الوجود ، للوصول إلى معرفة الخالق العظيم والسير فى طريقة القويم ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون . . لقوم يتفكرون . . لقوم يتذكرون . . لقوم يعلمون . . إيمان التثبت واليقين ، لا إيمان التزعزع والالتياع . . إيمان المختار لا إيمان المكره . . برهان يملأ القلب وحجـــة تقنع العقل . . لا إكراه ولا خشية ، ولا ارهاب ولا تخويف .

يقول سبحانه : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميع عليم » (البقرة ٢٥٦) .

الفصل الرابع

رسالة المسيح

بعث الله عيسى نبيا إلى بنى إسرائيل ، وأرسله برسالة خاصة اقتصرت عليهم وحدهم دون سائر الشعوب .

وبنو إسرائيل كما هو معروف أشد الشعوب تعصبا وعنصرية ، وتصلتا وعصبية ، فهم فى نظر أنفسهم الشعب المقدس ، وأما الباقون فرجس مدنسون « للأجنبي تقرض بربا ، ولكن لأخيك فلا تقرض بربا » (١) . « ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » (آل عمران ٧٥) .

وعيسى نبى اليهود ، تربى بينهم وعاش فى وسطهم ، أحب قومه وأغدق عليهم ، تروى الأناجيل أنه قبل ميلاد عيسى كثرت النبوءات التى وصفته بأنه محرر إسرائيل ومدبر شئونها وراعى شعبها ، يقول الحوارى متى مخاطبا بلدة بيت لحم المدينة التى ولد فيها عيسى ، والتى أنجبت من قبله أباه داود وولد فيها قبلهما يهوذا أحد أبناء يعقوب الاثنى عشر أسباط إسرائيل ، يقول متى على لسان الله « وأنت يابيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا ، لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبى إسرائيل » (٢) ، وعندما بشر الملاك مريم بولادة غلامها الذكى ، أعلنها بوعد الله

---

(١) تثنيــة ص ٢٣ : ١٩

(٢) متى ص ٢ : ٦

بأن يجعله ملكا على إسرائيل وخليفة لجده الملك داود ، يقول لوقا عنه « ويعطيه الرب الاله كرسي داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ، ولا يكون لملكه نهاية » (١) .

ويبدأ عيسى دعوته فيعلن فى صراحة ووضوح أن رسالته مقصورة على بنى إسرائيل ولا تمتد إلى غيرهم ، يقول عيسى « لم أرسل إلا إلى خراف بنى إسرائيل الضالة » (٢) . ويقول أيضاً « وقد أقامنى الله نبيا على بيت إسرائيل لأجل صحة الضعفاء » (٣) .

وعيسى كان يحفظ الشريعة اليهودية ويسير على الناموس ، يقول عنه الأستاذ العقاد إنه « كان يرتل المزامير ، وكان يحفظ كتب أرميا وأشعياء وحزقيال ، فضلا عن الكتب الخمسة التى نسبت إلى موسى عليه السلام ، وفضلا عن اختلاف المذاهب فى تطبيق الوصايا والأحكام » (٤) .

وكما حفظ عيسى الشريعة والناموس ، أوصى أتباعه بحفظها وإتباعها وتعلمها ، يقول عيسى « على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وتعلموه »(٥) .

حفظ عيسى الشريعة اليهودية التى جاء ليكملها ، واحترمها وأكبرها وقدسها بحيث من الأهون عليه أن تزول السماء والأرض ، وكل مخلوقات الله وموجودات الكون ، ولا يزول حرف أو كلمة

---

(١) لوقا ص ١ . (٢) متى ١٥ : ٢٤ .
(٣) انجيل برنابا ص ٥٢ : ١٣ .
(٤) كتاب عبقرية المسيح ص ١٦٦ .
(٥) انجيل متى ص ٢٣ .

من الناموس الإسرائيلى ، يقول عيسى « زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس » (١) .

ويحرص اليهود على الانعزال عن باقى الأمم ، وعلى عدم الاختلاط بباقى الشعوب ، قد يتعاملون مع الناس تعامل المصالح والمنافع ، ولكنهم لا يختلطون بهم ولا يمتزجون ، حرصا على عدم تلوث الشعب المقدس بالشعوب الأخرى ، وعلى صفاء الدماء الكهنوتية الملوكية ، جاء بعض الرؤساء يوما إلى النبى عزرا يخبرونه أن نفرا من اليهود صاهروا بعض الشعوب المجاورة ، وكان هذا الخبر كافيا لأن يفقد النبى صوابه ويطير عقله ، يقول عزرا « ولما كملت هذه تقدم إلى الرؤساء قائلين : لم ينفصل شعب إسرائيل والكهنة واللاويون عن شعوب الأراضى حسب رجاساتهم من الكنعانيين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والموآبيين والمصريين والأموريين لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضى ، وكانت يد الرؤساء والولاة فى هذه الخيانة أولا ، فلما سمعت بهذا الأمر مزقت ثيابى وردائى ونتفت شعر رأسى وذقنى وجلست متحيرا » (٢) .

ويؤكد الحوارى بطرس هذه الدعوة العنصرية لدى اليهود ، فيقول « أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودى أن يلتصق بأحد أجنبى أو يأتى إليه » (٣) .

---

(١) انجيل لوقا ص ١٦ : ١٧ .
(٢) عزرا ٩ : ١ — ٤ .
(٣) أعمال الرسل ١٠ : ٢٨ .

وقد اختار عيسى إثنى عشر تلميذا ليكونوا أحباءه وأخصاءه ومساعديه فى نشر دعواه ، ويعد عيسا تلاميذه بأن يكونوا أعلى مقاما من أسلافهم الأسباط وأن يجلسوا قضاة يدينون الاثنى عشر سبطا ، ذلك أن بطرس وأصحابه ساوموا عيسى متسائلين عما سيحصلون عليه من كسب نتيجة تركهم أعمالهم وشباكهم وسيرهم وراءه ، ويجيبهم عيسى بأن مكافأته لهم على ذلك هو تعيينهم حكاما وقضاة فى الملكوت يدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر ، وينقل لنا الحوارى متى هذه المحاورة بين عيسى وأسباطه فيقول « فأجاب بطرس حينئذ وقال له : ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك ، فماذا يكون لنا ؟ فقال لهم يسوع : الحق أقول لكم : إنكم أنتم الذين تبعتمونى فى التجديد ، متى جلس ابن الإنسان « عيسى » على كرسى مجده ، تجلسون أنتم أيضاً على إثنى عشر كرسيا تدينون أسباط إسرائيل الاثنى عشر » (١) .

يقول بولس الياس فى كتابه (يسوع المسيح) « إن المسيح قد اختار إثنى عشر رسولا ليعاونوه فى تأسيس الكنيسة وذلك إشارة إلى أسباط إسرائيل الاثنى عشر ليكون أولئك كهؤلاء آباء روحيين لشعب الله » .

ويرسل عيسى تلاميذه لينشروا دعوته بين اليهود ، وليعاونوه فى تبليغ رسالته فيكرر لهم الوصية بأن يقصروا الدعوة على اليهود ، ويحذرهم من دخول مدن الأمم والشعوب الأخرى ، ولو كانوا جيران اليهود ، يقول عيسى لتلاميذه « إلى طريق أمم لا تمضوا ،

---

(١) متى ١٩ : ٢٧ — ٢٨ .

« إلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بنى إسرائيل الضالة » (١) .

قصرت نصوص الأناجيل دعوة عيسى على بنى إسرائيل ووقفت رسالته عند هداية الضالين منهم ، أما باقى الأمم والشعوب وسائر الأجناس والألوان ، فلا شأن لرسالة عيسى بهم ولا علاقة بينها وبينهم ، فلم تأت الرسالة إلا لابناء إسرائيل ، ولم تخاطب سواهم ، لهذا فليس من حق أحد غير الإسرائيليين اعتناق الرسالة العيسوية ، أو السير على نهج الشريعة اليسوعية ، ومن يفعل ذلك من غير بنى إسرائيل فانما يخالف تعاليم عيسى نفسها ، وتعاليم الله الذى قصر الرسالة على الإسرائيليين ، ومن واجب كافة الأجناس والشعوب غير الإسرائيلية ألا يغتصبوا حقا ليس لهم ، وألا يتمسكوا برسالة أنزلت إلى غيرهم ، بل حُرِّمت عليهم ، وحُرِّمت مصاهرتهم أو حتى الاختلاط بهم . حقيقة يعلنها عيسى لتلاميذه فى صراحة « لا تعطوا القدس للكلاب ، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير » (متى ٧ : ٦) . والكلاب والخنازير هم كل الشعوب الأخرى التى ليست من أبناء صهيون .

ومما يؤسف له ما تصوره بعض الأناجيل من اتسام معجزات عيسى بالعنصرية والتعصب ، فهذه امرأة عربية كنعانية من نواحى صور وصيداء ترى عيسى يسير فى الطريق ومعه تلاميذه فتسرع وراءه لترجوه أن يشفى إبنتها المجنونة ..ارحمنى يا سيد يا ابن داود،

---

(١) متى ١٠ : ٥ — ٦ .

ابنتى مجنونة جدا . ولكنه يشيح عنها بوجهه ويمضى ولا يجيبها بكلمة وتلهث المرأة وراءه ويزداد توسلها حتى يرق لها قلب التلاميذ فيطلبون من معلمهم إجابتها إلى طلبها منعا من مضايقتهم « وطلبوا إليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا » . ولكن عيسى يذكرهم بأن رسالته وقدرته وكافة معجزاته مقصورة على الشعب المختار ، وليس فيها شيء للشعوب الأخرى ، ويشق رجاء المرأة المسكينة فتهرع إلى عيسى وتسجد له طالبة شفاء ابنتها ولكن عيسى ينهرها قائلا « ليس حسنا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب » والبنون هنا هم شعب إسرائيل أبناء يهوه ، أما الكلاب فهم باقى الأمم والشعوب ، وعلى ضيق المرأة بهذه الألفاظ الجارحة ، وهذا التحقير الكريه لقومها وشعبها فان لهفتها إلى شفاء ابنتها جعلتها تقبل هذا النعت الحقير لها ولقومها بالكلاب ، فردت على عيسى ردا كله حكمة ، ردا أرضى فيه نزعة الإسرائيلى كما تصوره هذه الأناجيل ، ورغبته فى تسلط قومه الأرباب على سائر الشعوب الكلاب ، قالت المرأة « نعم يا سيد ، والكلاب أيضاً تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها » قبلت المرأة أن تكون وشعبها كلابا لاسرائيل وأن يكون أبناء صهيون أربابا وأسيادا لهم ، وهنا طالبت عيسى بحق الكلاب ، فتات الموائد وسقط المعجزات الذى يلفظه الأسياد ، خذوا الخبز وألقوا إلينا بالفتات ، وكان لكلمات المرأة الحكيمة وقع السحر على عيسى وتلاميذه ، لقد أرضت غرور الاسرائيليين وزهوهم وتكبرهم ، فشفى عيسى ابنة المرأة (١) .

قصة تنال منا كل عجب ، ولكنها إذا قورنت بما عليه أبناء

---

(١) أنظر متى ١٥ : ٢١ — ٢٨ ، مرقس ص ٧ : ٢٤ — ٣٠ .

يهوه من صلف وخيلاء ، وما يؤمنون به من طائفية وتحيز لكانت شيئاً يسيرا ، ونحن نؤمن بأن مثل هذا التصرف لم يصدر من نبي الله عيسى عليه السلام .

ويأتي عيد الفصح (١) أكبر أعياد اليهود ، ذكرى خروجهم من مصر ونجاتهم من فرعون عندما أرسل يهوه ملاكا أباد أبناء المصريين ، فلما مر ببيوت العبرانيين ورأى على أبوابها دم الحمل الفصحى جاز منها وعبر ، أما بيوت المصريين فدخل فيها وقتل أبناءهم الأبكار (٢) .

ولخروج بنى اسرائيل من مصر قصة ، ننقلها عن مقال لنا بمجلة منبر الاسلام « استعد بنوا إسرائيل لترك مصر ، واتفقوا على أن يتسللوا منها فى جنح الظلام ، حاملين معهم ثرواتها وخيراتها وكل ما تصل إليه أيديهم وبكل وسيلة ، بالسرقة والسلب ، وبالخديعة والنهب ، وأكثر من ذلك لقد أشركوا الله فى مؤامراتهم الدنيئة ، فجعلوه مدبرها وراعيها والداعى لها ، لقد دس بنوا إسرائيل فى توراتهم وفى كتبهم المقدسة نصوصا مزيفة نسبوها إلى الله رب العالمين ، يدعوهم فيها إلى سلب المصريين الذين أحسنوا إليهم ، وإلى نهب ثرواتهم وأموالهم ، تروى التوراة فى الاصحاح الثالث من سفر الخروج قول الله لبنى إسرائيل « فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة ، وأمتعة ذهبا وثيابا ، وتضعوها على بنيكم وبناتكم لتسلبوا المصريين » .

---

(١) الفصح كلمة عبرية معناها الاجتياز او العبور .
(٢) سفر الخروج ص ١٢ : ١٥ — ٢٧ .

وينفذ بنو إسرائيل وصية يهوه إله إسرائيل ، فيسلبون المصريين ما أعاروه إياهم بنية حسنة من أموال وخيرات : تقول التوراة أنهم طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهبا وثيابا ، وأعطى الرب نعمة للشعب فى عيون المصريين حتى أعاروهم . . فسلبوا المصريين » (١) .

هكذا تم المؤامرة تحت رعاية الله الذى يدبر لشعبه المختار سلب شعب مصر الكريم ، الذى آواهم مئات السنين ، وأغدق عليهم خيرات أرضه ، وأنقذهم من الهلاك والضياع ، فكافأوه بسلب ثرواته ونهب أمواله (٢) .

يحدثنا الأب لويس برسوم عن مراسم الاحتفال بعيد الفصح فى زمن عيسى فيقول « كان عيد الفصح أكبر أعياد اليهود وسمى أيضا بعيد الفطير ، وقد تطور الاحتفال به على مر السنين ، وأهم الطقوس الجديدة فى العشاء الفصحى على عهد المسيح أن تدار أربع كئوس خمر وتدار طسوت ماء لغسل الأيدى بعد الكأس الأولى تذكار لعبور البحر الأحمر » (٣) .

وفى اليوم السابق على الفصح ، يأتى عيسى إلى أورشليم عاصمة إسرائيل ، ويدخل إليها راكبا جحشا صغيرا فيستقبله أتباعه بسعف النخيل وأغصان الأشجار ، فرحين مهللين بمخلص إسرائيل ومليكها المنتظر ، ويعلو صياح الأتباع ويشتد هتافهم لعيسى وتحياتهم وبركاتهم له . . السلام لك ياملك اليهود . . مبارك الملك الآتى باسم الرب .

---

(١) خروج ص ١٣ .
(٢) انظر مقالنا (التوراة بين الزيف والحقيقة) بمجلة منبر الاسلام عدد جمادى الاولى سنة ١٣٨٧ هـ ص ١٣٦ وبعدها .
(٣) كتاب « حياة يسوع » جـ ٢ ص ١٤٢ .

وعن حديث عيسى مع المرأة السامرية عند البئر ، يقول يوحنا « قال لها يسوع : أنتم تسجدون لما لستم تعلمون ، أما نحن فنسجد لما نعلم ، لأن الخلاص من اليهود » (١) .

ورغم إنكار اليهود لعيسى وتكذيبهم إياه ، يظل حتى النهاية جاعلا إياهم خاصته وأحباءه مهما رفضوه ورذلوه ، يقول عنه يوحنا « إلى خاصته جاء ، وخاصته لم تقبله » (٢) .

ويناجي عيسى عاصمة بلاده راجيا أن يضم أولادها إلى صدره وأن يحنو عليهم كما تحنوا الدجاجة على صغارها ، يقول لأورشليم « كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها » (٣) .

وبعد عيسى يأتي خليفته بطرس فيؤكد لليهود أن عيسى ماجاء إلا لخلاصهم وغفران خطاياهم يقول بطرس عن عيسى « هذا رفعه الله بيمينه رئيسا ومخلصا ليعطي إسرائيل التوبة وغفران الخطايا » (٤) ويستطرد بطرس قائلا أن رسالة عيسى قد اقتصرت على أبناء اسرائيل « الكلمة التي أرسلها الله إلى بني إسرائيل يبشر بالسلام يسوع المسيح » (٥) .

وقد ظل التلاميذ حتى النهاية يعتقدون أن ملكوت الله يأتي بتحرير إسرائيل من قبضة الرومان وبفرض سيطرتها على دول

---

(١) انجيل يوحنا ص ٣ : ١٥ — ٢٢ .
(٢) يوحنا ١ : ١١ .
(٣) متى ٢٣ : ٣٢ .
(٤) لوقا ٥ : ٣١
(٥) أعمال ١٠ : ٣٧ .

العالم ، فحين كان يحدثهم عيسى عن موعد حلول ملكوت الله سألوه قائلين : هل فى هذا الوقت ترد الملك إلى إسرائيل (أعمال ص ١ : ٦) ثم يأتى بولس العدو السابق والصديق اللاحق فيبتهل دواما لتحرير إسرائيل « أيها الاخوة مسرة قلبى وطلبتى إلى الله لأجل إسرائيل هى للخلاص » (رومية ص ١٠ : ١) .

ولكى نطلع على سر العنصرية البغيضة والطائفية الكريهة التى ينادى بها الاسرائيليون ، والتى أخذتها عنهم الأمم الاستعمارية ، فعاملت خلق الله معاملة السوائم ، نعود بأنفسنا إلى الماضى ، إلى عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة حيث عاشا معا زمنا طويلا ، وامتد بهما العمر حتى شاخا ، ولم تنجب سارة لابراهيم غلاما ، فنصحته زوجته بأن يدخل بجاريتها المصرية هاجر ليصير له نسل منها ، وفعل إبراهيم كرغبة زوجته واتخذ هاجر زوجة ثانية له أنجبت إسماعيل عليه السلام الذى من نسله جاء محمد خاتم المرسلين وبعد أن أنجبت هاجر غلامها المبارك ، دبت الغيرة فى قلب الزوجة الأولى سارة ،ولم تطق أن ترى ضرتها وابن زوجها أمام عينيها ، ورغم أن الله فتح رحمها بعد ذلك فأنجبت إسحق أخا لاسماعيل ، إلا أنها ألحت على إبراهيم أن يطرد سارة وابنها حتى لا يشارك إسماعيل أخاه إسحق الميراث ، فابن الجارية لا يرث مع ابن الحرة ، أخوان لأب واحد ، خرجا من صلب رجل واحد ، وتربيا فى بيت واحد ، فرقت بينهما المطامع والأهواء والأنانية وغيرة النساء ، ومنذ ذلك الحين يعتقد اليهود أنهم أبناء إسحق ، أبناء الحرة سارة ، أما العرب فهم أبناء اسماعيل ، أبناء الجارية هاجر ، ومنذ ذلك حدثت التفرقة بين أبناء آدم وأبناء إبراهيم ، بين كافة خلق الله ،

عبيد وأحرار ، خدم وسادة ، رغم أن الكل أبناء آدم وإبراهيم ، الكل من تراب وإلى التراب يعودون .

ليس عجيبا بعد الآن أن نسمع عن الاستعمار والامبريالية ، وعن التفرقة العنصرية ، وعن استعباد الشعوب واستنزاف ثرواتها، وعن معاملة الأمم العنصرية للشعوب الحرة معاملة السوائم والحشرات.

أرسل عيسى إلى بنى إسرائيل ، يقول تبارك وتعالى « وإذ قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم » .

وأتى محمد إلى الناس أجمعين مبشرا ونذيرا لكافة الشعوب ، وهاديا لجميع الأمم ورحمة للعالمين ، الأبيض والأسود ، والأصفر والأحمر ، والعربى والاعجمى ، والرومى والفارسى .

« قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض » (الأعراف ١٥٨) .

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » (سبأ ٢٨) .

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء ١٠٧) .

ومن الذى أرسل محمدا ، إنه الله « رب العالمين » ، رب المشرق والمغرب « فأينما تولوا فثم وجه الله » ليس يهوه « إله إسرائيل » أو « إله يعقوب » أو إله زيد أو عمرو ، بل إله الكافة وخالق الجميع .

أتى الإسلام فسوّى بين البشر ، وقاوم الطبقات وحارب التسلط ، وحرر الضمير الانسانى من ربقة الطائفية ومن استعباد الاستعلاء والسيطرة ، يقول عز وجل « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » (سورة الحجرات) .

جميع الناس أسرة بشرية واحدة ، التفاضل بين أفرادها بالتقوى والعمل الصالح ، أكرمهم عند ربهم وأقربهم إليه أتقاهم وأحسنهم عملا ، لا تكريم ولا تفاضل من أجل جنس أو لون ، أو طبقة أو أمة ، ولكن لكل شرف الانتساب إلى الخالق العظيم وشرف الاستعداد لبلوغ الكمال والرفعة ، فكلنا عبيده وكلنا صنع يديه ، لا يعوقنا جنس ، ولا تمنعنا طبقة ولا يحجبنا لون .

يرتفع مجلجلا صوت الرسول الأمين فى حجة الوداع « يأيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد » .

صدقت يا محمد ، فكلنا أبناء آدم ، وآدم من التراب ، كلنا من التراب وإليه نعود ، فلماذا الاستعلاء والتعجرف ؟ ولماذا الخيلاء والتنطع ؟ ولماذا الزعم بالأفضلية والتميز ؟ والادعاء بالمزايا والملكات ؟ ألسنا جميعا من الأرض نشأتنا وإليها عودتنا ؟ خرجنا من الأرض وجبلنا من الطين وتناسلنا جميعا من نطفة آدم وحواء ، وخلقنا جميعا إلهٌ واحد . إذن فلاتفاضل بيننا ، إلا بتقوى الخالق ، وبالعمل الصالح لخير الدنيا والآخرة ، يقول جل وعلا « ولكل درجات مما عملوا ، وما ربك بغافل عما يعملون » (الأنعام ١٣٢) .

هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يدعو إلى العمل النافع ، ويحذر الأعراب من الاعتماد على الأصل أو المنبت ، يقول عمر « والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة » .

التفاضل بين الناس بالإيمان والتقوى ، وبالعلم والعمل ، لا أحساب ولا أنساب ، ولا غنى ولا فقر ، ولا جنسية ولا تعصب يقول سبحانه «هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟» (الزمر) .

ويقول عز من قائل « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (المجادلة) .

وكل مخلوق منح الفرصة المتكافئة ليصل إلى أقصى الدرجات ، وإلى أعلى المراتب بجده واجتهاده ، وبعلمه وعمله ، وبإيمانه وتقواه ، يقول عليه الصلاة والسلام « مداد العلماء يرجح دماء الشهداء » .

والقرآن حديث الرحمن لم يكتبه محمد ، ولم ينزل من أجل محمد أو آل محمد ، وإنما نزل للناس أجمعين ، وما محمد إلا حامل الرسالة ومبلغها للناس ، وليس له فيها شيء ، حقيقة هامة يعلنها الله لرسوله « ليس لك من الأمر شيء » .

نعم فالأمر كله لله ، رب العالمين ، رب العرب والعجم ، والبيض والسود والحمر والصفر ، وما محمد إلا مبلغ ورسول .

لم يحاب القرآن العرب ، ولم يجعلهم شعبه المختار ، ولم يميزهم على سائر الشعوب ، ولم يعتبرهم أبناء الله وأحباءه ، بل ساوى بين الجميع وأعطى كل مخلوق على حسب عمله .

ليس هذا فحسب ، بل إن القرآن لم يخف ما عليه العرب من مآخذ وما عليه بعضهم من سوء الخلال ، يقول الحق تبارك وتعالى « الاعراب أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم » .

وينبه القرآن الرسول والمؤمنين إلى ما عليه قومهم من نفاق

وكفر ويحذرهم من الانحياز لهم أو الاطمئنان إليهم اعتمادا على أنهم قومهم وأهلوهم ، ويؤكد سبحانه أن هؤلاء المنافقين الكفار سيلقون العذاب فى النار ، ولن يشفع لهم جنسهم أو قرابتهم للمؤمنين ، يقول سبحانه « وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم » .

حتى الأعراب الذين كانوا يساعدون المؤمنين وينفقون على الدعوة الإسلامية ، فقد كان بعضهم غير مخلص فى عمله ، يبغى التقرب إلى المؤمنين للإيقاع بهم ، وهنا يفضحهم القرآن ويتوعدهم بسوء المصير ، يقول جل وعلا « ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء . والله سميع عليم » .

وعندما أسلم بعض الأعراب رغبة أو رهبة ، طمعا أو خوفا وادعوا الإيمان ، لم يجاملهم القرآن بل صارحهم بأن الإيمان لما يعمر قلوبهم بعد ، يقول سبحانه « قالت الأعراب آمنا : قل : لم تؤمنوا ولكن قولوا : أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم » .

الصدق أبلج ، والحق صارم ، والعدل بتار ، لا يعرف قوما ، ولا جنسا ولا لونا ، حتى الأهل والأقربين والأحباب ، لا تعصب ولا تحيز ولا مجاملة .

أخطأ العرب فعنفهم القرآن ، وأظهر فسادهم ونفاقهم ، وتوعدهم سوء العذاب . لم يجاملهم من أجل محمد ، فليس لمحمد من الأمر شىء ، ولكن الأمر كله لله .

والأقربون والأحباب كالأبعدين والاغراب ، ينالون الجزاء الوفاق خيراً بخير ، وشراً بشر ، هذا أبو لهب الزعيم العربى القرشى

يهوى فى الميزان إلى حضيض ليس له قرار ، وإلى نار ذات لهيب وأوار ، وهو عم الرسول ولكنه عدو الله « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » (المسد ١ — ٥)

أما العاملون الصابرون ، والعلماء المتقون ، من كل جنس ولون ، فيأخذون مكانهم فى أعلى السلم وفى أرقى الدرجات ، هذا بلال العبد الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وصهيب الرومى وغيرهم ، يجلسون جنبا إلى جنب بجوار أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب قادة العرب وأعلام قريش .

بلال هذا ولاه الرسول أميراً على المدينة المنورة وفيها من رعيته كبار الصحابة ، وباذان العبد الفارسى ولاه على اليمن ، وعندما مات استخلف إبنه من بعده ، وزيد بن حارثة المولى الرقيق وابنه أسامة جعله الرسول قائدا على جيش المسلمين وتحت إمرته كثير من الصحابة ، تقول عائشة : ما بعث رسول الله زيد بن حارثة فى سرية إلا أمره عليها .

هؤلاء وغيرهم وصلوا إلى أعلى المراتب فى الدنيا والآخرة بأعمالهم الصالحة وعلمهم النافع ، لم يمنعهم الجنس أو اللون أو المنبت ، بل طاولوا بأعناقهم كبار القرشيين وتساووا بالصحابة المقربين ، وتميزوا على أقارب خاتم المرسلين .

وكم أعلى الرسول شرف الإنسان وألقى على الناس دروسا فى العزة والكرامة التى يتساوون فيها فيما بينهم كأسنان المشط .

كان أبو ذر الغفارى يحادث عبدا فى حضرة الرسول ، وحميت المناقشة بينهما فاحتد أبو ذر على العبد وخاطبه قائلا : يا ابن السوداء ، وهنا التفت المعلم العظيم إلى صاحبه غاضبا ، وألقى فى وجهه بتعبير غاية فى الاستنكار « طف الصاع ، طف الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالعمل الصالح » ، وهنا أدرك أبو ذر من هذا التأنيب اللاذع مدى الخطأ الذى ارتكبه فى حق أخيه الإنسان فهوى فى لحظة من استعلائه ، وتذكر منشأهما ومنبتهما وقام ووضع خده على التراب ، وقال للعبد : قم فطأ بقدمك على خدى .

مرت ذات يوم جنازة يهودى ، فوقف لها رسول الله فى خشوع ، حتى إذا مرت ، أقبل عليه أصحابه متسائلين : يارسول الله ، إنها جنازة يهودى ، فيجيبهم مستنكرا : سبحان الله أليست نفسا .

حدث هذا وغيره منذ أربعة عشر قرنا من الزمان ، ولكننا نرى الآن فى أوروبا وأمريكا يحرمون المسيحى الملون من التعبد فى كنيسة المسيحى الأبيض ، لهذا انتشر الإسلام بين الافريقيين على نطاق واسع ، لأنه أشعرهم بالعزة والكرامة ، ومحا الفوارق والعصبيات .

دعوة إنسانية عالمية ، قضت على العنصرية والطائفية ، وأزالت الأحقاد والاضطرابات ، ومنعت أكبر أسباب الفتن والحروب ، تلك هى نزعة الاستعلاء والتسلط التى ولدت الأثرة والأنانية وحب التزعم والسيطرة ، دون مراعاة لحقوق الشعوب الأخرى أو تقدير لحرمات البلاد الأخرى ، مما أذكى حروب الاستعمار والاستغلال ،

ثم أتى الإسلام ﷺ فوضع الترياق لسم الأحقاد الدولية والمنازعات العنصرية ، ودعا إلى التآلف والوحدة ، وإلى التآخى والمساواة يقول سبحانه « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » ، ويقول رسوله الكريم « ليس منا من دعا إلى عصبية » ، فلا عصبية لغير الحق ، ولا ولاء لغير الله ، وكلنا أخوة متحابون . . وبينما يحرم الكتاب المقدس أن يحادث اليهودى غير اليهود أو أن يختلط بهم أو يصاهرهم ، أو يؤاكلهم ويشاربهم ، يبيح القرآن للمسلم أن يؤاكل غير المسلمين ويشاربهم ، بل يتزوج المسلم الكتابية من جميع الأجناس ويجعل أهلها خئولة لأولاده المسلمين .

يأتى محمد ليقيم الحد على ابنة أحد وجهاء العرب لارتكابها جريمة سرقة ، فيجىء أسامة بن زيد يتشفع لها عنده ، فينهر الرسول صاحبه قائلا : أتشفع فى حد من حدود الله ، إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق الفقير أقاموا عليه الحد ، والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

عدل ومساواة أباح ليهودى أن يخاصم على بن أبى طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته ، وأن يوقفه بجواره فى مجلس القضاء جنبا إلى جنب إلى أن يقضى الحق بينهما .

وعلم الأجناس ينكر بطريقة قاطعة وجود أى دليل علمى يؤيد تميز أحد الأجناس البشرية على الأخرى ، بل إن الفروق البدنية بين الأجناس المختلفة لا ترجع إلا إلى البيئة والظروف والمناخ

والتربية ، ولا تأثير لها البتة على الصفات العقلية أو القدرات النفسية للشخص ، والتاريخ يشهد أن رسالة الحضارة والمدنية لم تثبت فى مكان واحد ، بل تداولتها منذ القدم مختلف الشعوب والأمم والأجناس ، تبعا لحظها من العلماء والعاملين من أبنائها خلال فترة معينة من الزمن ، من هذا يتضح بجلاء أن إدعاء بنى إسرائيل بتميزهم عن سائر الشعوب ، واختصاصهم وحدهم بهبات وملكات حرم منها غيرهم ، وذلك لرغبتهم فى استعباد الناس والشعوب والتسلط على الأمم ، ما هى إلا دعوى زائفة كذبها الإسلام ، وأثبت بهتانها العلم .

هذا هو الإسلام ، شريعة العدل والمساواة ، والحرية والكرامة ، والتعاطف والرحمة ، والتآلف والمودة ، والعزة والوحدة ، الناس فيها أمة واحدة ، خلقهم ربهم الواحد من نفس واحدة ، يقول سبحانه « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » :

صدقت يارب العالمين ، صدقت يا أرحم الراحمين ، فقد خلقتنا جميعا من نفس واحدة لأب واحد ، ومن أصل واحد ، لا فضل لأحد منا على أخيه ، إلا بتقواك ، وبعبادته لك ، وبعمله لك ، وبقربه منك ، كلنا عبيدك وصنع يديك ، وكلنا يوم الدينونة نلقاك ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شر يره ، وما ربك بغافل عما يعملون .

الفصل الخامس

الكفارة والصلب

خلق الله آدم وحواء ، ووضعهما فى جنة عدن ، وأحل لهما أطايبها ، وما نهاهما عن شىء فيها إلا شجرة واحدة فى وسط الجنة ، أوصاهما ألا يقرباها :

تقول التوراة « وأوصى الرب الاله آدم قائلا : من جميع شجر الجنة تأكل أكلا ، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها ، لأنك يوم تأكل منها موتا تموت » (١) .

وفى القرآن يقول سبحانه « ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » (الاعراف ١٩) .

وجاء الشيطان يحتال على المرأة ويغويها بأن تأكل من الشجرة المحرمة ، شجرة معرفة الخير والشر ، حتى ضعفت المرأة للإغراء ، ومدت يدها إلى ثمر الشجرة وأكلت منه وأعطت زوجها آدم فأكل معها ، تقول التوراة « فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت ، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل » (٢) .

---

(١) تك ٢ : ١٥ — ١٧ .
(٢) تك ٣ : ١ — ٦ .

وفى القرآن عن غواية الشيطان لآدم وحواء « فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ، قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » (١) .

عصى آدم وحواء ربهما بأكلهما من الشجرة التى نهاهما الله عنها ، فكان لا بد أن يتركا الجنة ويعودا إلى الأرض التى جبلا منها ، ليختبر هما الله فيها ، فلا يعود إلى الجنة إلا من حسن عمله .

يرى كتاب المسيحية أن هذه الخطيئة الأولى لم تقتصر على آدم وحواء ، بل امتدت بحكم التناسل من ذات الدم الموبوء بالخطيئة إلى البشرية كلها على مر الأجيال ، فجلبت الدمار على البشر أجمعين ، وأن كل ما نحس به نحن البشر من شك أو نزوع لى الفتنة وما إليها من الدس والوقيعة والرياء والخديعة ، أصول الجرائم وأسسها كلها منحدرة من مصدر واحد هو الأبوان الأولان .

يقول القديس بولس « من أجل ذلك كأنما بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم ، وبالخطيئة الموت وهكذا اجتاز الموت إلى جميع الناس إذ أخطأ الجميع » (٢) .

---

(١) الاعراف ٢٢ — ٢٣ .

(٢) روحية ص ٥ : ١٢ .

ويشرح لنا القس لبيب ميخائيل كيفية ذلك فيقول « لقد كان آدم نائبا وممثلا لجميع الجنس البشرى الذى كان فى صلبه يوم تعدى وصيه الله . . فبعد طرده من الجنة ولد نسلا ساقطا نظيره ، فى حالة الفساد الروحى والأدبى ، وتحت حكم الموت والدينونة التى استحقها بعصيانه وتمرده على الله ، وقد ورث هذا النسل عن أبويه الأولين حياة العداوة لله ، والتمرد على شرائعه ووصاياه » (١) .

أخطأ آدم وحواء ، وأكلا من شجرة نهاهما الله عنها ، فترتب على فعلتهما ليس سقوطهما فقط ، بل سقوط كافة الجنس البشرى فى الاثم والدنس .

ولكن هل أصر آدم وحواء على فعلتهما ، ألم يندما عليها ويستغفرا ربهما ؟ وهل تاب الله عليهما ، فجنبهما وأبناءهما مغبة الانحدار فى مهاوى الضلالة ؟

ينفى كتاب المسيحية ذلك نفيا قاطعا ، ويرون أن الله لم يغفر لآدم وحواء خطيئتهما ، بل تركهما وأبناءهما من بعدهما تحت حكم الدينونة .

ولكن إلى متى يظل آدم وأبناءه مدنسين بهذه الخطيئة ؟

العدل والرحمة :

يقول كتاب المسيحية أن الله عادل ورحيم ، فبمقتضى عدله

(١) لبيب ميخائيل : قضية الصليب ص ٨١ .

كان لا بد أن ينفذ حكم الموت على آدم وحواء « لأنك يوم تأكل منها موتا تموت » ، ولكن بمقتضى رحمته كان يجب أن يعفو عنهما بلا قيد ولا شرط ، صفتان فى الله ، وقانونان له يرتبط بهما سبحانه ارتباطا حتميا لا يستطيع منه الفكاك ، يقول الايغومانس إبراهيم لوقا « إن الله وإن كان غير خاضع لناموس خارج عنه إلا أنه مرتبط بناموس كماله الأدبى ، فهو وإن كان على كل شىء قدير إلا أن كماله الأدبى لا يسمح له بأن يأتى ما يناقض طبيعته الخيرة والمقدسة ، فهو تعالى وإن لم يكن مرتبطا بقانون خارجى ، فانه مرتبط بقانون طبيعته الأدبيه الكاملة ، وهذا يجعله لا يأتى ما يخل بأى صفة من صفاته أو ما يمسها » (١) .

ولكن هذان القانونان فى الله ، وهاتان الصفتان فيه متعارضتان ومتغايرتان ، بحيث لا يمكن التوفيق بينهما ، العدل يطالب بالموت جزاء العصيان ، والرحمة تطلب العفو والمغفرة ، والله حائر بين صفتيه المتعارضتين ، لا يعرف كيف يوفق بينهما ، أو كيف يغلب إحدى الصفتين على الأخرى ، إذا أراد أن يميت بالعدل منعته الرحمة ، وإذا رغب أن يعفو بالرحمة عاقه العدل .. !

الكفـــــارة :

يقول القديس بولس « لا توجد مغفرة بدون سفك دم » .
ولكن من هو الشخص الذى يستحق أن ينوب عن آدم ؟

(١) ابراهيم لوقا : المسيحية فى الاسلام ص ١٦٠ .

وما هى الدماء التى يكفى سفكها لتخليص آدم وزوجته وأبناؤهما من الخطيئة ؟ .

يقول الكتاب إن خطيئة آدم لا تشترى إلا بدم زكى نفيس ، وهذا الدم لا يكون دم إنسان من البشر ذلك أن البشر ملوثون ودماءهم نجسة ، كذلك ليس دم حيوان من الحيوانات التى تعود الوثنيون واليهود ذبحها كفارة عن ذنوبهم . ذلك أن الحيوان لم يشترك فى خطيئة آدم (١) ، كذلك ليس دم ملاك لأن الملائكة ليس لهم دم وبالتالى لا يصلحون للفداء ، وإذن فلا بد أن يكون الدم دماً إلهيا طاهراً ، ولكن فى نفس الوقت يمثل البشرية فهو دم طاهر — ولا طاهر إلا الله — ويمثل الإنسان .

ولكن هل للإله دم ؟ وكيف يكون الدم إلهيا ويمثل البشرية فى نفس الوقت ؟ المشكلة تحل بنظرية التجسد ، يرسل الله ابنه الوحيد ليحل فى جسد العذراء مريم ، ويظل فى بطنها فأحشائها تسعة أشهر ، ثم يولد بالجسد إنسانا ذا لحم ودم ولكنه الله نفسه .. !

يقول بولس « لما جاء ملء الزمان أرسل الله ابنه مولودا من امرأة ، ومولودا تحت الناموس ليفتدى الذين هم تحت الناموس لننال التبنى » (غلاطيه ٤ : ٤) .

هذه النظرية يقوم عليها الدين المسيحى كله ، يقول القس بولس

---

(١) تذكر التوراة ان الحية (وهى حيوان) هى التى حرضت حواء على الاكل من الشجرة المحرمة .

الياس « إن موت المسيح وبالتالى سر الفداء يمثل نقطة الدائرة من الدين المسيحى ، لقد تم مفعول الوساطة بموت المسيح وسفكه دمه ، الذى به كفر عن خطايانا وأرضى الله أباه » (١) .

الصلب :

أسهب كتاب المسيحية فى سرد نظرية الصلب ، صلب عيسى وسفك دمه ، من أجل تخليص البشر من خطيئة آدم ، ونوالهم رضوان الله ، النظرية التى يقوم عليها الدين المسيحى كله ، والتى من أجلها تجسد ابن الله وأتى إلى الأرض

يحدثنا الحوارى مرقس عن كيفية القبض على عيسى تمهيدا لصلبه « وكان الفصح وأيام الفطير بعد يومين ، وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يمسكونه بمكر ويقتلونه ، ولكنهم قالوا ليس فى العيد لئلا يكون شغب فى الشعب ، وجاءوا (عيسى والتلاميذ) إلى ضيعة اسمها جثيمانى فقال لتلاميذه : اجلسوا هنا حتى أصلى ثم أخذ معه بطرس ويعقوب ويوحنا وابتدأ يدهش ويكتئب فقال لهم نفسى حزينة جدا حتى الموت ، امكثوا هنا واسهروا ، ثم تقدم قليلا وخر على الأرض وكان يصلى لكى تعبر عنه الساعة إن أمكن ، وقال يا أبا الآب كل شىء مستطاع لك فأجز عنى هذه الكأس » (٢) .

---

(١) بولس الياس : يسوع المسيح ص ٩٤ .
(٢) انجيل مرقس ص ٤ .

وقبل أن نستطرد فى ذكر تفاصيل الصلب كما روتها الأناجيل، نقف قليلا عند بعض الألفاظ والعبارات التى وردت لنتبين مدى تلاؤمها مع نظرية الكفارة والصلب ، إن كتاب المسيحية يقررون أن أول شروط الفادى أنه جاء بنفسه وإرادته إلى العالم ونزل من علياءه وتجسد ليصلب ، لم يأت إلى العالم ولم يتجسد إلا ليصلب ويكفر بنفسه ودمه خطيئة آدم . وإذا كان هذا صحيحا وكان عيسى قد أتى بارادته ليصلب ، فما الذى يدعوه هنا إلى الحزن والاكتئاب ؟ وما الذى يدعوه إلى تغيير رأيه وطلب العدول عن صلبه ؟ بل ما الذى جعله يصلى لله ويتوسل إليه أن يجيز عنه هذه الكأس ، وأن يخلصه من الصلب ؟ وأى صلاة تلك التى كان يصليها عيسى لله ؟ إنها صلاة الخضوع والخشوع والبكاء، صلاة الخوف والخشية والحزن .

هنا نرى عيسى يعيد الصلاة والتضرع لله أن يجيز عنه الكأس التى ما أتى إلى العالم إلا ليشربها، ويرجو تلاميذه أن يصلوا معه ويتوسلوا لله ليبعد عنه كأس الموت ، ويتكرر المشهد والصلاة والتضرع ثلاث مرات ، وتصور الأناجيل أن الله لم يستجب لتوسلات عيسى وصلاته ، فيئس عيسى وكف عن الصلاة ، وسمح لتلاميذه بالراحة والنوم .

ويمضى مرقس فى روايته فيقول « وللوقت فيما هو يتكلم (عيسى) أقبل يهوذا واحد من الاثنى عشر ومعه جمع كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ وكان مسلمه الخائن يهوذا قد أعطاهم علامة قائلا : الذى أقبله هو هو،

أمسكوه وأمضوا به بحرص، فجاء الوقت وتقدم إليه قائلا: يا سيدى وقبله ، فألقوا أيديهم عليه وأمسكوه » .

ويوضح لنا الحوارى لوقا مدى الكراهية التى أصبح اليهود يكنونها لعيسى ، إلى درجة أن الوالى بيلاطس عندما خيرهم بين العفو عن عيسى بمناسبة عيد الفصح أو العفو عن باراباس القاتل، صرخ الجموع فى الوالى « خذ هذا وأطلق لنا باراباس، وذاك قد طرح فى السجن لأجل فتنة حدثت فى المدينة وقتل ، فناداهم أيضاً بيلاطس وهو يريد أن يطلق يسوع ، فصرخوا قائلين : اصلبه . فقال لهم ثالثة : فأى شىء عمل هذا ، انى لم أجد فيه علة للموت ، فأنا أؤدبه وأطلقه ، فكانوا يلجون بأصوات عظيمة طالبين أن يصلب ، فقويت أصواتهم وأصوات رؤساء الكهنة ، فحكم بيلاطس أن تكون طلبتهم ، فأطلق لهم الذى طرح فى السجن لأجل فتنة وقتل الذى طلبوه ، وأسلم يسوع لمشيئتهم » (١) .

وهنا تأخذنا الدهشة ، أن جموع الشعب تصرخ طالبة الموت لعيسى ، وإطلاق سراح مجرم قاتل ، فما الذى حدا بالجموع إلى هذا الحقد الشديد على عيسى ، والمطالبة بقتله وسفك دمه ، وأين الآلاف الذين شفاهم وصنع بينهم المعجزات ؟ وأين الآلاف الذين استقبلوا عيسى عند دخوله أورشليم ؟ استقبلوه بالأغصان والرياحين ، وخلعوا ثيابهم عن

---

(١) انجيل لوقا ٢٣ : ١٨ — ٢٥ .

أجسادهم وفرشوها فى طريقه لتطأها أقدام حماره ، وهتفوا له ملكا عليهم ومحرراً لاسرائيل ، أين هؤلاء جميعا ؟ وكيف انقلب هذا الحب الجارف إلى مقت شديد ، ورغبة عارمة فى الانتقام والتنكيل والتعذيب ؟ هل هى صدمة اليهود فى عيسى الملك المخلص ؟ الذى لم يستطع تحرير إسرائيل أو الجلوس على عرش داود ، أم ما هى الحقيقة ؟

ويستطرد الحوارى متى فى شرح عقيدة الصلب فيقول : « فأخذ عسكر الوالى يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتيبة ، فعرّوه وألبسوه رداء قرمزيا ، وضفروا إكليلا من شوك ووضعوه على رأسه وقصبة فى يمينه ، وكانوا يجيثون قدامه ويستهزئون به قائلين : السلام لك يا ملك اليهود ، وبصقوا عليه وأخذوا القصبة وضربوه على رأسه وبعد أن استهزئوا به نزعوا عنه الرداء وألبسوه ثيابه ومضوا به للصلب » (١) .

وهنا يثور التساؤل . هل كان من اللازم أن يموت عيسى بهذه الطريقة ؟ . شيء عادى أن يموت الإنسان شهيدا ، وشيء طبيعى أن يضحى الإنسان بنفسه من أجل هدف أو غاية ، وهؤلاء وهؤلاء يموتون دائما ميتة كريمة ، بل حتى المذنبين فان طريقة إعدامهم تختلف تبعا لقدر كل منهم وقيمته فى المجتمع ، وتبعا للجرم الذى أتاه وما إذا كان هذا الجرم مخلا

(١) انجيل متى ٢٧ : ٢٧ — ٣١ .

بالشرف والكرامة أم لا ، فالمجرم الأثيم قد يعدم شنقا بحبل أو صلبا على خشبة أو قد يلقى به طعاما للوحوش ، أما المذنب الشريف فيعدم رميا بالرصاص أو يقتل فى مبارزة وهكذا .. نعم هذه ميتة وتلك ميتة ، ولكن شتان بين الميتتين .

قد يكون السبب ما نراه من تصويرهم عيسى كملك كاذب مزيف يضعون على رأسه إكليل الشوك بدلا من إكليل الذهب المرصع بالماس ، ويجعلون فى يده قصبة من العشب الجاف بدلا من قصبة الملك ، فقد ادعى أنه المسيح المخلص ملك اليهود ومحررهم وكذب ادعاؤه وافتضح زيفه .

ويمضى الحوارى متى فى ذكر رواية الصلب فيقول « وفيما هم خارجون وجدوا إنسانا قيروانيا اسمه سمعان فسخروه ليحمل صليبه ، ولما أتوا إلى موضع يقال له جلجثة وهو المسمى موضع الجمجمة ، أعطوه خلا ممزوجا بمرارة ليشرب ، ولما ذاق لم يرد أن يشرب ، ولما صلبوه اقتسموا ثيابه مقترعين عليها وجعلوا فوق رأسه علته مكتوبة هكذا : هذا يسوع ملك اليهود ، حينئذ صلب معه لصان واحد عن اليمين وواحد عن اليسار وكان المجتازون يجدفون عليه ، وكذلك رؤساء الكهنة أيضاً وهم يستهزءون مع الكتبة والشيوخ قائلين : خلص آخرين وأما نفسه فما يقدر أن يخلصها ، أن كان هو ملك اسرائيل فلينزل الآن عن الصليب فنؤمن به ، وبذلك أيضاً كان اللصان اللذان صلبا معه يعيرانه . ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً : إيلى إيلى لما شبقتنى أى إلهى

إلهى لماذا تركتنى ؟ فقوم من الواقفين هناك لما سمعوا قالوا : إنه ينادى إيليا ، وللوقت ركض واحد منهم وأخذ اسفنجة وملأها خلا وجعله على قصبة وسقاه ، وأما الباقون فقالوا : اتركه لنرى هل يأتى إيليا ليخلصه فصرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح » (١) .

ما الذى جعله يصرخ هذه الصرخات اليائسة على الصليب ؟ كيف يكون هذا وما أتى إلى العالم إلا من أجل هذه اللحظة ؟ لحظة الصلب والموت من أجل الآخرين ، وهى لحظة كانت جديرة بأن تجعله يفرح لا يحزن .

تناقض الــــرواة :

فرض جدلى نسلم فيه بصحة الصلب ، ومع ذلك فاننا نلاحظ بين بعض الأناجيل تناقض كبير فى سرد أحداث الرواية وذكر الحوادث بعضهم يقتصد والبعض يبالغ ، بعضهم يأتى بحدث أو حديث لا يذكره غيره أو يذكره على نحو مغاير ، حتى عذاب عيسى اختلفوا فيه ، بعضهم تمادى فى ذكر آلامه وأحزانه ، وبعضهم اقتصد فى التعذيب وقتر فى التأنيب .

والتناقضات كثيرة ، ولكننا هنا نقتصر على إيراد بعض أوجهها تاركين التفاصيل لمن يرغب فى مطالعة الأناجيل .

---

(١) متى ٢٧ : ٣٣ - ٥٠ .

فى محاكمة المصلوب الذى يدعون أنه عيسى نرى متى يتحدث فى أنجيله عن كيفية مثول عيسى أمام الوالى بيلاطس فيقول « فوقف يسوع أمام الوالى فسألة الوالى قائلا : أأنت ملك اليهود ؟ فقال له يسوع : أنت تقول. وبينما كان رؤساء الكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشىء فقال له بيلاطس : أما تسمع كم يشهدون عليك، فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالى جدا » (١) .

ويعيد ذكر هذا الموقف الحوارى مرقس فى الاصحاح الخامس عشر من إنجيله بكلمات مشابهة أيضاً .

أما الحوارى يوحنا فيذكر هذه الواقعة بطريقة مخالفة تماما للانجيلين السابقين وبحديث مغاير تماما لما ورد فيهما ، يقول يوحنا « ثم دخل بيلاطس أيضاً إلى دار الولاية ودعا يسوع وقال له : أنت ملك اليهود ؟ أجابه يسوع : أمن ذاتك تقول هذا أم آخرون قالوا لك عنى : أجابه بيلاطس ألعلى أنا يهودى ، أمتك ورؤساء الكنيسة أسلموك إلى ، ماذا فعلت ؟ أجاب يسوع مملكتى ليست من هذا العالم ، لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يجاهدون لكيلا أسلم إلى اليهود ، ولكن الآن مملكتى ليست من هنا ، فقال له بيلاطس : أفأنت إذن ملك ؟ أجاب يسوع : أنت تقول أنى ملك، لهذا قد ولدت : ولهذا قد اتيت إلى العالم لأشهد للحق كل من هو من الحق يسمع صوتى ، قال له بيلاطس : ما هو الحق » (٢).

---

(١) انجيل متى ص ٢٧ : ١١ — ١٤ .
(٢) انجيل يوحنا ص ١٨ : ٣٣ — ٣٨ .

فى هذه الواقعة ، واقعة محاكمة عيسى ، نجد إنجيلى متى ومرقس يؤكدان أن كل ما قاله عيسى لبيلاطس « أنت تقول » ويجزمان بأن بيلاطس حاول بعد ذلك أن يتحدث مع عيسى أو يتناقش معه أو يجعله يدافع عن نفسه فلم يجبه عيسى ولا عن كلمة واحدة حتى تعجب الوالى جدا . هذا ما يقوله متى ومرقس، أما يوحنا التلميذ الحبيب لعيسى فقد أورد حديثا طويلا يرد به عيسى على الوالى ويناقشه ، ويتحدث فيه عن مملكته السماوية ، وعن الحق الذى أتى ليشهد له .

وواقعة أخرى هى شخصية حامل الصليب الذى علق عليه عيسى كما يقررون ، يقرر الحواريان متى ولوقا أن عيسى لم يحمل الصليب بنفسه بل حمله عنه فلاح يدعى سمعان أحضره الجنود الذين كانوا يحرسون عيسى ، يقول الحواريان أن الجنود « أمسكوا سمعان رجلا قيروانيا كان آتيا من الحقل ووضعوا عليه الصليب ليحمله » (١) . أما يوحنا فيقرر أن عيسى هو الذى حمل صليبه بنفسه حتى موضع الصلب ، يقول يوحنا « فأخذوا يسوع ومضوا به فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع الذى يقال له الجمجمة حيث صلبوه » (٢) .

الرواية الأولى (متى ولوقا) رغب صاحباها فى توقير عيسى وإكرامه فجعلا جنود الرومان يسخرون فلاحا يحمل عن عيسى صليبه ويسير خلفه . أما الرواية الثانية (يوحنا) فيبدو أن صاحبها قد أراد المبالغة فى إظهار عذاب عيسى فحمله صليبه إلى موضع صلبه .

---

(١) متى ٢٧ ، لوقا ٢٣ . (٢) يوحنا ١٩ .

وفى تصوير موقف عيسى على الصليب ، بينما نرى متى ومرقس يصورانه فزعا هلعا خائفا مذعورا ، يصرخ إلى الله فى يأس وضجر ، « إلهى إلهى لماذا تركتنى ؟ » ثم يصرخ بصوت عظيم ويسلم الروح ، نرى لوقا يصوره راضيا قانعا ، سمحا مسالما لا يصرخ ولا يفزع . . ولا يتأوه ولا يتألم ، بل ينظر للأمر كله بحكمة وتعقل ، وبطيب خاطر وبساطة سريرة ، يطلب إلى الله أن يغفر لجلاديه وأن يرحمهم « يا أبتاه أغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون » ، أما يوحنا فلا يذكر شيئاً عن هذا أو ذاك ، لا صراخ ولا رضى ، وإنما يصور عيسى بكامل الاتزان وجمود القلب ، لا تتحرك منه خلجة ولا تهتز له جارحة ، بل يترقب كل خطوة من خطواته نحو الموت ، وكل مرحلة من مراحل تعذيبه كأنها قدر مكتوب ووعد محسوب ، وكأن على صالبيه إتمام هذا الوعد وتحقيقه بنفس الدقة والترتيب الذى قدر به وحسب ، بحيث أنه عندما انتهت كافة الخطوات والمراحل ، وبدأ عيسى يجود بأنفاسه ويسلم روحه لبارئه لم ينطق سوى كلمة واحدة « قد أكمل » وكأنها شهادة لجلاديه بأنهم أتموا تحقيق المهمة الالهية التى وكلوا بتنفيذها وأدوها على خير وجه ، ليس هذا فحسب بل إن يوحنا يذكر فى إنجيله أن عيسى عندما أخبر تلاميذه بموته طلب منهم أن يفرحوا لهذا الخبر ولا يحزنوا « لا تضطرب قلوبكم ، سمعتم أنى قلت لكم أنا أذهب ثم آتى إليكم ، لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون » .

وواقعة خامسة يذكرها متى وحده ، يقول متى إنه بعد أن أسلم عيسى الروح « وإذا حجاب الهيكل قد انشق إلى إثنين من فوق إلى

أسفل ، والأرض تزلزت ، والصخور تشققت ، والقبور تفتحت ، وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين ، وخرجوا من القبور بعد قيامته ، ودخلوا المدينة المقدسة (أورشليم) ، وظهروا لكثيرين »(١)

هذه الحادثة التي ابتدعها خيال متى لم يذكرها أحد من المؤرخين ولم يسمع بها أحد ، ولو صحت هذه الحادثة العظيمة فعلا لما بقى مساغ لانكار ، ولآمن كل الشعب اليهودى بعيسى ومنهم جلادوه وصالبوه .

اضــــواء على الفكرة :

إذا صرفنا النظر مؤقتا عما شاب رواية أحداث الصلب من تناقضات ، وعن مدى نصيب هذه الأحداث فى جملتها وتفصيلاتها من الصحة ، وعدنا إلى فكرة الكفارة نفسها ، ونظرية إفتداء عيسى بدمه خطيئة آدم التي علق وزرها بالناس حتى مجيئه ، فان لنا على النظرية ذاتها بعض الملاحظات !

انبياء آثمــــون :

مقتضى فكرة الكفارة والاثم الذى ظل عالقا بالبشر منذ هبوط آدم حتى مجيء عيسى أن الله سبحانه ظل يضمر الغضب والسوء للجنس البشرى آلاف السنين حتى جاء عيسى ليمحو بدمه الاثم .

ولكن من المعروف أن الله قد اختار بعض هؤلاء البشر الآثمين قبل مجيء عيسى ، اختارهم رسلا لهم وأنبياء ، اختارهم

---

(١) متى ٢٧ : ٥١ — ٥٣ .

واصطفاهم ليبلغوا رسالاته للناس ولهداية البشرية ، اختارهم وأيدهم بمعجزاته وآياته وكتبه ورسالاته ، اختارهم لبرهم وصلاحهم ، ووعدهم جنات الفردوس والنعيم .

اختار نوحا رسولا بارا ، واختار إبراهيم له خليلا ، واختار لوطا نبيا ، واختارموسى كليما ، واختار إسماعيل واسحق ويعقوب الملقب باسرائيل ، واختار داود المبارك جد عيسى الذى طالما تفاخر عيسى بأنه من سلالته ، واختار إبنه سليمان ، واختار غيرهم كثيرين كل هؤلاء اختارهم سبحانه رسلا مكرمين وأنبياء مطهرين قبل مجىء عيسى وتطهير البشر بدمه ، فهل هؤلاء أيضاً منجسون بالدم الفاسدوبالخطيئة والاثم التى ورثوها عن أبيهم الأول آدم ؟ .

ثمرك عملك :

هذا الذى يقوله كتّاب المسيحية يناقض كل حق وصدق ، وكل عقل ومنطق ، بل يناقض ما ورد فى كتابهم المقدس وفى كافة الكتب السماوية والقوانين الوضعية من مسئولية كل إنسان عن فعله ، وأن كل فرد محاسب عما أتت يداه ، وأنه لا يؤخذ الولد بخطيئة الوالد ، ولا يعاقب أحد على ذنب ارتكبه آخر ، يقول الكتاب المقدس « لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء ، كل إنسان بخطيئته يقتل » (١) .

وتؤكد التوراة أن الابن لا يحمل شيئاً من إثم أبيه ، بل يجنى كل ثمار عمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، تقول التوراة

---

(١) سفر التثنية ص ٣٤ : ١٦ .

« النفس التى تخطىء هى تموت ، والابن لا يحمل من إثم الأب ، والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون ، وشر الشرير عليه يكون » (١) .

كأن التوراة فى هذه العبارة ترد على أصحاب عقيدة الكفارة ، الذين يرون أن حكم الله على آدم بالموت قد تحمله عيسى نيابة عنه ، هذه العبارات تدحض دعواهم مؤكدة أن الموت جزاء المخطىء ، فالنفس التى تخطىء هى التى تستحق الموت والعقاب ، ولا عقاب على نفس أخرى مهما كان قربها من النفس المخطئة ، ومهما كانت الصلة بينهما .

والقرآن حديث الرحمن يزيد هذه الحقيقة وضوحا ويجليها بيانا ، يقول عز وجل « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشوراً ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » (الاسراء) .

نعم فكل إنسان مسئول وحده عن عمله ، وعما جنت يداه ، وله عند الله سجل وكتاب تسطر فيه حركاته وسكناته وحسناته وسيئاته ، ويوم القيامة يخرج الكتاب ليشهد لصاحبه أو عليه بكل ما قدمت يداه يقول تبارك وتعالى « أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ألا تزر وازرة أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى » (٢) .

---

(١) حزقيال ص ١٨ : ٢٠ .
(٢) سورة النجم : الآيات ٣٥ — ٤٠ .

ويوم القيامة يثاب المحسن ويعاقب المسيء « فمن عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » ، هناك الجنة والنار ، والتفرقة بين الشرير والبار ، ويوم الحساب « لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً » ، ففى هذا اليوم الرهيب لا يثاب أحد بخير أحد ، ولا يعاقب إنسان عن ذنب آخر ، ولو كان أقرب الأقربين « يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه » .

وراثة الاثـــم :

يرى أصحاب الكفارة أن الإنسان يرث آثام والديه ، وأن الطفل يولد من بطن أمه ملوثا بدنس الخطيئة الأولى « بالخطيئة حبلت بنا أمهاتنا » .

ولكن الإسلام يقرر أن الطبيعة الإنسانية كاملة نقية ، وأن فطرة الإنسان طاهرة مبرأة من السوء والشر ، وأن الخطيئة كسب لا وهب ، وعرض حادث لا إرث وارث ، فكم من أبوين صالحين أنجبا أولاداً فجرة ، وكم من بيوت منحلة أنبتت علماء وقديسين ، فالعابد قد ينجب الفاسد ، ومن الفاسد يخرج العابد ، وكما أن النار تولد النار ، فهى أيضاً تخلف الرماد ، وكثيراً ما شاهدنا أخوين شقيقين تربيا فى نفس البيئة ولكنهما اختلفا فى الطباع والأخلاق ، قد يكونان ولدين أحدهما عالم والآخر عربيد ، وقد تكونان بنتين إحداهما عابدة والأخرى

عاهرة . هذا إبراهيم الخليل عليه السلام والده كافر شرير ، وهذا نوح البار ولده فى الدرك الأسفل من النار .

نعم يولد الإنسان من غير أن تكون الخطيئة مركوزة فى فطرته ، وهو قابل للترقى بالاحسان ، وقابل للتدلى بالاساءة ، يستطيع أن يسمو إلى أعلى عليين ، كما يستطيع أن يهوى إلى أسفل سافلين ، كل حسب إيمانه وعمله ، يقول جل وعلا « ولقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » (التين) .

يقول الدكتور نظمى لوقا « لا يمكن أن يقدر قيمة عقيدة خالية من أعباء الخطيئة الأولى الموروثة إلا من نشأ فى ظل تلك الفكرة القاتمة التى تطبع بصفة الخجل والتأثم كل أفعال المرء فيمضى فى حياته مضى المريب المتردد . ولا يقبل عليها إقبال الواثق بسبب ما أنقض ظهره من الوزر الموروث » (١) .

الصلب والوساطة :

ترتب على رواية الصلب والفداء أن أصبح عيسى هو الوسيط الذى افتدانا بدمه وصالحنا مع الله .

يقول القديس بولس « يوجد وسيط واحد بين الله والناس ، الإنسان يسوع المسيح » ، والحقيقة أن الكهنة والأحبار قد استغلوا هذه النظرية فقد ادعوا أن عيسى قد أورثهم هذه السلطة ، سلطة الشفاعة بين الله والناس وجعل بيديهم مفاتيح السموات والجنات وجعل فى سلطتهم التحليل والتحريم ، والمنح والمنع فكل ما يفعله الإنسان خاضع لتقدير الكهنة خلفاء عيسى ، يحرمونه ويحللونه حسب هواهم وتبعا لمشيئتهم ، يدخلون فى رحمة الله من

---

(١) نظمى لوقا : محمد الرسالة والرسول ص ٨٤ .

يشاءون ، ويطردون من رضوانه من يكرهون ، يقول عيسى لخليفته بطرس « وأنا أقول لك أنت بطرس وعلى هذه الصخرة ابنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السماء وكل ما تحله على الأرض يكون محلولا فى السماء » (١).

ويورد الحوارى يوحنا قول عيسى للتلاميذ « من غفرتم للناس خطاياه تغفر له ، ومن أمسكتم خطاياه أمسكت » .

وقد ورث الكهنة هذه السلطة الضخمة ، بل هذه القدرة الالهية ، قدرة التحليل والتحريم ، والمنح والمنع ، والثواب والعقاب والقصاص والغفران .

أما الإسلام فليس فيه خطيئة موروثة تحتاج إلى إله أو نبى يقوم بتكفيرها ، فكل نفس بما كسبت رهينة ، وليس فى الإسلام وسيط بين الله والناس ، فليس أحد أحق بالوساطة من أحد ، بل كل الناس سواسية ، وكلهم عبيد الرحمن اقربهم إليه أتقاهم ، والحرم الالهى مفتوح لكل تقى صالح راغب فى الرحمة والرضوان ، والله أقرب إلى عباده من حبل الوريد ، ليس بينه وبينهم حجاب ، وبابه مفتوح لكل طارق ، ليس عليه سدنة ولا كهان ، يقول سبحانه لرسوله الكريم

---

(١) انجيل متى ١٦ : ١٩ .

« وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » (البقرة ١٨٦) .

وهو تبارك وتعالى « يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » .

جاء الإسلام فحرم الإيمان بالوساطة أو الشفاعة ، وقضى على المدعين والمضللين ، يقول سبحانه « من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء » (البقرة ٢٥٥) . حتى رسول الإسلام ليس وسيطا بين الله والناس ، وإنما عبدا لله ورسوله وهو مذكر وليس مسيطرا « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » ، « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا » .

وإذا كفر الناس بربهم وتمادوا فى غيهم وشرورهم ، فلن تنفعهم شفاعة ولن تجديهم وساطة ولو كانت من الرسول نفسه ، يقول الله لرسوله « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين » (التوبة ٨٠).نعم ، فغفران الذنوب وقبول التوبة بيد الله وحده ، لا يشاركه فيه أحد ولا يتوسط عنده فيه فرد ، يقول سبحانه « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له » .

انهيار الاساس :

إن أساس فكرة الخطيئة قد انهار الآن ، ووضحت الحقيقة كالنور للعيان . نعم لقد أخطأ آدم ولكن الله سبحانه عفا عنه ، عصى آدم ربه وأكل وزوجته من الشجرة المحرمة ، ثم استيقظ ضميرهما وشعراً بمدى الخطأ الذى ارتكباه فندما على فعلهما ، واستغفرا الله وأنابا إليه فغفر لهما الغفور الرحيم ، ورضى عنهما واجتباهما .

يقول القرآن الكريم « وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه ، إنه هو التواب الرحيم » ، عفا الله عن آدم وحواء بمجرد توبتهما إليه واستغفارهما له ، ومن دلائل عفوه سبحانه أنه لم ينفذ فيهما حكم الموت الذى ورد على لسان الله فى التوراة عند قوله لآدم «إنك يوم تأكل من هذه الشجرة موتا تموت » . فلولا عفو الله عنهما ، لكان الجزاء الواجب توقيعه عليهما فى الحال هو الموت ، ولكن الله قابل التوب ، وغافر الذنب ، قبل توبتهما وعفا عنهما .

يقول القمص باسيليوس إسحق أن الله « لم ينفذ فى آدم وحواء حكم الموت كما تقضى العدالة لأن الله رحوم ، وإن كان فى نفس الوقت عادل ، ولهذا دبر ذبيحة الكفارة من دم الحيوان فافتداهما بكبشين ذبحهما الله فدية عنهما ، فالذبيحة الأولى للكفارة عقب السقوط مباشرة كانت من الكباش ، يؤيد هذا قول التوراة فى سفر التكوين ص ٣ « وصنع الرب الاله لآدم وإمرأته أقمصة من جلد وألبسهما » فهذه الأقمصة كانت من جلود الكباش التى

قدمت تكفيرا عنهما حتى لا ينفذ فيهما حكم الموت » (١) .

لقد عفا الله عن آدم وحواء ، ولو أنه عفو بقربان وذبيحة من الكباش إلا أنه عفو على أى حال ، وغفران وصفح ، عفا الله عن آدم وزوجه ، وجعلهما وأبناءهما خلفاءه سبحانه فى الأرض، وكرمهم ورفعهم مكانا عليا . استخلف الله آدم وأبناءه فى الأرض ، وجعل لهم الأرض ذلولا يأكلون من خيراتها ، وخلافة الأرض مرتبة عليا وتشريف عظيم استشرفت إليه الملائكة يقول سبحانه « وإذا قال ربك للملائكة أنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها » . لا فخلفاء الله ليسوا آثمين وليسوا مفسدين ، بل عباد مكرمين وبشر صالحين ، مفضلين عن كثير من المخلوقات ، منعمون فى الأرزاق والطيبات، يقول جل وعلا « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » (الاسراء ٧٠) .

ويقول سبحانه « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » (الأعراف) استرد الإنسان كرامته ، وعادت له حريته ، وبرىء آدم مما ألصق به من تهم ، ومما حاق بأبناءه من عيوب ، وعفا الله عنه، واستخلفه فى الأرض وكرمه وأبناءه وفضلهم على أعظم مخلوقاته .

ولقد ذهب بعض المفسرين إلى أن وضع آدم وحواء فى الجنة لم يكن إلا وضعا مؤقتا ، ذلك أن الجنة ثواب كبير ومكافأة

---

(١) باسيليوس اسحق : الحق ص ١٤٣ .

عظيمة ، ولكن الثواب والمكافأة لا تعطيان إلا لمن يعمل صالحا ؛ وبقاء آدم وحواء فى الجنة دون اختبار هوحصول على الثواب دون عمل ، لذلك فلم يكن وضع آدم فى الجنة إلا ليذوق حلاوتها ويستمتع بنعمها فترة حتى يعرف هو وأبناؤه ما ينتظرهم لو حسنت أعمالهم خلال فترة الاختبار التى سيقضونها على الأرض ، وحادث الأكل من الشجرة المحرمة لم يكن سببا لنزول آدم وحواء إلى الأرض بل هو تقدير قدره الحكيم العليم بعلمه المطلق ليحق عليهما تقديره تعالى بجعلهما خلفاء له فى الأرض ، فنزول آدم وحواء إلى الأرض كان تقديرا سماويا معلوما حتى لا يعطى الثواب والرضوان إلا لمن يستحقه بإيمانه وعمله فيعود إلى الجنة تفتح أبوابها لكل من كان جديرا بها ، مستحقا لسكناها . أحداث عملية كثيرة تثبت عفو الله عن آدم وتؤكد بهتان فكرة توارث الاثم ، وتؤيد مسئولية كل إنسان عن عمله . نذكر بعضها كأمثلة .

الحادث الأول هو التفرقة فى المعاملة بين ولدى آدم هابيل وقابيل ، ورضا الله عن الأول لصلاحه . وسخطه على الثانى لضلاله ، رضى الله عن هابيل وتقبل منه ذبيحته وسخط على قابيل ورفض قربانه ، وأعلن لهما أن الجزاء على قدر العمل . وأن صلاح هابيل سيدخله الجنة ، وإثم قابيل سيدخله النار . وكان هذا الاعلان من الله مثار حقد الثانى على الأول . ومبعث ضيق الشرير من الخير ، فحقد قابيل على هابيل وقتله ، فكان جزاؤه الجحيم ثمرة جرمه .

يحدثنا سفر التكوين عن هذه الحادثة فيقول « وكان هابيل

راعيا للغنم وكان قابيل عاملا فى الأرض ، وحدث بعد أيام أن قابيل قدم من أثمار الأرض قربانا للرب ، وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها ، فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ، ولكن إلى قابيل وقربانه لم ينظر ، فاغتاظ قابيل جداً وسقط وجهه فقال الرب لقابيل : لماذا اغتظت ، ولماذا سقط وجهك ، إن أحسنت فلا رفع ، وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها » (١) .

وفى القرآن الكريم « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قرّبا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال : لأقتلنك ، قال إنما يتقبل الله من المتقين ، لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العالمين ، إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال : ياويلتى أعجزت عن أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين » (المائدة ٢٧ — ٣١) .

فرق الله فى المعاملة وفى الجزاء بين ولدى آدم ، فى الدنيا والآخرة كل حسب عمله ، ولو كان الله لم يعف عن آدم كما يقولون ، أو كانت الخطيئة تتوارث كما يدعون ، لكان جزاء ولدى آدم وحواء واحداً ، ولما كان هناك مبرر للرضى عن هذا

---

(١) تــك ص ٤ : ٢ — ٧ .

وللسخط عن ذاك ، ولادخال هذا الجنة وحشر ذاك فى السعير ، وإنما هى العدالة الالهية لا تأخذ البرىء بجريرة الآثم وإنما تعطى لكل ذى حق حقه .

حادث آخر هو إغراق الكافرين فى عهد نوح وإبقاء الاتقياء الصالحين ، كثر الظلم على الأرض وفسد معظم الناس ، فغضب الله وبعث بطوفان من الماء غطى وجه الأرض ، وأغرق كل سكانها ، إلا الأبرار الصالحين ، نوحا والذين آمنوا معه .

تحدثنا التوراة عن ذلك فتقول « ورأى الله الارض فاذا هى فسدت ، إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض ، فقال الله لنوح : نهاية كل بشر قد أتت أمامى ، لأن الأرض إمتلأت ظلما منهم فها أنا مهلكهم مع الأرض ، أصنع لنفسك فلكا من خشب جفنير تجعل الفلك مساكن . . فها انا آت بطوفان من الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من السماء ، كل ما فى الأرض يموت . ولكن اقيم عهدى معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وإمرأتك ونساء بنيك معك . . فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان اربعين يوما على الأرض وتكاثرت المياه ورفعت الفلك ، فارتفع عن الأرض وتعاظمت المياه ، وتكاثرت جدا على الأرض . فمات كل ذى جسد كان يدب على الأرض . وتبقى نوح والذين معه فى الفلك فقط » (١) .

---

(١) سفر التكوين الاصحاحين ٦ ، ٧ .

محا الله كل الخطاة ولم يبق إلا البررة ، كل الأشرار والفجار قضى عليهم ولم يترك سوى الأتقياء ، يقول الرحمن لنوح « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون .. حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين إثنين وأهلك ، إلا من سبق عليه القول ومن آمن » (هود ٣٧) .

فرض جدلى ، إذا كانت خطيئة آدم ما زالت موجودة إلى عهد نوح ، فقد قضى الله على كل أشرار الأرض ، ولم يبق إلا الأبرار الصالحين المؤمنين بالله ، نوحا وأتباعه عمر بهم الأرض ، وجعلهم خلفاءه فيها ، تقول التوراة عن نوح « كان نوح رجلا باراً كاملا فى أجياله وسار نوح مع الله » . ذهب أبناء آدم الخاطىء وبقى أبناء نوح البار ، فأين آدم وأين خطيئته ، وأين وزرها العالق بالبشر .

يقول سبحانه عن نوح « لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم .. فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين » (الأعراف ٥٩ ، ٦٤) .

وما حدث أيام نوح حدث فى عهد لوط ، فقد كثرت شرور الناس وخاصة شرور قومه إذ اشتهر عنهم ممارسة الفحشاء والشذوذ الجنسى وكافة أنواع المعاصى وشاء سبحانه أن يهلك

البلدة بشرور أبنائها فأمطرت السماء ناراً أحرقت البلدة بسكانها، ولم ينج إلا لوط والمؤمنون معه ، حتى زوجة لوط نفسها كانت من المهلكين » (١) .

ويقول الرحمن عن لوط « ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ، فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » (٢) .

عفا الله عن آدم بعد ندمه واستغفاره ، وفرق في الجزاء بين ولديه هابيل وقابيل ، وأنجى الصالحين وأهلك الكافرين ، في عهد نوح ولوط ، وفي كل حين ، وحاسب كلا بحسب عمله .

الصلب والرسالة :

سؤال يلح على منذ البداية ، يندفع إلى رأسي فأستمهله ، ولكنه يعود ليطل برأسه ويفرض نفسه .

وهل كل ما فعله عيسى في حياته أنه صلب ؟ وهل جاء عيسى فقط ليصلب بفرض صحة الرواية ؟ وهل كل رسالة عيسى للناس هي الصلب والكفارة ؟ .

لو كان هذا صحيحا لنزلنا بالمسيح عيسى إلى مرتبة

---

(١) سفر التكوين الاصحاحين ١٨ ، ١٩ .
(٢) سورة الاعراف : ٨٠ — ٨٤ .

لا يرضاها له أى مؤمن بالله ، فكم من الأنبياء والأولياء قبل عيسى ومعه وبعده ، صلبوا وعذبوا بلا ذنب ولا خطأ ، ولم يقدم هذا أو يؤخر فى موضوع رسالتهم . فما من أحد من الناس عاهد الله على الخلود ، وما من أحد من الناس خبره الله كيف يموت ، فالموت حق على العباد يدركهم فى أى لحظة وبأى طريقة ، والأنبياء عباد كسائر الناس ليسوا خالدين ، يقول الرحمن لخاتم المرسلين « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » ، ويقول له أيضاً « إنك ميت وإنهم ميتون » (الزمر ٢٠) .

صلب ثلاثة أحدهم يزعمون أنه عيسى ، والآخران لصان فما الفرق ؟ إن الفرق يكمن فى مبادىء هذا ومبادىء هذين ، وفى أعمال هذا وأعمال هذين ، فى رسالة هذا ورسالة هذين ، إن قيمة عيسى ليس فى أنه صلب أو لم يصلب وإنما قيمته وأهميته فى رسالته العظيمة التى أرسله الله بها لهداية الناس . إن البشر فى احتياج إلى عيسى من أجل رسالته وتعاليمه السامية ، فذبح عيسى — على فرض حدوثه — حادث عادى يتكرر كل يوم ويحدث للأبرار والأشرار ، ولكن العبرة والقيمة بالرسالة ، جاء عيسى ليحمل للناس رسالة الهداية والخير ، وليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وليدعوهم إلى عبادة الاله الواحد ، وحادث صلبه على فرض حدوثه ، لا يزيد فى هذه التعاليم العظيمة ولا ينقص منها ، فالتعاليم باقية والرسالة محفوظة ، وهى التى تخبر عن عيسى وحكمته وعظمته ، لقد جاء عيسى يدعو إلى الحب والايثار وإلى الشفقة والرحمة ، وإلى اتباع الخير وترك المعاصى ،

وسواء صلب أو لم يصلب فهذا لا يقدم ولا يؤخر فى تعاليمه ، فعيسى ليس محتاجا إلى دموعنا نذرفها على موته ، ولا لقلوبنا تتفطر حزنا على مأساته ، فعيسى أكبر من ذلك وأجل ، وحادث الصلب منع هذا المعلم العظيم من أن يستمر فى رسالته ومن أن يكمل ما بدأه ، والراجح أنه لو استمر مدة أطول من السنوات الثلاث التى قضاها يدعو إلى الله لأمد العقائد بزاد عظيم ولاستمر تدفق فيض تعاليمه القيمة ، ولطبق تعاليمه النظرية تطبيقا عمليا ومزج العلم بالعمل ، ودعم المبادىء بالتجارب ، ولأثرت المسيحية بمكوثه إثراء كبيراً .

يحدثنا القديس المسيحى توما الأكوينى عن شكوكه فى صحة روايات الصلب فيقول « توجد آراء مختلفة ، فيزعم البعض أن ابن الله (عيسى) كان يتجسد حتى ولو لم يخطىء آدم ، ويرى البعض الآخر خلاف ذلك ، ويبدو أنه من الأصوب الانتماء إلى الرأى الثانى ، فان ما هو متعلق بارادة الله وحدها ليس لنا أن نعرفه إلا بالمقدار الذى يكشفه لنا الله بواسطة كتبه المقدسة ، والحال أن الكتاب يقول لنا دائما أن خطيئة الإنسان الأول هى الدافع لتجسد ابن الله ، وعليه يظهر أن هذا السر إنما رتبه الله كدواء للخطيئة بحيث أنه لولا الخطيئة لما كان التجسد » (١) .

صلب عيسى أو قتل أو مات ، فهو على أى الأحوال قد ذهب ولم تبق إلا رسالته ، ومات محمد أو قتل ، فقد ذهب أيضاً ولم تبق سوى رسالته ، يقول سبحانه « وما محمدٌ إلا رسولٌ قد

(١) كتاب فرنسيس فربيه : التجسد — تعريب لويس أبادير ص ١٣٤ وبعدها .

خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً » (آل عمران) .

هذا وذاك لا ينقص ولا يزيد ، ولا يبدل ولا يغير فى رسالة عيسى أو محمد أو غيرهم من الرسل الكرام ، فعلى أى وضع كانت نهاية الرسول على الأرض ، فهذا لا يضيف أو يحذف من رسالته وبلاغه ، فالرسل إلى زوال والحق باق يحدث الأجيال ، وعيسى ومحمد وباقى الرسل ، ليس أحد منهم موجودا الآن ليحدثنا عن مضمون رسالته ومفهوم تعاليمه ، لقد ذهبوا جميعا ولم تبق إلا تعاليم رب العالمين ، التى حملها هؤلاء الرسل إلى البشر ، تعاليم غالية هى الباقية واتباعها هو مفتاح الخير والسعادة فى الدارين .

رأى الاسلام :

قبل الحديث عن رأى الإسلام فى صلب المسيح يلزمنا الرجوع إلى فكرة المخلص الذى كان عليها رجاء بنى إسرائيل وقت ميلاد عيسى وقبله بزمن طويل ، عندما كانت بلادهم مستعمرة رومانية صغيرة ، يذيق المحتلون أهلها الأهوال والوبال ، ويتطلع الشعب المستعبد إلى بطل يخرج من بين الصفوف ويقودهم إلى التحرر ويعيد إليهم أمجاد داود وسليمان ، ويخضع لسلطانهم الأمم المجاورة ، ويتنبأ الأنبياء القدامى عن هذا البطل المخلص فيقول عنه أرميا « فى أيامه يخلص يهوذا ويسكن إسرائيل آمنا (١) » .

---

(١) سفر أرميا ص ٢٢ : ٦ .

ويقول ميخا مناجيا مدينة داود المتوقع أن يخرج منها البطل الموعود « أما أنت يا بيت لحم وأنت صغيرة أنت تكونى بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لى الذى يكون متسلطا على إسرائيل » (١) .

فرح بنو إسرائيل بعيسى الذى أتى ليخلصهم من العبودية ، وليخضع الأمم والشعوب لسلطانهم وأخذوا يعدون العدة للمناداة به قائداً لهم وزعيما ، وتنصيبه ملكا عليهم ليقوم بتنظيم صفوفهم وقيادتهم فى حرب التحرير ، وكانوا ينادونه كثيراً بلقب « ملك اليهود » وقد ظهر ذلك واضحا أيضاً فى الاستقبال الكبير الذى استقبله به أهل أورشليم العاصمة عند دخوله إليها قبل الفصح اليهودى ، إذ فرشوا ملابسهم فى طريق موكبه وأخذوا يلوحون له بالرياحين والأغصان مرددين « السلام يا ملك اليهود » ، « تبارك الآتى باسم الرب ».

بل لقد عزم اليهود على تنصيب عيسى رسميا ملكا عليهم ، ولكنه رفض العرض وهرب من الاحتفال ، يقول الحوارى يوحنا « وأما يسوع فاذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا إنصرف أيضا إلى الجبل وحده » (٢) ؟

أتوا إليه مرة يستفتونه فى شأن الضرائب التى يثقلهم بها الرومان ، وتوهموا أنه سيدعوهم إلى الامتناع عن تأديتها عصيانا وتمردا على المغتصبين ، ولكنه أمرهم بدفع الجزية

---

(١) سفر ميخا ص ٥ : ٢ .
(٢) انجيل يوحنا ص ٦ : ١٥ .

والمكوس لقيصر وبالخضوع لكافة السلاطين « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » .

وتحطمت آمال اليهود فى عيسى ، وذابت أحلامهم فى الخلاص على يديه ، وفى استعادة المجد الغابر ، وكانت صدمتهم الكبيرة فيه كافية لتحويل الحب إلى كراهية .

يصور لنا بترسون سميث مدى الحقد والمقت الذى شعر به بنو إسرائيل تجاه عيسى بعد صدمتهم فيه ، متحدثا عن يهوذا تلميذ عيسى الذى وشى به لشعوره بنفس المرارة تجاه من وضعوا عليه كل آمالهم فحطمها ، يقول سميث « الحق ان يهوذا لم يكن مجرد محب للمال ساع إليه ، ولثلاث سنوات خلت كان شابا يهوديا نقيا نابها ، شغف بدينه وكبرت آماله فى (المسيح المنتظر) ، وترك كل شىء وتبع المسيح واستمر يسير معه بعد ما تركه الآخرون ولم يعودوا يتبعونه ، واكبر الظن أن مطامعه التى كانت فى أمان خابت وملأ خيبتها قلبه مرارة ، ساقته إلى النفرة من المسيح فالعداوة له ثم الخيانة»(١)

كره بنو إسرائيل عيسى وطاردوه وحاربوه ، وحاولوا قتله ولكن الله سبحانه لم يرد لعبده الصالح الهلاك بأيدى سفاكى الشعوب ، فهرب عيسى منهم ورفعه ربه إليه ، ووضع شبهه على آخر ، صلب بدلا منه .

المصلوب خائن عيسى :

يأتى القرآن ليعلن هذه الحقيقة ، التى رفعت قدر

---

(١) بترسون سميث : حياة يسوع ص ٢٨٧ وبعدها .

عيسى وردت عنه الشبهات ، الحقيقة التى تؤكد أن الله سبحانه لم يرض لرسوله الكريم عيسى أن يذبح بأيدى حثالة الشعوب وأنجس الأمم ، بل لقد هيأ له الاعزاز والتكريم ورد عنه الكيد والأذى ، وكف عنه الاعتداء ورفعه إليه ، وجعل المصير الدون الذى أرادوه لنبيه هو مصير تلميذه الخائن الذى وشى به عند أعدائه ، فرد الله خنجر الخائن إلى صدره وأغمد نصله فى قلبه ، وأماته الميتة التى أرادها لمعلمه العظيم .

ويذكر القرآن استجابة الله لتضرعات نبيه ورفعه إلى السماء وتطهيره من الكافرين ، وإنقاذه من الأعداء والكارهين ، وجعل مكانه فى العلا بين المقربين ، يقول جل وعلا « إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين إتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » . (آل عمران ٥٤ — ٥٥) .

هذا هو القرآن يكذب ادعاءات أبناء صهيون بصلب عيسى ، ويفند افتراءاتهم ببغاء أمه ، ويؤكد أن عيسى ابن البتول لم يذبح بأيدى سفاحى الشعوب ، بل رفعه الله إليه ، وألقى شبهه على تلميذه الخائن ، فعذب وصلب بدلا من معلمه واليهود يظنونه عدوهم عيسى ، تصور بنو إسرائيل أنهم قتلوا عيسى رسول الله ، ولكنهم قتلوا الخائن يهوذا الذى وشى بمعلمه ، فأذاقه الله جزاء خيانته وألقاه فى الحفرة التى حفرها لسيده ، وأخذه أصحابه الذين وشى إليهم فعذبوه وصلبوه مع اللصين ظانين أنه عيسى ، وعيسى جالس

فى الملكوت يتنعم مع الملائكة والصديقين ، يقول علام الغيوب داحضا ادعاءات اليهود والكفار « وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما » (النساء ١٥٧ — ١٥٨) .

هذه الحقيقة التى أعلنها القرآن فى وضوح والتى رفع بها قدر عيسى وأعلى مكانته ، ليست بدعا أتى به القرآن ، وليست جديدة على أصحاب الضمير والوجدان ، فهذا الذى بينه القرآن وجلاه ، إنما تؤيده فيه التوراة ، بل ونلمس فى الأناجيل نفسها صداه .

تحدثنا التوراة أن الله استجاب لتضرعات مسيحه وخلصه من أعدائه وأسقطهم على الأرض عندما أتوا للقبض عليه ورفعه هو إلى السماء ، يترنم داود فى مزاميره بقوله « الآن عرفت أن الرب مخلص مسيحه يستجيبه من سماء قدسه بجبروت خلاص يمينه » (مزمور ٢٠) .

هذا الذى يقوله داود يطابق ما ورد فى الأناجيل عن لحظة إتيان اليهود للقبض على المسيح عيسى فالأناجيل تقرر أنه عندما تحدث إليهم وعرفهم بنفسه ، رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض ، يقول يوحنا « فلما قال لهم إنى أنا هو رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض »(١) وفى هذه اللحظة

---

(١) انجيل يوحنا ١٨ : ٦

رفع الله نبيه إليه وألقى شبهه على تلميذه الخائن ، فلما أفاق اليهود من سقطتهم لم يجدوا أمامهم سوى يهوذا فساقوه إلى الذبح .

هذه الحقيقة نلمس صداها فى الأناجيل ، تحدثنا الأناجيل عن قدرة عيسى العجيبة على التخفى وعلى تغيير شكله وهيئته بحيث أن كثيرين من أصدقائه بل وتلاميذه كانوا لا يستطيعون معرفته ، يقول الحوارى لوقا عن إحدى المرات التى لم يستطع فيها إثنان من المقربين لعيسى التعرف عليه رغم مقابلتهما له فى الطريق ، وتعمد عيسى السير معهما والحديث إليهما دون أن يكتشفا شخصيته ، يقول لوقا : « وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب إليهما يسوع نفسه وكان يمشى معهما ، ولكن أمسكت عيونهما عن معرفته »(١) .

ليس هذا فحسب بل إن الأناجيل تورد كثيراً من المحاولات المتعددة التى حاول فيها اليهود القبض على عيسى أو النيل منه ، ولكنه كان فى كل مرة رغم التفافهم حوله واقترابهم منه يختفى ويهرب منهم بأعجوبة ، ويمر من بينهم كالشهاب ، ويتلاشى فى وسطهم كالملح المذاب ، ولعل هذه أيضا إحدى المعجزات التى أيد الله بها نبيه لحمايته من أعدائه وكف أذاهم عنه .

تحدثنا الحوارى يوحنا عن بعض المرات التى حاول اليهود فيها إمساك عيسى فاشلين ، والتى تجاسروا فيها على إلقاء الأيدى على رسول الرحمن فردوا مخذولين ، فى إحدى هذه

---

(١) انجيل لوقا ص ٢٤ : ١٣ — ١٦

المرات كان عيسى يتحدث فى الهيكل عن الله الذى أرسله بتعاليم الهدى والرشاد ، يقول يوحنا « فنادى يسوع وهو يعلم فى الهيكل قائلا : تعرفوننى وتعرفون من أين أنا ومن نفسى لم آت ، بل الذى أرسلنى هو حق الذى أنتم لستم تعرفونه ، أنا أعرفه لأنى منه وهو أرسلنى ؟ فطلبوا أن يمسكوه ولم يلق أحد يدا عليه » (١) .

ومرة أخرى حاول فيها أعداء الحق إسكات صوت الحق ، فردوا على أعقابهم خاسرين ، فبينما كان عيسى يخطب فى الجموع فى اليوم السابق على عيد الفصح اليهودى ، اختلف الناس حوله أهو نبى حقا أم دعى ؟ يقول يوحنا « فحدث انشقاق فى الجمع بسببه ، وكان قوم منهم يريدون وأن يمسكوه لكن لم يلق أحد عليه الأيادى (٢) » .

ومرة ثالثة جرت فيها محادثة بين عيسى واليهود فى الهيكل اختلفت الآراء بينه وبينهم فانقضوا عليه وأرادوا قتله ، وأمسكوا بالحجارة ليرجموه ، ولكنه اختفى من بينهم دون أن يشعروا ، يقول يوحنا « فرفعوا حجارة ليرجموه ، أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازا فى وسطهم ومضى هكذا (٣) » .

وفى مرة رابعة اشتد الجدل بينه وبين اليهود ، وحمى وطيش المناقشة « فطلبوا أيضا أن يمسكوه فخرج من أيديهم » (٤) .

---

(١) يو ٧ : ٢٧ — ٣٠
(٢) يو ١٨ : ٤٣ — ٤٤ .
(٣) يو ٨ : ٥٩
(٤) يو ١٠ : ٢٩ .

وخامسة . . وسادسة . . ومرات . . ومرات . . بسط الله فيها حمايته على رسوله الأمين ، ورد عنه كيد المعتدين ، وكف عنه الأذى ، ومنع عنه السوء ، وأحاطه بالرعاية والعناية والتكريم . يقول سبحانه لرسوله عيسى « وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات ، فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين (١) » .

يحدثنا الحوارى برنابا فى إنجيله عن الحقيقة كلها فى جلاء ووضوح ، فيورد حديث عيسى عن إخبار الله له بخيانة تلميذه يهوذا ، وبأنه سبحانه سينقذه من أيدى أعدائه وسيجعل الموت مصير الخائن الذى وشى به ، يقول عيسى لتلميذه برنابا « إعلم يابرنابا أنه سيبيعنى أحد تلاميذى بثلاثين قطعة من نقود ، وأنى على يقين من أن من يبيعنى يقتل باسمى ، لأن الله سيبعدنى من الأرض وسيغير منظر الخائن حتى يظنه كل أحد إياى » .

ويستطرد برنابا شارحا الكيفية التى رفع بها عيسى إلى السماء عندما جاء يهوذا مع الجنود للقبض عليه ، فأنقذ الله رسوله من أيديهم ، وجرع التلميذ الفاسد الكأس التى أعدها لمعلمه ، يقول برنابا « ولما دنت الجنود مع يهوذا من المحل الذى كان فيه يسوع ، سمع يسوع دنو جمع غفير ، وكان التلاميذ الأحد عشر نياما ، فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب ، فحملوه ووضعوه

(١) سورة المائدة ١٤ .

في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تسبح الله ». ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع ، فأتى الله العجيب بأمر عجيب ، فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه ، فصار شبيها بيسوع حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع ، أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم ، لذلك تعجبنا وأجبنا : أنت يا سيدى معلمنا ، أنسيتنا الآن ؟ ودخل الجنود فأخذوا يهوذا وأوثقوه ظانين أنه يسوع » .

ويؤكد القرآن الحقيقة : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ، ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما » . (سورة النساء ١٥٧) .

هكذا أنقذ الله رسوله عيسى عليه السلام وأعز جانبه ورفع شأنه ، وجرع تلميذه الخائن جزاء خيانته ، فألقى عليه صورة عيسى وصوته ، وجعله يموت بأيدى أصدقائه ، أما عيسى الأمين فقد رفعه الله إلى السماء ، ووضعه مع الصديقين والأبرار ، أنقذ الله رسوله عيسى من الصلب كما أنقذ رسوله المصطفى من أيدى المشركين ، وخذل محاولاتهم الآثمة لايذائه وقتله ، ونصره عليهم أجمعين ، ورفع الله رسوله عيسى إلى السماء كما رفع من قبله رسله الكرام إدريس واليشع والياس وغيرهم من الأنبياء الصادقين .

وسبحان ناصر الحق ، وزاهق الباطل ، ومعلى شأن الصالحين « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » .

الفصل السادس

تأليه عيسى

طبيعة الاله عيسى :

قالوا بتأليه عيسى ، ولم يتفقوا على كنه هذا التأليه ، وعلى طبيعة هذا الإنسان المؤله . . هل هو من طبيعة إلهية خالصة ، أم من طبيعتين إحداهما إلهية والأخرى إنسانية ؟ وهل امتزجت هاتان الطبيعتان فى عيسى أم احتفظت كل منهما بخواصها ومزاياها ؟ وما نتيجة هذا الامتزاج على فرض حدوثه ؟ هل تمخض عن طبيعة نصفها إلهى ونصفها إنسانى أم تولدت عنه طبيعة مغايرة تماما عن كلا الطبيعتين الالهية والإنسانية ؟ .

المعجزة والايمـــان :

أسئلة كثيرة حول عيسى جرها القول بتأليهه ، أسئلة اختلف فى الاجابة عليها دعاة التأليه أنفسهم ، وانقسموا فيما بينهم شيعا وأحزابا ، وتناثروا مذاهب وطوائف .

تأليـــه العظماء :

وما فعله الناس مع عيسى فعلوه مع غيره من الأنبياء والحكماء والقادة والزعماء ، فعلوه مع بوذا فى الهند ، وفعلوه مع الحكيم كونفوشيوس فى الصين ومع زرادشت فى فارس ،

ومع برومثيوس فى اليونان ، ومع الآلاف غيرهم فى مختلف الأزمان والبقاع ».

وحتى فى الإسلام نفسه ، دين الوحدانية الخالص ، فاننا نلحظ فيه محاولات قتلت فى مهدها لتأليه إمام الموحدين ، محمد عليه الصلاةوالسلام ، ولتأليه أتباعه من بعده .

يروى قيس بن سعد « أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فقلت : رسول الله أحق أن يسجد له . قال : فأتيت النبي فقلت : إنى أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم فأنت يارسول الله أحق أن نسجد لك ، قال : أرأيت لو مررت بقبرى ، أكنت تسجد له ؟ قال : قلت « لا » قال : « فلا تفعلوا » .

قال له أحد أصحابه يوما : أنت سيدنا وذو الطول علينا ، فرد الرسول غاضبا : السيد الله ، لست سيدا لأحد ، لا يستهوينكم الشيطان ، إنى لا أريد أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنيها الله تعالى ، فأنا عبد الله ورسوله .

وكان عليه السلام ينهى أصحابه كثيراً عن اطراءه أومدحه ويقول لهم « لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم » .

ومع كل هذه التحذيرات ، فحين مات عليه السلام ، لم يصدق الناس ، حتى عمر بن الخطاب أنكر الخبر وهم بقتل

من نقلوه إليه ، لولا أن تلا أبو بكر على الناس ما تركه لهم محمد قبل موته ينطق ببشريته ، كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل ، « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتِل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيْه فلن يضرَّ الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » (١) .

وهذا على بن أبى طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته ، الذى بلغ من علمه وحكمته أن قال الرسول عنه « أنا خزانة العلم وعلى بابها » ، على هذا أله الناس فى حياته ، وألهوه بعد موته ، وما زال بعضهم يؤلهه حتى الآن .

ظهر منهم قوم ممن دخلوا الإسلام ادعوا تأليهه ، فلما علم بأمرهم دعاهم إليه وقال لهم : ويلكم قالوا : أنت ربنا وخالقنا ورازقنا ، قال : ويلكم ، إنما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون ، إن أطعت الله أثابنى إن شاء ، وإن عصيته خشيت أن يعذبنى فأتقوا وارجعوا فأبوا ، ولما أصروا على رأيهم أمر بطرحهم فى النار . ومع ذلك فقد بقى بعد موت على من يدعى بتأليهه ، فهذه طائفة النصيرية تدعى أن الله قد حل فى جسد على بن أبى طالب وتكلم على لسانه ، وما زال غلاة الشيعة حتى يومنا هذا يسلخون عليا عن جنس البشر ، نقول حتى يومنا هذا ، فى عصر العلم والمدنية ، وفى زمن الصواريخ والأقمار الصناعية ما زال الناس يؤلهون العظماء والأفذاذ ، والزعماء والقادة

---

(١) آل عمران ١٤٤ .

ويجعلونهم أربابا من دون الله ، فهذا إمبراطور اليابان يدعونه ابن السماء ويؤلهونه، وهذا زعيم الصين السابق ماوتسي تونج وصل حب أتباعه له وإيمانهم به درجة التقديس ،كانوا يقفون طول الليل أمام قصره حتى بزوغ الفجر ينتظرون خروجه منيرا مع ضوء الشمس ، ويحملون تعاليمه فى كتابه الأحمر فى غدوهم ورواحهم ، وفى ملابسهم ومنازلهم وأعمالهم ، أكثر مما يحمل أتباع الله كتبهم المقدسة .

يقول عز وجل « من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون ، ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون (١) » .

تعـلات التأليـه :

يتعلل دعاة تأليه عيسى ببعض حوادث وألفاظ يقررون أنها هي التي دعتهم إلى إبعاد عيسى عن دائرة البشر ورفعه إلى مرتبة الآلهة ، ونحاول فى هذه الفقرة إيراد هذه الأسباب ، ومناقشتها ليتضح لنا مدى نصيبها من الصحة .

الميلاد العذراوى :

كان ميلاد عيسى من عذراء منفذا للقول بتأليهه ، فمادام أنه قد ولد دون أب ، فلا بد أن الله أبوه ، وأنه ليس من جنس الناس .

---

(١) سورة الاعراف ١٧٨ — ١٧٩ .

يقول الحوارى لوقا على لسان جبريل عندما بشر مريم بغلامها الزكى « الروح القدس تحل عليك وقوة العلى تظلك فلذلك المولود منك يدعى ابن الله » (١) .

ويقول يس منصور « لو لم يولد المسيح (عيسى) من عذراء لكان مجرد إنسان . . فابن الله الأزلى يليق به فى حالة تأنسه أن يولد ميلادا عذراويا » (٢) .

هذا الميلاد العذراوى لعيسى رغم إعجازه وأهميته فلا يقاس بشىء فى جانب القدرة الالهية ولا يرفع عيسى عن مرتبة الآدميين ، ذلك أن خلق عيسى من أنثى دون ذكر إنما هو إتمام لدورة القدرة الالهية فى خلق الإنسان ، فالإنسان الأول من أين جاء ؟ يقول سبحانه « أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » ، آدم عليه السلام خلق من العدم دون ذكر ولا أنثى ، وحواء خلقت من ذكر دون أنثى ، والإنسان العادى خلق من ذكر وأنثى ، ثم تمت دورة القدرة الالهية بخلق عيسى الإنسان من أنثى دون ذكر فهذه صور ميلاد البشر ، وكل صورة منها تناظر الأخرى فى الدلالة على قدرة الخالق العظيم ، ليس منها ما هو هين وما هو صعب فى جانب الله .

بل إن خلق الإنسان العادى من ذكر وأنثى لا يقل عظمة

---

(١) انجيل لوقا ص ١ : ٣٥ .
(٢) كتاب بيـــان الحـــق جـ ٢ ص ١٢٤ .

عن باقى معجزات الخلق ، ولا يغض من شعورنا باعجازها سوى تكرارها اليومى ، فهذه القدرة التى تخلق النطفة وتودعها رحم الأم ، وتنتقل بها إلى علقة إلى مضغة إلى عظام ثم لحم يكسوها ، إلى جنين فى صورة إنسان ذو جوارح . يقول سبحانه « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فجعلنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (المؤمنون ١٢ — ١٤) .

كل دور من هذه الأدوار فى المولود الواحد تعجز الإنسانية كلها عن أن تقوم له . « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له . . إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » (الحج ٧٣) .

أما عن خلق حواء من ذكر دون أنثى ، فهى أدخل فى باب القدرة من خلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، فالأنثى بطبيعتها وبحكم تكوينها الجسدى قد خلقت للحمل والولادة ، ومن المحتمل جدا أن تحمل المرأة لأو هى الأسباب طبيعية أو صناعية ، أما الرجل فليس من طبيعته الحمل والولادة وليس فى تكوينه إنجاب الأطفال ؟

قلنا خلق حواء المرأة وخلق عيسى الطفل ، وهنا معجز أخرى فى خلق حواء ، لقد خلقت حواء إمرأة كامل التكوين ، نامية الجسم والعقل ولم تمر بالأدوار التى يمر ب الأطفال لتنمو أجسادهم ، أما عيسى فقد خلق طفلا رضيع تربى فى حجر أمه حتى كبر مع الأيام والسنين .

أما آدم عليه السلام ، فمعجزة خلقه رجلا كاملا من العدم ، من تراب الأرض دون ذكر ولا أنثى أدخل فى باب القدرة الالهية من خلق عيسى من غير أب ، تحدثنا التوراة عن خلق آدم فتقول « وجبل الرب الاله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حية » (١) .

من التراب صار آدم فى لحظة رجلا كاملا ، ولم يتوسط فى خلقه بشر من أى نوع ، ولكن عيسى بمساعدة أمه احتاج لتسعة أشهر ظل فى بطنها لكى يخرج طفلا ، واحتاج إلى ثلاثين سنة عاشها على الأرض ليصير رجلا كأبيه آدم .

فاذا كان عيسى الإنسان قد صار ابن الله لولادته من أم دون أب ، فآدم الإنسان الذى وجد دون أب ولا أم يكون هو الله نفسه . . ولكن خلق هذا وذاك ، وولادة هذه وتلك لا يقاس بشىء فى جانب قدرة الله وعظمته الذى إذا قضى أمراً فانما يقول له كن فيكون .

يقول تبارك وتعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (آل عمران ٥٩) .

معجزات عيسى :

كانت معجزات عيسى بابا آخر نفذت منه دعوى القول بتأليهه

---

(١) سفر التكوين ص ٢ : ٧ .

فما دام يشفى المرضى ويحيي الموتى ، فهو الله نفسه أتى من السماء ونزل إلى الأرض ليعرض على الناس قدرات الآلهة .

يروى لنا الحوارى برنابا ما فعله بعض السذج بتحريض الوثنيين بعد قيام عيسى باحياء ابن أرملة نايين من الموت ، يقول برنابا فى إنجيله « وكان جيش الرومان فى ذلك الوقت فى اليهودية لأن بلادنا كانت خاضعة لهم بسبب خطايا أسلافنا ، وكانت عادة الرومان أن يدعوا كل من فعل شيئا جديداً فيه نفع للشعب إلها ويعبدوه ، فلما كان بعض هؤلاء الجنود فى نايين وبخوا واحداً بعد الآخر قائلين : لقد زاركم اليوم أحد آلهتكم وأنتم لا تكترثون له ، حقا لو زارتنا آلهتنا لأعطيناهم كل مالنا ، فوسوس الشيطان بهذا الأسلوب من الكلام حتى أنه أثار شغبا بين شعب نايين فقال قوم منهم : إن الذى زارنا هو إلهنا ، وقال آخرون : إن الله لا يرى ، فلم يره أحد ولا موسى عبده فليس هو الله بل بالحرى ابنه ، وقال آخرون : إنه ليس الله ولا ابن الله لأنه ليس لله جسد بل هو نبي عظيم » .

وما حدث لعيسى من أجل معجزاته ، حدث لتابعين صغيرين من أتباعه هما بولس وبرنابا ، عندما شفى بولس رجلا عاجز الرجلين فى بلدة لسترة ، فقد اعتقد البسطاء وعباد الأوثان أن بولس وبرنابا إلهين من وارد السماء ، فأطلقوا عليهما أسماء الآلهة وأقاموا لهما المهرجانات والاحتفالات ، ووضعوا أكاليل الزهور على أبواب المدينة ، وأحضروا الكباش والثيران

يذبحونها للإلهين بولس وبرنابا، يقول كتاب الأعمال « فالجموع لما رأوا ما فعل بولس رفعوا صوتهم قائلين : إن الآلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا فكانوا يدعون برنابا زفس وبولس هرمس إذ كان هو المتقدم فى الكلام ، فأتى كاهن زفس الذى كان قدام المدينة بثيران وأكاليل عند الأبواب مع الجموع وكان يريد أن يذبح » (١) .

وتأليه ذوى المعجزات لم يقتصر على عيسى وتلاميذه ولم يبدأ بهم ولم ينته بعدهم ، فقد رأينا كم أله الناس الأنبياء وكم صنعوا الأوثان للعظماء، قبل عيسى ومعه وبعده ، وفى كافة الأزمان والأرجاء .

وتأليه البشر الذين صنعوا المعجزات نسيان لأصل المعجزات ومجريها وصاحبها ، فعيسى وغيره من الأنبياء الذين ماثلوه فى معجزاته ، هؤلاء جميعا ليسوا إلا آلات وأدوات فى يد الرحمن سخرهم لاظهار المعجزات واستخدمهم لاتيان الخوارق ، وهو سبحانه صاحب المعجزات يعطى منها ما يشاء لمن يشاء أنى يشاء ، ليصدق الناس الرسل ويؤمنوا بالأنبياء .

وليست المعجزات على فرض صحتها ونسبتها لله وليس للمردة والشياطين ، إلا وسيلة مناسبة لزمانها لحمل الناس على الايمان.

(١) أعمال الرسل ص ١٤ : ١١ — ١٣ .

يقول سبحانه « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » (الأنعام ١٠٩) .

لفظ اله :

يطلق لفظ « إله » فى الكتب المقدسة على بعض الأنبياء على سبيل المجاز تعبيراً عن قربهم من الله كسائر أبناء الله الصالحين والبشر المؤمنين .

يقول عيسى موضحا المجاز « إنما بنوة الله بالأعمال » .

ويقول لأتباعه عند صعوده إلى السماء وإنقاذه من أعدائه « إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم » (١) .

نعم فبنوة الله ليست باللحم والدم ، وليست بالتناسل والتوالد وإنما بالعمل الصالح ، وكلما صدق الإيمان وثبت اليقين وحسنت النيات والأعمال ، كلما زاد اقتراب الإنسان من خالقه وصار قريبا من ربه كأنه إبنه ، فنحن أبناء الله وصنع يديه .

وإطلاق لفظ إله على الأناسى ورد كثيراً فى التوراة ، فقد أطلق على موسى عليه السلام ، كما أطلق على حكام

---

(١) انجيل يوحنا ص ٢٠ : ١٨ .

وقضاة بنى إسرائيل ، وعلى غيرهم من الناس ، وكان يعنى فى نظرهم تكريم الشخص الموصوف به باعتباره قريبا من الله ، عاملا بوصاياه ، ودليلا على القوة والرفعة والعلو .

نرى فى الاصحاح السابع من سفر الخروج محادثة بين الله ونبيه موسى ، يعلن فيها سبحانه لنبيه أنه جعله إلها لفرعون ، يقول سفر الخروج « فقال الرب لموسى : أنظر أنا جعلتك إلها لفرعون ، وهارون أخوك يكون نبيك » .

ويعود سفر الخروج فيقرر أن الله قد جعل موسى إلها لشقيقه هارون أيضا .

يورد السفر فى الاصحاح الرابع منه حديثا على لسان الله موجها إلى موسى عن شقيقه هارون فيقول « هو يكلم الشعب عنك ويكون لك فما ، وأنت تكون له إلها » .

هنا نجد أن موسى قد صار إلها لفرعون وإلها أيضاً لشقيقه هارون ، وهذا يعنى تفوقه وتسلطه على فرعون وهارون ، فالله أعطى لموسى القدرة على التسلط والتفوق على فرعون كما جعله أيضاً سيداً لأخيه هارون ، يأمره فيأتمر وينهاه فينتهى ، وكأنه إله وسيد لفرعون وهارون ، ليس هذا فقط ، بل إن لفظ إله أطلق أيضا على البشر العاديين من القضاة والحكام الاسرائيليين فداود عليه السلام يسمى القضاة آلهة ، يقول داود « الله قائم فى مجمع الله : فى وسط الآلهة يقضى » (١) .

---

(١) مز ٨٢ : ١ .

وهذا يعنى أن الله موجود وحاضر فى محكمة العدل ووسط مجلس الحكم ، وأن ما ينطق به القضاة من أحكام إنما هو كلام الله وحكمه ، وكأن القضاة أنفسهم آلهة ، ينطقون بحكم الله وينفذون مشيئته .

ومما يؤكد أن اطلاق لفظ الآلهة على الناس كان من قبيل المجاز المطلق ، كاطلاق الألقاب الفخرية والأسماء الشرفية على المبرزين بسبب صفاتهم الكريمة وأعمالهم الهامة بحيث إذا تغيرت صفاتهم أو انحطت أعمالهم سحب اللقب وسقط الشرف يؤيد هذا ما حدث عند انحراف بعض هؤلاء الآلهة — قضاة إسرائيل — إذ أنهم بعد أن كانوا يقضون بين الناس بالحق وينفذون تعاليم الله ، انحرفوا عن جادة الصواب ، ومالوا مع الأحساب والأنساب ، وقبلوا الرشوة والعطايا من الناس ، مما أغضب داود النبى عليهم ، فأخبرهم بحكم الله بخلع هذه الألقاب الشرفية عنهم ، وبأنهم لا يستحقون أن يتصفوا بصفات الآلهة أو أبناء الله ، بل يستحقون السقوط والخزى جزاء انحرافهم وسوء أعمالهم ، يقول لهم داود : « أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلى كلكم ، لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون » (١) .

وهذه الآية الأخيرة « أنا قلت إنكم آلهة » اقتبسها عيسى من التوراة عند قيامه بالرد على اليهود عندما أمسكوا حجارة ليرجموه لادعائه بنوة الله ، قال اليهود لعيسى « لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف ، فانك وأنت إنسان تجعل نفسك إلها » (٢) .

---

(١) مز ٨٢ : ٦ — ٧ .

(٢) يو ١٠ : ٣١ — ٣٣ .

ويرد عيسى على اليهود موضحا لهم المجاز ، ومؤكدا أنه فى هذا يشبه نفسه بحكامهم وقضاتهم الآلهة الذين ينطقون بحكم الله ، فهو أيضا إنسان حامل كلمة الله منفذ لتعاليمه كأحد أبنائه ، يقول يوحنا عن هذه المحادثة « أجابهم يسوع : أليس مكتوبا فى ناموسكم : أنا قلت إنكم آلهة ، إن قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله ولا يمكن أن ينقض المكتوب فالذى قدسه الأب وأرسله إلى العالم ، أتقولوا له إنك تجدف لأنى قلت إنى ابن الله » (١) .

لفظ رب :

وكما أطلق لفظ إله أو ابن إله فى الأناجيل على عيسى ، أطلق عليه لفظ رب ، أطلقها عليه أتباعه وحواريوه .

فى إنجيل لوقا نرى عيسى يصلى لله ، وأثناء الصلاة يرقبه التلاميذ ، وعندما يفرغ منها يأتى إليه أحد تلاميذه قائلا « يارب علمنا أن نصلى كما علم يوحنا تلاميذه » .

عيسى الإنسان يصلى لله ويضرع إليه فيشاهده التلاميذ ويطلبون منه أن يعلمهم كيفية الصلاة ، فهو النبى المرسل الذى يعرف التعاليم والشرائع والطقوس والدعوات ، فليعلمهم كيفية الصلاة والتقرب لله كما علم النبى يوحنا تلاميذه .

(١) انجيل يوحنا ص ١٠ : ٣٤ — ٣٦ .

وفى الاصحاح السادس عشر من إنجيل متى نرى محاورة بين عيسى وتلميذه بطرس يطلق فيها الأخير على عيسى نفس اللقب « رب » يقول متى « فأخذه بطرس إليه وابتدأ ينتهره قائلا : حاشاك يارب ، لا يكون لك هذا ، فالتفت وقال لبطرس : اذهب عنى يا شيطان ، أنت معثرة لى لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس » (١) .

ونبحث عن تفسير كلمة « رب » التى أطلقت على عيسى فنجد التفسير فى صلب الأناجيل نفسها ، ففى الاصحاح الأول من انجيل يوحنا يروى لنا الحوارى المذكور أن عيسى فى بداية دعوته كان يسير فى الطريق بمفرده فتبعه رجلان صارا فيما بعد من تلاميذه « فالتفت يسوع ونظرهما يتبعانه فقال لهما : ماذا تطلبان ، فقالا : ربى الذى تفسيره يا معلم أين تمكث ؟ فقال لهما : تعاليا وانظرا ، فأتيا ونظرا أين يمكث ومكثا عنده ذلك اليوم » (٢)

لم يشأ يوحنا أن يطلق كلمة « رب » على عيسى من غير تفسير ، فقد خشى أن يتصور الناس أن عيسى إله أو بعض إله ، ففسر يوحنا الكلمة فى صلب الانجيل نفسه بأنها تعنى المعلم ، فعيسى بالنسبة لتلاميذه هو معلمهم وأستاذهم كيوحنا (المعمدان) وغيره من الأنبياء معلموا الشريعة وأساتذة الديانة .

ومرة ثانية يورد يوحنا حوارا بين عيسى ومريم المجدلية ،

---

(١) متى ص ١٦ : ٢٢ — ٢٣ .
(٢) يوحنا ص ١ : ٣٨ — ٣٩ .

تطلق فيها الأخيرة على عيسى لفظ « رب » ويحرص يوحنا أيضاً على تفسير اللفظ خلال الحديث درءا للشك والشبهة ، يقول يوحنا « قال لها يسوع يا مريم ، فالتفتت تلك وقالت له : ربونى الذى تفسيره يا معلم قال لها يسوع : لا تلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى ، ولكن اذهبى إلى اخوتى وقولى لهم أنى أصعد إلى أبى وأبيكم والهى وإلهكم ، فجاءت مريم المجدلية وأخبرت التلاميذ أنها رأت الرب ، وأنه قال لها هذا » (١) .

هنا تظهر حقائق كثيرة . . عيسى الرب هو الإنسان المعلم ، البشر التلاميذ هم اخوته ، والله أبوه وأبو اخوته التلاميذ وأبو الناس أجمعين ، والهه وإله التلاميذ وإله الناس أجمعين ، ولفظ المعلم هو اللقب العادى الذى اعتاد الناس إطلاقه على عيسى ، فعندما كان عيسى مع تلاميذه فى سفينة وسط البحر ، وارتفع الموج وخاف التلاميذ « فتقدموا إليه وأيقظوه قائلين : يا معلم يا معلم ، إننا نهلك » (٢) .

يقول الأستاذ العقاد أن عيسى « سمى المعلم وبحق عند تلاميذه وخصومه ، ونودى به فى مختلف المجامع والمحافل ، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وإحياءا روحياً عن طريق التعليم » (٣) .

ويحدثنا ستيفن نيل عن استعمالات كلمة رب فيقول : « ان الكلمة اليونانية الأصلية التى معناها رب يمكن استعمالها كصيغة

---

(١) يوحنا ص ٢٠ : ١٦ — ١٧ .
(٢) لوقا ص ٨ : ٢٤ .
(٣) عباس العقاد : عبقرية المسيح ص ١٦٦ .

للتأدب فى المخاطبة فسجان فيلبى يخاطب بولس وسيلا بكلمة (سيدى أو ربى : أعمال ١٦–٣٠). ولكن يمكن أن تستعمل بمعنى ارفع وأرز ، وكانت تستعمل وصفا للامبراطور فى كل أنحاء الامبراطورية الرومانية كما كانت تستعمل أيضا لملوك اليهود ، وكانت اللفظة لقبا من ألقاب الكرامة خلع على كثير من الآلهة الوثنية وخاصة آلهة أديان الأسرار ، ولهذا السبب ذهب بعض العلماء إلى أن لفظ « الرب » أطلق أولا على يسوع فى الجماعات الأممية الناطقة باليونانية وذلك لأنه هو الوصف الذى خلعوه على آلهتهم قبل أن يعتنقوا المسيحية ، وكان من الهيّن على أولئك الأمم أن يقبلوا هذا اللقب الذى كان مألوفا لديهم » (١) .

والواقع أن لفظ رب كان يستعمل فى كثير من المجتمعات وخاصة فى الأزمنة القديمة بقصد التكريم والتعظيم ، ويتكرر اللفظ كثيرا فى أسفار التوراة بمعنى سيد أو معلم ، بل لقد ورد فى القرآن الكريم بمعنى سيد أو عائل ، فيوسف عليه السلام يتحدث عن سيده العزيز فيقول عنه « إنه ربى أحسن مثواى » (٢) ، ولم يخطر ببال أحد أن يوسف الصديق يشرك بالله ، أو يؤله سيده الذى رباه ، بل يدعوه ربه بمعنى أنه عائله وصاحب الفضل عليه .

وحتى الآن نرى الكثيرين منا يتحدثون عن عائل الأسرة أو رئيس المكان فيقول رب الأسرة ورب الدار ولم يدر بخلد أحد

---

(١) ستيفن نيل : من هو المسيح – ترجمة حبيب سعيد ص ٤٩ .
(٢) سورة يوسف الآية ٢٣ .

عند سماعه هذه الكلمة أن رب الأسرة هومعبود الأسرة أوأن رب الدار هو إله الدار بل إن هذا اللفظ لا يعنى سوى التكريم والتقدير للشخص الذى يطلق عليه ، وما أطلق على عيسى إلا تقديراً له بصفته المعلم والنبى ، ولم يعن به أحد على الاطلاق اشراكا بالله أو تألبها لمن أطلق عليه .

الله لا يرى :

الله تبارك وتعالى يملأ الكون ويسيطر على ذرات الوجود ، ويحيط بأجزاء السموات والأرض ، لا يحتويه مكان ولا يحده زمان .

« لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير (الأنعام ١٠٣) :

حقيقة وردت فى كافة الكتب السماوية واعترفت بها كافة الأديان .

طلب موسى أن يرى وجه الله ، فأجابه سبحانه (« لا تقدر أن ترى وجهى ، لأن الإنسان لا يرانى ويعيش » (١) .

ويروى القرآن هذه الحادثة فيقول « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال : ربى أرنى أنظر إليك ، قال : لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » (٢) .

---

(١) سفر الخروج ص ٢٣ : ٣٠ .
(٢) سورة الاعراف الآية ١٤٣ .

هذه هى الخشية لله والاجلال والرهبة لعظمة الله ، حتى الجبال تخشع وتتفتت وتهلع لجلال القدسية والجبروت .

هـــذا يوحنا يعلن فى الاصحاح الرابـــع من انجيله أن « الله روح » . ويشرح لوقا معنى العبارة فيقول « والروح ليس له لحم أو عظام » .

ليس هذا فحسب ، بل إن الأناجيل تؤكد الحقيقة التى يعرفها الكافة ، أن الله لم يتجسد ولم يره أحد من الناس ، ولا يستطيع أحد أن يراه .

يقول بولس فى رسالته إلى أهل مدينة كولوسى ، إن الله هو « غير المنظور » ، ويقول فى رسالته إلى صديقه تيموثاوس « الله لم يره أحد من الناس ولا يقدر ن يراه » (١) .

ويقول يوحنا « الله لم يره أحد » (يو ٦—١٨) .

ويقرر الأستاذ عوض سمعان « إن المتفحص لعلاقة الرسل والحواريين بالمسيح ، يجد أنهم لم ينظروا إليه إلا على أنه إنسان ، ولم يتصوروا على الاطلاق أنه إله ، ولكن لماذا ؟ لأنهم أى الرسل والحواريين كيهود كانوا يعلمون تمام العلم أن الاعتراف بأن إنسانا هو الله يعتبر تجديفا يستحق الرجم فى الحال ، ولأنهم كيهود أيضا كانوا يستبعدون أن يظهر الله فى هيئة إنسان ، نعم كانوا

---

(١) تيموثاوس ص ٦ : ١٦ .

ينتظرون « المسيا » لكن المسيا بالنسبة إلى أفكارهم التى توارثوها عن أجدادهم لم يكن سوى رسول ممتاز يأتيهم من عند الله ، وليس هو ذات الله » (١) .

اعتراف صريح يفضح كثيراً من البهتان الذى حاول البعض ادخاله على الحقائق ، يفضح كذب القائلين بأن الحواريين ألهوا عيسى أو اعتبروه فوق الناس ، فهولاء الحواريون هم التلاميذ كتّاب الأناجيل ، وليس فى الأناجيل الحقيقية ما يفيد تألها لعيسى ، بل إن هذا الاعتراف يفضح أيضاً افتراءات البعض بأن بعض آيات التوراة تحدثت عن عيسى الاله وتنبأت عن ظهوره فى الجسد ، هذا الاعتراف يدحض هذه الترهات ويؤكد أن نصوص العهد القديم كتبها يهود موحدون أتباع لموسى ، لم يتصوروا قط بأن إنسانا هو الله أو أن خالق الكون سينزل إلى الأرض ويعاشر المخلوقات ، فالقول بهذا تجديف وكفر يستحق الموت ، يقول تبارك وتعالى « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء إنه علىّ حكيم » (الشورى ٥١) .

القرآن والتأليه :

وصدق رب العالمين فى كتابه الأمين ، إذ يعلن للناس جميعا أن عيسى أحد مخلوقاته التى أنشأها من العدم ، والتى

---

(١) عوض سمعان : الله — طرق اعلانه عن ذاته ص ٢٨ .

يملك أنفاسها وروحها وحياتها ، وخلقها وهدمها وافناءها ، عيسى وأمه ومن فى الأرض جميعا فى قبضة الرحمن ، وكل من يقول غير ذلك ، أو يعتوره شك فى ذلك ، وكل من يدعى أن عيسى المخلوق هو الله الخالق القادر فهو كافر ضال أثيم ، طمس بصره وبصيرته ، وتبخر عقله وحسه ، ومات ضميره وقلبه ، فاستحق جزاء الكافرين ، النار وبئس القرار ، يقول جل وعلا « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعا ، ولله ملك السموات والأرض وما بينهما ، يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير » (المائدة ١٧) .

ويقول سبحانه : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئاً إدا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ، أن دعوا للرحمن ولدا ، وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ، إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » (١) .

ثم ينبه الكتاب الكريم إلى الحقيقة الهامة وهى أن رسل الرحمن الذين ائتمنهم على رسالته وحملهم شريعته ، واختارهم لهداية الناس ، واصطفاهم للدعوة للخير ، لن يخونوا الأمانة أو يهدموا الثقة ، ويدعوا الناس إلى تألههم أو عبادتهم

---

(١) سورة مريم الآيات ٨٨ — ٩٥ .

من دون الله، هذا مالا يمكن أن يحدث، من رسل الله ومختاريه، ومالا يتصور أن يرتكبه أحباء الله وأصفياؤه، ولكنهم دائما عليهم جميعا أفضل الصلاة وأزكى السلام فى قبضة الرحمن يدعون الناس إلى عبادته وحده دون شريك أو شبيه، يقول أصدق القائلين «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وما كنتم تدرسون» (١) .

وفى تشبيه جميل ومحاورة شائقة يستحضر القرآن مشهدا من مشاهد يوم القيامة، يسأل الله فيه عيسى عما نسبه إليه الكافرون، ويشهد سبحانه رسوله على هؤلاء الضالين، الذين انحرفوا عن الطريق، وحادوا عن الحق، ونسبوا إلى نبى الله ما هو منه برىء، يقول تبارك وتعالى لرسوله «وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله، قال: سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك، إنك أنت علام الغيوب، ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم، فلما توفيتنى كنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شىء شهيد» (٢) .

وصدق الله، وصدق رسوله عيسى، وصدق المؤمنون بالحق، وكذب الكافرون، وباءوا بالخزى والخسران .

---

(١) سورة آل عمران ٧٩ .
(٢) سورة المائدة ١١٦ — ١١٧ .

الفصل السابع

ابن الانسان

أرسل عيسى للناس برسالة من عند الله ، يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر ، يأمرهم بالخير ويفعله ليقتدوا به ، وينهاهم عن الشر ويهجره لينتهوا عنه ، فرسول الناس من جنس الناس ، ونبي البشر من طبيعة البشر ، فليس من المعقول ولا المقبول أن يأتي للناس من هو غريب عنهم ، ولا يستطيع أن يرشد الناس من ليس من طبيعتهم ولا جبلتهم ، ليس من لمعقول ولا المقبول أن يأتي إله أو ملاك ، أو طير أو حيوان ، أو جن أو شيطان ، ليهدى من هم من غير طبيعته وجنسه ، فكل مخلوق منا يتأسى ويقتدى بالمخلوقات أمثاله ، الحيوان يقتدى بالحيوان ، والملاك يتأسى بالملاك ، والإنسان يقلد الإنسان ، والجان يحاكي الجان ، والشيطان ينافس الشيطان ، ولا يستطيع الإنسان أن يقتدى بالآلهة أو الملائكة أو الجان .

ومهما وجد الإنسان فى غير البشر من الصفات والمواهب والملكات ما قد يثير إعجابه وافتتانه ، فلن يفكر فى تقليد من أعطوا ملكات واستعدادات تغاير ما أعطيه منها ، فهما أعجب انسان بخفة الغزال ، أو قوة الأسد ، أو صبر الجمال ، أو ثبات الجبال ، أو نظر الصقور ، أو سرعة الطيور ، أو بأى صفة من صفات غيره من الكائنات والمخلوقات ، فلن يفكر فى محاولة تقليدها أو محاكاتها لتيقنه أن هذا

ضرب من الاستحالة بل نوع من الجنون ، وذلك للاختلاف الواضح بين البشر وباقى الكائنات فى الصفات والقوى .

من أجل هذا لم يبعث الله للناس رسولا إلا من نفس طبيعتهم وخلقتهم ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وتتبع أفعاله أقواله ، ويسير سلوكه على هدى تعاليمه ، فيقتدى به الناس ، وينهجون على منواله . يولد بينهم ويعيش فى وسطهم ، يأكل ما يأكلون ويلبس ما يلبسون ، ويحيا الحياة كما يحيون ، يحس بأحاسيسهم وينفعل بانفعالاتهم ، تعترضهم المشاكل أو تعتريهم المصاعب فيهرعون إليه ، إلى من صادف مشاكلهم ومتاعبهم وعاش فيها وكابدها ، فيدلهم على كيفية مواجهتها والتغلب عليها بنفس الممكنات التى فى طوع البشر ، وليس بممكنات الآلهة أو الشياطين ، أو الوحوش أو الجان .

ولو بعث الله للناس رسولا من غير البشر لما اقتنعوا به ولما اتبعوه أو اقتدوا به ، فشتان بين طبائع الناس وطبائع غيرها من الكائنات ، وكيف للإنسان أن يتخطى عتبة البشرية وحدودها الضيقة ليقلد ملاكا أو إلها ، أو حيوانا أو جانا ، إن كل ما سينطق به هذا الرسول الغريب عن البشر لن يكون فى نظرنا إلا ضربا من الهراء والعبث ونوعا من السخرية والاستهزاء ، قد نعجب بما يقول - هذا إذا فهمناه - ولكن كيف لنا تنفيذه ؟ وكيف لنا تقليده ومحاكاته ، كيف نساير هذا الذى اختلفت طبيعته عنا ، وتميزت ملكاته منا ؟ !

إن الإنسان لا يرتاح إلا لإنسان مثله ، له نفس صفاته

وأحاسيسه وانفعالاته ، بل إننا كثيراً ما نحس بالرهبة والشك نحو الغرباء والمختلفين عنا فى اللغة أو اللون أو البيئة أو التقاليد مع أنهم بشر مثلنا ، فكيف إذا كانوا من جنس غريب عنا مغاير لنا مختلف منا ، ثم جاءوا يدعوننا إلى الاستماع إليهم وإلى الاقتداء بهم ، هل يمكننا حتى فهمهم ؟ أغلب الظن أنهم يسخرون منا .

حقيقة جلاها القرآن فى أروع بيان ، يقول سبحانه « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : ابعث الله بشرا رسولا ، قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » (الاسراء ٩٤ ، ٩٥) .

الرسول من جنس المرسل إليهم ، رسول الناس إنسان ، ورسول الملائكة ملاك ، رسل الإنسان من نفس الإنسان ، من نفس طبيعته وجبلته وخلقه وعالمه ، فالإنسان خليفة الله على الأرض ، الذى حمل أمانة الوجود ، خليق بأن يأتيه من ذاته الدرس والعبرة ، وأن يأخذ من نفسه الموعظة والمثل ، وأن يحمل بنفسه الرسالة والشريعة ، يقول عز من قائل « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » (التوبة ١٢٧) .

من أجل هذا كان عيسى إنسانا وابن إنسان ، ولد كما يولد الناس ، وعاش كما يعيش الناس ، وذهب كما يذهب الناس ، حملت به مريم وظل فى بطنها وبين أحشائها طوال تسعة أشهر ، تلقى إخلالها الغذاء والنماء ، وتكون جسمه وعظمه ، وعروقه ودمه وخلاياه ولحمه ، وسائر

صفاته من جسد أمه النحيل ، حتى إذا تمت أشهر الحمل لفظه رحمها ، فقمطته ووضعته فى حجرها ، وألقمته ثديها تسد جوعه وتسكت صراخه ، فاذا بال غسلته بالماء وألبسته نظيف اللباس . كم من الليالى سهرت عليه فى صحته ومرضه ، وكم أعطت من نفسها لبكرها عيسى قبل أن تلد غيره من الأبناء والبنات ، وكم انتظرت وزوجها وأهلهما مرور الأيام ليكبر عيسى فى الجسم والعقل ، وكم لقنوه التعاليم والشرائع اليهودية ليصير بارا كوالديه وأهله ، وقليلا ما أنبوه أو عاقبوه فقد كان فى معظم الأحيان خاضعا لأمه وأبيه ، ولما صار صبيا يافعا علمه أبوه يوسف حرفته ، فصار نجارا ماهرا .

ثلاثون سنة عاشها عيسى قبل أن تأتيه الرسالة ، وقبل أن يختاره الله لهداية الناس ، لم يرفيه أهله وذووه وسائر مواطنيه أكثر من نجار عادى أمين ، يأكل خبزه بعرق جبينه ، ويشقى ويكدح طوال يومه ليقوت أمه الأرملة وإخوته اليتامى .

الأكل والشراب :

خضع عيسى الإنسان لكافة الغرائز الإنسانية ، أكل كما يأكل الناس ، وشرب كما يشرب الناس ، شرب الماء والخمر ، يتحدث عيسى عن نفسه مخاطبا اليهود « جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب ، فيقولون هو ذا إنسان أكول وشريب خمر » (١) .

---

(١) متى ص ١١ : ١٩ ، لوقا ص ٧ : ٣٤ .

وأكل عيسى للطعام قرره القرآن ، يقول سبحانه « ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، أنظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » (المائدة ٧) .

وعيسى الإنسان كغيره من الرسل أبناء البشر يأكلون الطعام ويشربون الماء لا تختلف عن إخوته الأنبياء فى شىء ، ولا يختلفون جميعا عن باقى الناس أبناء آدم فى شىء ، حقيقة يجليها الرحمن لخاتم المرسلين فيقول « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق » (الفرقان ٢٠) .

وأكل الطعام يقتضى إخراج فضلاته ، وشرب الشراب يستلزم إنزال فائضاته ، وإلا امتلأ الإنسان وانتفخ وتسمم ومات ، وقد تعفف القرآن عن ذكر التبرز والتبول بالنسبة لعيسى وباقى الرسل تساميا منه فى التعبير ، واكتفاء بما يفهم من النتيجة الطبيعية للأكل والشراب .

النـوم والراحــة :

النتيجة التالية للطعام والشراب ، وللجهد والعمل هى التعب والخوار ، والرغبة فى النوم والراحة لكى يستعيد الإنسان صحته ولكى يستفيد من الطعام والشراب ، ثم يواصل الكد والكفاح ، ولولا النوم والراحة لفقد الإنسان قوته وانهارت أعصابه ، ولما استطاع مواصلة حياته أو إتمام رسالته .

وكم تعب عيسى وطلب الراحة، وكم شقي عيسى ورغب في النوم ثم استيقظ أكثر قوة ونشاطا وحيوية ، وكان نوم عيسى أكثر من اللازم بل كان نومه ثقيلا من كثرة ارهاقه وتعبه ، فكثير أما كان يتجول فى القرى ويدعو الناس فى الطرقات فيغشاه سلطان النوم رغم إرادته من كثرة الارهاق فينام وسط الناس ، تحدثنا الأناجيل عن إحدى المرات التي نام فيها عيسى فى ظروف كانت تستلزم اليقظة، نام فى سفينة صغيرة وسط البحر والموج وبين التلاميذ ، الكل مستيقظ وعيسى نائم ، تقول الأناجيل « وفى أحد الأيام دخل سفينة هو وتلاميذه ، فقال لهم : لنعبر إلى عبر البحيرة ، فأقلعوا وفيما هم يسيرون نام ، فنزل للتو ريح فى البحيرة وكادوا يمتلأون ماء، وصاروا فى خطر ،فتقدموا إليه وأيقظوه قائلين : يا معلم يا معلم إننا نهلك » (١) .

رغم الرياح العاتية والأمواج المتلاطمة ، ورغم المياه الغزيرة التى انصبت على السفينة الصغيرة وسط البحر ، فجعلت تتقاذفها كالريشة فى مهب الرياح، ورغم كل الضوضاء التى أحدثها الركاب خوفا وجزعا فقد ظل عيسى نائما لا يحس بشيء من هذا ولا يشعر به ، ولولا إيقاظ التلاميذ له وطلبهم منه أن يصلى لله طلبا للنجاة لكان من الممكن أن يهلكوا جميعا بالسفينة وفيهم عيسى نائما .

---

(١) الاناجيل لوقا ٧ : ٢٢ — ٢٤ ، متى ٨ : ٢٣ — ٢٧ ، مرقس ٤ : ٣٥ — ٤٠ .

ويؤكد القرآن الحقيقة الساطعة وهى أن الله سبحانه علام الغيوب يحيط بذرات السموات والأرض ، ولا تسقط ورقة على الأرض أو قطرة من السماء إلا ويعلمها ، لا يسهو ولا يغفل ولا يمسه التعب أو اللغوب ، ولا يحتاج إلى النوم أو الراحة ، يقول الكتاب الكريم « الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا باذنه ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ، وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلى العظيم » (البقرة ٢٢٥) .

مواقف ضعف :

عيسى الإنسان كثيراً ما ضعف أمام الطبيعة كما ضعف أمام غيره من الناس ، مواقف ضعف ألمت بعيسى فأخرجته عن طوره ، وجعلته يرتكب هفوات تحسب على الأقوياء ، مواقف ضعف أحالت هدوء عيسى غضبا وصخبا ، مواقف ضعف جزع لها عيسى فهرب ، ومواقف ضعف ألمت بعيسى فحزن وبكى ، ومواقف ومواقف كلها تعرض لها كافة الأنبياء البشر .

الغضب والصخب :

كانت طبيعة عيسى العادية الهدوء والتسامح ، وتجنب المتاعب والمشاكل ولكن الظروف كانت تخرجه فى بعض الأحيان عن طوره فيغضب .

دخل مرة هيكل سليمان ليعلم قومه الشريعة فشاهد باعة البهائم والدواجن وصيارفة النقود يزحمون صحن الهيكل وبابه ، فحمى غضبه كرامة لهيكل اليهود وقام يقلب موائد الباعة والصيارفة ويفسد البضاعة ويضرب بالسياط بالأيدى ، تقول الأناجيل « وكان فصح اليهود قريبا فصعد يسوع إلى أورشليم ، ووجد فى الهيكل الذين كانوا يبيعون بقرا وغنما وحماما والصيارف جلوسا ، فصنع سوطا من حبال وطرد الجميع من الهيكل ، الغنم والبقر ، وكب دراهم الصيارفة وقلب موائدهم » (١) .

الخوف والهرب :

كان عيسى الإنسان يخاف شرّ أخيه الإنسان ، كان يهرب من أعدائه ويختفى من مناوئيه ، ركبت فيه غزيرة حب البقاء كما ركبت فينا ، فكان يخشى الايذاء ويتفادى الضرر ، ويخاف على حياته أن يسكت خلجاتها أعداؤه قبل أن يتم الرسالة التى بعثه الله بها .

تحدثنا الأناجيل أن عيسى كان يسارع بالهرب بمجرد شعوره بالخطر ، وعند أول بادرة لمحاولة إيذائه او الاعتداء عليه ، وبالغت الأناجيل فى قدرة عيسى على التخفى والهرب فقررت أنه كان ينفلت من وسط الناس فلا يشعروا به ، وكان يفر منهم إلى أبعد الأماكن فلا يستطيعون له إمساكا ولا يملكون به لحاقا .

تحدثنا الحوارى متى أن أحد طوائف اليهود غضبوا على

(١) انظر الاناجيل يوحنا ٢ : ١٣ — ١٥ ، متى ٢١ : ١٢ — ١٣ ، مرقس ١١ : ١٥ — ١٦ .

عيسى لتمييزه تلاميذه ، وأن الفريسيين أرادوا القبض عليه وقتله ، ففهم عيسى مرادهم وانصرف عنهم دون أن يشعر به أحد ، يقول متى « فلما خرج الفريسيون تشاوروا عليه لكي يهلكوه ، فعلم يسوع وانصرف من هناك » (متى ١٢ : ١٤ — ١٥) . ومرة أخرى دبت مشادة كلامية بين عيسى وبعض اليهود فغضب القوم لحديثه ، وأمسكوا بالحجارة لكي يرجموه ، ولكنه كعادته اختفى وهـرب من بينهم دون أن يحسو به ، يقول يوحنا « فرفعوا حجارة ليرجموه ، أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازا فى وسطهم ومضى هكذا » (١) .

ومرة ثالثة حاولوا أن يمسكوه فأفلت من بين أيديهم « فطلبوا أن يمسكوه فخرج من أيديهم » (٢) .

ومرة رابعة هاجم عيسى الأنبياء الذين سبقوه فغضب جميع السامعين « فقاموا وأخرجوه خارج المدينة وجاءوا به إلى حافة الجبل الذى كانت مدينتهم مبنية عليه حتى يطرحوه إلى أسفل . أما هو فجاز فى وسطهم ومضى » (٣) .

الحـزن والبـكاء :

بكى عيسى فى ظروف كثيرة ، بكى خوفا على مصيره من أن يمسك به اليهود ويقتلوه ، وتصبب منـه العـرق

---

(١) انجيل يوحنا ص ٨ : ٦٩ .

(٢) يوحنا ١٠ : ٣٩ .

(٣) انجيل لوقا ص ٤ : ٢٩ — ٣٠ .

حزنا وخوفا حتى صار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض كما تقرر لأناجيل(١) .

بكى عيسى مرارا ، بكى من فراق أحبابه وعلى موت أصدقائه ، أتت إليه يوما صاحبته مريم وأخبرته بموت شقيقها العازر فانزعج عيسى واضطرب ، وحزن وتألم ، وبكى وتأوه ، يقول يوحنا « فلما رآها يسوع تبكى واليهود الذين جاءوا معها يبكون انزعج بالروح واضطرب ، وقال : أين وضعتموه ، قالت له : ياسيد تعال وانظر ، بكى يسوع ، فقال اليهود انظروا كيف كان يحبه » (٢) .

وعيسى كان يحب عاصمة بلاده أورشليم ، وكان يريدها ان تسود بلاد العالم وأن تحكم البسيطة ، ولكن يبدو أنه شاهد لها حلما ازعجه ، شاهدها منكسرة مدحورة ، محاصرة بالأعداء والطامعين ، مهدمة على بنيها فحزن عيسى وانزعج ، وبكى واضطرب ، حزن على المدينة المقدسة وعلى مواطنيه أبناء يهوه وأخذ يناجي مدينته كما يناجى الطفل جثة أمه الميتة ، وكما يتأوه اليتيم لفراق عائله الوحيد .

يقول عنه لوقا « وفيما هو يقترب نظر إلى المدينة وبكى عليها قائلا : إنك لو علمت أنت أيضا حتى فى يومك هذا ما هو لسلامك ولكن الآن قد أخفى عن عينيك ، فانه ستأتى أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة ، ويهدمونك وبنيك ولا يتركون فيك حجرا على حجر » (٣)

---

(١) لوقا ص ٢٢ : ٤٤ .
(٢) يوحنا ١١ : ٣٣ — ٣٦ .
(٣) لوقا ١٩ : ٤١ — ٤٤ .

فى قبضـــة الشيطـان :

وقع ابن الإنسان يوما فى قبضة الشيطان كما قد يقع أى منا فى قبضته ، وسمح الله للشيطان أن يجرب عبده عيسى ،وأن يختبر مدى إيمانه وثبات يقينه، ليكون مستحقا لتلقى رسالة السماء . جرب عيسى من الشيطان قبل أن يبعث رسولا ليكون امتحان الشيطان له ونجاحه فيه جديرا بأن يجعله رسولا لرب العالمين .

تعرض عيسى للتجربة ، ونجح فى الاختبار فصار اهلا لتلقى الرسالة ولحمل الأمانة ، أتى الشيطان إلى عيسى وهو جائع ، وأمره أن يسأل الله أن يحول الحجارة إلى خبز ليسد جوعه ، ولكن عيسى أجابه « مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله » .

إجابة تدل على صدق عيسى الإنسان وإيمانه بالله خالقه ، فهو يذكر الشيطان أن شريعة الله أنّ الإنسان لا يحيا بالطعام والشراب فقط ولكن بمشيئة الله ، وأنه بصفته إنسانا لا يبقيه فى الحياة الطعام والشراب وإنما إرادة الله الذى يمسك البشر جميعا بيمينه والذى حياتنا ومماتنا رهن إشارته ، فما أهمية الطعام إذا قدر لنا الموت ، وما جدوى الشراب إذا لم تكتب لنا الحياة .

ويعود الشيطان فيسأل عيسى الإنسان أن يجرب الله ربه ليعرف مقدار حبه ومدى حرصه عليه ، فيأخذ الشيطان عيسى بين يديه ويذهب به إلى أورشليم ليوقفه على جناح الهيكل ويطلب منــه أن يلقى بنفسه إلى أسفل

مؤكدا له أنه لن يموت ، ويرفض عيسى إطاعة الشيطان والاستجابة لرغباته ، ثم يعلن له شريعة التوراة « مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلهك » .

إجابة يؤكد بها عيسى للشيطان أنه لا يستطيع أن يجرب إلهه وأنه كمخلوق ضعيف لا يمكنه تجربة الخالق ، فلا ينبغى للبشر أن يجربوا الله ، وعيسى احد البشر يسرى عليه ما يسرى عليهم . ويتململ الشيطان ويتضجر خوف الخسران فيلقى بورقته الباقية وباغرائه الأخير وبفتنته الكبرى ، يقول متى « ثم أخذه أيضا إبليس إلى جبل عال جدا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له : أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لى ، حينئذ قال له يسوع : اذهب يا شيطان لأنه مكتوب : للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» (١) .

ألقى الشيطان بآخر سهم فى جعبته ليستهوى ابن الإنسان ويخضعه لسلطانه ، أخذ إبليس عيسى فى قبضته وارتفع به إلى جبل عال جدا قد يكون قمة افرست فى الهملايا ، وأراه ممالك الدنيا وزينتها وزخرفها ووعده بإعطائه إياها وتنصيبه ملكا عليها إذا سجد للشيطان وصار عبدا له ، ولكن عيسى المؤمن رفض أن يبيع نفسه للشيطان ، وعلم أن من يسجد للشيطان فانما يكفر بالله ، ومن يعبد الشيطان يصبأ عن عبادة الرحمن ، فليس لأحد فى الوجود سلطان ولا سجود ولا عبادة إلا الله وحده لا شريك له.

---

(١) انجيل متى ٤ : ١ - ١٠ ، انجيل لوقا ٤ : ١ - ١٣ .

احس عيسى بالحفرة التى أراد الشيطان أن يوقعه فيها مغررا به ، وفطن إلى الهوة السحيقة التى تنتظره إذا استمع للشيطان، فرفض عرض ابليس ، رفض ممالكه ومجد دنياه ، وفضل رضى خالقه ومولاه طمعا فى ثوابه وبهاه .

وتجربة الشيطان لعيسى تستحق التأمل ، فاذا كان عيسى هو الله كما يزعمون ، فكيف يتقدم الشيطان وهو المخلوق لتجربة الخالق ، لا يجربه فقط بل يأخذه فى قبضته كلعبة بين يديه ويتسلط عليه ، ويمتحنه ويختبره ويسبر غوره ، ويأمره بالركوع والسجود له ، هل يستطيع الشيطان أن يتسلط على الخالق ؟ وهل يعقل أن الله يسجد للشيطان ؟

ثم بماذا يغرى الشيطان ربه ؟ أيغريه بالدنيا وهو صانعها ، أم يغريه بالناس وهو خالقها ؟ ثم من هو الله الذى له وحده يسجد عيسى وإياه وحده يعبد ؟

وعيسى الإنسان الذى فشل الشيطان فى غوايته وفى الانحراف به عن طريق الحق ، لم يفعل أكثر مما فعله إخوته الأنبياء الذين أفسدوا حيل الشيطان وخيبوا خططه معهم ، فاستحقوا عن جدارة اختيارهم للرسالة واصطفاءهم للنبوة ، يقول جل وعلا لخاتم المرسلين « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم ، ليجعل ما يلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، وإن الظالمين لفى شقاق بعيد ، وليعلم الذين أوتوا

العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » (١) .

للصلاة والدعاء :

وعيسى العبد الصالح كان دائم الصلاة والدعاء لمولاه ، كان مثال المتعبد الخاشع المتضرع لله ، كان دائما فى ركوع وسجود وشكر وحمد ، وتهجد وتبتل لرب العالمين ، كان يعلم أن الصلاة هى الصلة الوثيقة والرباط المحكم الذى يربط الإنسان بخالقه ، وأنها أساس الإيمان وعماد الدين فحرص عليه السلام كسائر إخوته الأنبياء والصالحين أن يوطد هذه الصلة بينه وبين الخالق تبارك وتعالى ، فكان يصل الليل بالنهار ، والفجر بالضحى فى عبادة الله ومناجاة علاه .

والأناجيل مليئة بالحديث عن صلاة عيسى . . العبد التقى الورع . « فقال للتلاميذ : اجلسوا ههنا حتى أمضى وأصلى هناك » (متى ٢٦ : ٣٦) . « وبعد ما صرف الجموع صعد إلى الجبل منفردا ليصلى ولما صار المساء كان هناك وحده » (متى ١٤ : ٢٣) . « فى ذلك الوقت أجاب يسوع وقال : أحمدك أيها الأب رب السماء والأرض » (متى ١١ : ٢٥) . « وفى الصبح باكرا جدا (عند الفجر) قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء وكان يصلى هناك » (مرقس ١ : ٣٥) :

---

(١) سورة الحج ٥٢ — ٥٤ .

« وبعد ما ودعهم مضى إلى الجبل ليصلى » (مرقس٦ : ٤٦) .

« وبعد هذا الكلام بنحو ثمانية أيام أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل ليصلى » (لوقا ٩ : ٢٨) .

« وفى تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلى وقضى الليل كله فى الصلاة لله » (لوقا ٦ : ١٢) .

عيسى يصلى لله فى كل وقت ، فى العسر واليسر ، وفى الليل وعند الفجر ، يهرع إليه وقت الكروب ويحمده عند الاستجابة ، يروى لنا الحوارى لوقا عن احدى الضيقات التى ألمت بعيسى عندما حاول بعض اليهود قتله لاعتقادهم ضلاله وكذبه ، فيهرع عيسى إلى الجبل يضرع إلى الله أن يخلصه من أعدائه ، يقول لوقا « وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون وتبعه أيضاً تلاميذه ولما صار إلى المكان قال لهم : صلوا لكيلا تدخلوا فى تجربة ، وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلى قائلا : يا أبتاه إن شئت أن تجيز عنى هذه الكأس ولكن لتكن لا ارادتى بل إرادتك ، وظهر له ملاك من السماء يقويه ، وإذ كان فى جهاد كان يصلى بأشد لجاجة وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض » (١) .

عيسى يصلى لله وقت الضيق ، وأى صلاة تلك التى يصليها عيسى لربه ، إنها أعمق صلاة إنه يركع على الأرض ويجثو على ركبتيه ويدفن رأسه وهامته فى التراب الذى منه خلق ، ثم

(١) انجيل لوقا ص ٢٢ : ٣٩ — ٤٤ .

يرفع نظره إلى السماء ويبتهل إلى خالقه ويخشع له ويهلع ، ويتضرع إليه ويخضع ، يصلى بأشد لجاجة وبأعنف حرارة حتى يتصبب منه العرق ، وتتساقط قطرات العرق من جسده مشبعة بدمه .

حرارة فى الصلاة وتألم وبكاء ، وتذلل وخضوع ، واستعطاف وخشوع ، لا يبررها إلا البشرية والعبودية التى تربط عيسى بمولاه .

ويروى الانجيل أنه أثناء صلاة عيسى ظهر له ملاك من السماء ليقويه ، ويبدو أن الله قد عطف على عبده وأراد أن يزيل عنه خوفه ، وأن يهدىء من روعه ويخفف من جزعه ، فبعث له سبحانه أحد ملائكته ليقوى عزمه ويشد أزره ، فلا ينهار أمام الظروف ولا يستسلم لأعدائه ، أرسل الله لعبده ملاكا يبشره أنه لن يتركه فى أيدى الغادرين، بل سيخلصه من أعداء الحق والدين ، ملاك مخلوق كعيسى حمل إليه رسالة النجدة والخلاص ، فرفع معنوياته وطمأن قلبه وأعاد إليه السكينة والهدوء ، كل ذلك بفضل الدعاء والصلاة .

يقول عز وجل « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا » (١) .

صـــراخ المصـــلوب :

من المؤكد أن المصلوب ظل يصرخ ويستغيث طالبا النجاة ،

---

(١) سورة النساء الآية ١٧٢ .

هذا الصراخ ليس مجرد صراخ المستغيث ولكنه صراخ اليائس ، فلقد يئس المصلوب من النجاة وأحس بأن الله قد تخلى عنه وتركه فى أيدى جلاديه يعذبونه ويصلبونه ، إنه يصرخ إلى ربه قائلا : « إلهى إلهى لماذا تركتنى ؟ » لماذا تركت عبدك الضعيف فى أيدى جزاريه ؟ ولماذا تخليت عن عبدك المسكين فى ساعة العسرة ؟

إن هذا الصراخ من المصلوب ليس صراخ عيسى ، فليس عيسى بالذى ييأس من رحمة الله ، وليس عيسى بالذى يتركه ربه ، وليس عيسى بالذى يعاتب الله لتركه إياه ، أننا نرفض القول بأن ثقة عيسى فى الله قد ضعفت فى يوم من الأيام ، أو فى وقت من الأوقات ولو كانت أشد اللحظات قسوة ، فليس عيسى بأقل حالا من آلاف الشهداء فى مختلف العصور الذين استقبلوا الموت فرحين مستبشرين ، وما صراخ المصلوب وهلعه ، وما يأسه وجزعه ، إلا دليل آخر يضاف إلى مئات الأدلة التى تؤكد أن المصلوب ليس عيسى ، وأن الله ليس عيسى .

عيسى بين النـاس :

والناس جميعا من معاصرى عيسى ومواطنيه ، وممن رأوه وجالسوه وتحدثوا إليه وآكلوه ، من عاش بينهم وصادقوه ، أو من لم يؤمنوا به وعادوه ، هؤلاء جميعا لم يروا فى عيسى إلا إنسانا مثلهم بشرا مخلوقا كغيره من أبناء آدم . . خلاف واحد نشب بين هؤلاء وهؤلاء بشأن عيسى الإنسان ، خلاف بين محبيه ومبغضيه ، بين أصدقائه وأعدائه ، فأحباء عيسى

رفعوه إلى مرتبة النبوة واعتبروه رسولا ، أما أعداؤه فأنزلوه إلى مرتبة الأدعياء الكاذبين واعتبروه دجالا ، وبين الأحباء والأعداء لم ير فيه باقى الناس سوى ابن الإنسان .

رفع الأصدقاء والأحباء عيسى إلى مرتبة النبوة ، وصدقوا أنه رسول من لدن رب العالمين ، يتحدث عنه رجلان من محبيه فيقولان « كان إنسانا نبيا مقتدرا فى الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب » (١) . وتتحدث إليه المرأة السامرية التى قابلها عند البئر « قالت المرأة : يا سيدى أرى أنك نبى » (٢) . وعندما كان عيسى يعظ الناس ويبلغهم رسالات ربه « فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا : هذا بالحقيقة هو النبى » (٣) .

وفى إنجيل متى « ولما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها قائلة من هذا ؟ فقالت الجموع هـذا يسوع النبى الذى من ناصرة الجليل » (٤) .

وفى إنجيل لوقا نرى الناس يتحدثون عنه قائلين « قد قام فينا نبى عظيم وافتقد الله شعبه » (٥) .

ونرى فى إنجيل يوحنا قول الجموع عن عيسى « إن هذا

---

(١) لوقا ٢٤ : ١٩ .
(٢) يوحنا ٤ : ١٩ .
(٣) يوحنا ٧ : ٤٠ .
(٤) متى ٢١ : ١٠ — ١١ .
(٥) لوقا ٧ : ١٦ .

هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم » (١). وعندما هاجم عيسى كهنة اليهود وأرادوا القبض عليه وتعذيبه خافوا من الشعب لأنه كان في منزلة الأنبياء «ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه يتكلم عليهم ، وإذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبي » (متى ٢١ : ٤٥ — ٤٦) .

مع التلاميذ :

وتلاميذ عيسى الذين كانوا لا يفارقونه بالليل أو النهار ، والذين كانوا يعرفون من أمور عيسى مالا يعرفه العامة والغوغاء ، والذين كان يطلعهم عيسى على الأسرار والخفايا التي يحجبها عن الجماهير ، ماذا عرفوا عن عيسى وماذا حسبوه ؟ هل اعتبروه إنسانا ، وأي إنسان يكون ؟

هذا خليفته بطرس يقول عنه « يسوع الناصري رجل قد تبرهن من قبل الله بقوات وعجائب صنعها الله بيده » (٢).

وهذا رسول المسيحية بولس يتحدث عن عيسى فيقول « الإنسان يسوع المسيح » (٣) .

ويؤكد بولس أن الله هو سيد عيسى ومولاه « رأس المسيح هو الله » (٤) .

---

(١) يوحنا ٦ : ١٤ .
(٢) أعمال ٢ : ٢٢ .
(٣) تيموثاوس ١ ص ٣ : ٥ .
(٤) كورنثوس ١ ص ١١ : ٣ .

والحقيقة أن الوصف الذى أطلق على هؤلاء الحواريين يوضح ببساطة كل شىء، الوصف الذى أطلقه عيسى عليهم، والذى أصبحوا يتباهون به ، وصار الناس جميعا يعرفونهم به . . التلاميذ . . تلاميذ من ؟ تلاميذ عيسى . فمن يكون عيسى إذن ؟ إنه المعلم ، معلم التلاميذ، ومعلم الشريعة، ومعلم الديانة ومعلم الناس .

كان لقب المعلم هو اللقب المفضل لدى تلاميذ عيسى ، ينادونه به فيفرح له وينشرح صدره ، ما أحلاه من لفظ وما أجملها صفة تخلع على عيسى صفة المعلم والمرشد ، المعلم الذى أرسله الله ليعلم الناس طريق الحق ، وليرشدهم إلى سبيل الهدى .

ومن يتصفح الأناجيل يلاحظ بجلاء إصرار تلاميذ عيسى وأخصائه على مناداته بهذا اللقب العظيم ، نرى فى إنجيل مرقس حديثا عن عيسى « وفيما هو خارج من الهيكل قال له واحد من تلاميذه : يا معلم أنظر ما هذه الحجارة وهذه الأبنية » (١) .

وهذا يوحنا ابن زبدى تلميذ عيسى الحبيب يناديه بنفس اللقب « فأجابه يوحنا قائلا : يا معلم » (٢) .

وبطرس التلميذ الأكبر « قال بطرس ليسوع : يا معلم جيد أن تكون ههنا » (٣) .

---

(١) مرقس ١٣ : ١١ .
(٢) مرقس ٩ : ٣٨ .
(٣) لوقا ٩ : ٣٣ .

وجميع التلاميذ ينادون أستاذهم بذات اللفظ « وفيما هو مجتاز رأى إنسانا أعمى منذ ولادته فسأله تلاميذه قائلين : يا معلم من أخطأ ، هذا أم أبواه حتى ولد أعمى » (١) ؟ .

وكان تلاميذ عيسى يهتمون بأمر معلمهم ويحرصون على اشباع حاجاته الطبيعية والغريزية ، من مأكل ومشرب وراحة ونوم وحماية وحراسة ، حتى إذا نسى هو هذه الحاجات فى خضم حماسه للتعليم والوعظ ، كانوا يذكرونه بحق جسده عليه باعتباره إنسانا .

يحدثنا الحوارى يوحنا أنه فى أحد المرات كان عيسى يعظ إحدى النسوة وبقى يحادثها عدة ساعات حتى حان وقت الطعام فذكره تلاميذه وطلبوا منه أن يأكل ، يقول يوحنا « وفى أثناء ذلك سأله تلاميذه قائلين : يا معلم كل » (٢) .

وكان التلاميذ المخلصين يخافون على معلمهم النحيل أن يهلك بأيدى أعدائه أو يناله الأذى بتدبير غرمائه ، فكانوا يحرصون على إبعاده عن أماكن الخطر ، يروى الحوارى يوحنا أن عيسى أراد أن يذهب إلى بلدة اليهودية إحدى قرى إسرائيل ليعود صديقا هناك ، وكان أغلب أهل هذه القرية معروفين بعدائهم لعيسى ، فلما أخبر المعلم تلاميذه برغبته خافوا عليه وسألوه ألا يذهب حرصا على حياته ، يقول يوحنا

---

(١) يوحنا ٩ : ١ — ٢ .
(٢) يوحنا ٤ : ٣١ .

أن عيسى « قال لتلاميذه : لنذهب إلى اليهودية أيضا ، قال له التلاميذ يا معلم الآن كان اليهود يطلبون أن يرجموك وتذهب أيضا إلى هناك » .

والذى يلاحظ الجرأة والجسارة التى كان يتحدث بها التلاميذ إلى معلمهم ، دون رهبة أو تكلف أو خشية ، يملؤه اليقين بأن هؤلاء الذين خالطوا عيسى روحا وجسد والذين ناموا معه وقاموا ، لم يروا فيه سوى إنسانا عاديا لا يختلف عنهم فى شىء ، ولا يتميز منهم بغير الرسالة التى إختاره الله لها ، بل إن عيسى المعلم لم يعدم أن يجد بين تلاميذه من ينتقد تصرفاته فى غير موضوع الرسالة .

يحدثنا الحوارى يوحنا عن دهشة التلاميذ وتعجبهم عندما شاهدوا معلمهم يقف يوما بأكمله يتحدث فيه مع امرأة سامرية ، تاركا جماهير الشعب والجموع والأتباع ، ولم يشأ التلاميذ فى البدء احراج معلمهم فكتموا الأمر فى نفوسهم ، يقول يوحنا « وعند ذلك جاء تلاميذه وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة ، ولكن لم يقل أحد ماذا تطلب أو لماذا يتكلم معها »(١) وكم عارض بطرس معلمه فى تصرفاته ، وكم ناقضه فى أقواله وأفعاله ، يقول متى « فأخذه بطرس وابتدأ ينتهره » (٢) .

وسط العـائلة :

عاش عيسى وسط عائلته ، بين أمه مريم وأبيه يوسف

(١) يوحنا ٤ : ٢٧ .

(٢) متى ١٦ : ٢٢ .

وسائر إخوته وأقاربه ، لم يروا فيه شيئاً يبعده عن دائرة الآدميين أو ينأى به عن تربة البشر ، لم يرفيه أبواه غير أحد أبنائهما الخاضع لهما ، ولم يرفيه إخوته وأقرباؤه غير إنسان طيب وديع خير .

تربى عيسى وسط عائلته فغذوه وكسوه وقاموا على حاجاته ، وتعهدوه بالرعاية والعناية فكان يتقدم مع الأيام فى الحكمة والقامة عند الله والناس ، وكان مثال الابن المطيع والديه المنفذ لأوامرهما ، فاذا غاب عنهما انشغلا عليه وخافا أن يحل به مكروه ، فإذا عاد أخذاه فى أحضانهما وربتا عليه وأنباه على تأخره ، فاذا كبر اهتم بأمره ورعى شئون نفسه ، وسار فى طريق الحق ، حتى اصطفاه الله للرسالة .

وكما يحدث فى كثير من البيوت ، فان بعض الأقارب وأحيانا الأخوة تنشأ بينهم الأحقاد والضغائن ويكرهون أن يتميز عليهم قريب أو شقيق ، فيهونون من أمره ويقللون من شأنه ، بل يستهزئون به ويتندرون عليه حسدا وغيرة .

وهذا الذى يحدث فى كثير من البيوت حدث فى بيت عيسى ، لم يحدث من الأقارب البعيدين ، بل من أدنى الأقارب ، من إخوة عيسى أنفسهم ، فهؤلاء الذين كان الواجب يقتضيهم الوقوف بجوار أخيهم ومساعدته فى المهمة التى اختاره الله لها ، أنكروا نبوته وكذبوا رسالته واستهانوا به وتندروا عليه ، لم يصدقوا أنه رسول الله ، ولم يصدقوا الآيات والمعجزات التى

أظهرها الله على يديه ؟ يقول الحوارى يوحنا « قال له إخوته انتقل من هنا واذهب إلى اليهودية لكى يرى تلاميذك أيضاً أعمالك التى تعمل لأنه ليس أحد يعمل شيئاً فى الخفاء ، وهو يريد أن يكون علانية ، إن كنت تعمل هذه الأشياء فأظهر نفسك للعالم » (١) .

ويلاحظ هنا نبرة الكراهية والرغبة فى التشفى التى يتحدث بها إخوة عيسى إليه « إن كنت تعمل هذه الأشياء فأظهر نفسك للعالم » ، لم يصدقوا أقواله وأفعاله فرغبوا أن يعلنها للعالمين فينكشف أمره أمام الجميع ويعلمون أنه دعى كاذب ، ويكشف لنا الحوارى يوحنا هذه الحقيقة المريرة فى عبارته التالية فيقول « لأن إخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به » (٢) .

لقد آلم عيسى كثيرا هذه المعاملة القاسية من بنى وطنه وأهله وإخوته ، آلمه تكذيب العامة والخاصة له واستهزاؤهم به ، فصرخ بعبارته المشهورة التى صارت بعد مثلا يروى عنه ، لا كرامة لنبى فى وطنه ، « فقال لهم يسوع : ليس نبى بلا كرامة إلا فى وطنه وبين أقربائه وفى بيته » (٣) .

فى نظـر نفسـه :

كان اللفظ الذى يحلو لعيسى إطلاقه على نفسه لفظ « ابن الإنسان » فهو أحد أبناء آدم ، ابن البشر ومن ذات طبيعتهم ، ولد كما يولدون ، وعاش كما يعيشون ، وذهب كما يذهبون ،

---

(١) يوحنا ٧ : ٢ — ٤ . (٢) يوحنا ٧ : ٥ .

(٣) مرقس ٦ : ٤ ، متى ١٣ : ٥٧ ، لوقا ٤ : ٢٤ ، يوحنا ٤ : ٤٤

ويحرص عيسى طوال أحاديثه مع الناس أن يدعو نفسه بهذا اللقب « ابن الإنسان » ، ويتكرر هذا الوصف لنفسه على لسانه فى كافة الأناجيل .

(انظر مثلا متى : ٨: ٢٠ ، ١١ : ١٩، ١٢ : ٣٢—٤٠، ٢٠ : ٢٨، ٢٤ : ٣٠، ٢٦: ٣١، ٢٤ : ٢٤، مرقس ٢ : ٢٨، ٩ : ٩، ١٤ : ٤١ ، لوقا ٩: ٥٦، ١٧: ٢٤ ، ١٨ : ٨ ، يو ٣: ١٣ ، ٥ : ٢٧ ، ١٣ : ٣١ ، ٦ : ٢٧ وغيرها كثير) .

ويحدثنا الكاتب أميل لودفيج عن تصور عيسى لنفسه فيقول « لم يفكر يسوع فى أنه أكثر من نبي وليس بقليل أن يرى نفسه فى بعض الأحيان دون النبي ، ولم يحدث أبدا من يسوع ما يخيل به إلى السامع أن له خواطر وآمالا فوق خواطر البشر وآمالهم ، وما كان يسوع ليذهب إلى أبعد من ذلك فيدعى أنه المنقذ المنتظر فاذا ما قال الناس إنه أحد قدماء الأنبياء راقه ذلك موجها أفكارهم إلى ملكوت السموات ، والآن يجد يسوع كلمة جديدة صالحة للتعبير عن تواضعه بقوله عن نفسه إنه « ابن الإنسان » ، وقديما أراد الأنبياء أن يلفتوا الأنظار إلى الهوة الواسعة التى تفصلهم عن الله ، فكانوا يسمون أنفسهم بأبناء الإنسان ، ومن هؤلاء دانيال وحزقيال اللذان أظهرا الرب مخاطبا كل واحد منهما « بابن الإنسان » أى بآدمى ضعيف هالك ولد ليفنى ، ولكن مع استعداد لنيل عفو الرب » (١) .

وإذا ناداه التلاميذ باللقب الذى كان يحلو لهم إطلاقه عليه « المعلم » سر به ودعا أتباعه أن يعتبروا الله أباهم وأن

---

(١) أميل لودفيج : ابن الانسان — ترجمة عادل زعيتر ص ٩٥ .

يعتبروه معلمهم ، يقول عيسى « لا تدعو لكم أبا على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات ، ولا تدعوا لكم معلمين لأن معلمكم واحد المسيح » (١) .

وهذا المعلم ابن الإنسان لا يعلم من عنده ، ولا يتكلم من ذاته ، ولا يعظ من نفسه ، فليس التعليم تعليمه وليست الرسالة رسالته ، وليست الشريعة شريعته ، وإنما هو تعليم الله ، ورسالة الله ، وشريعة الله ، وليس عيسى إلا مبلغا ومذكرا ورسولا ، فمن قبل تعاليمه فانما يقبل تعاليم الله ، ومن يؤمن به فقد آمن بالله ، ومن يقبله يقبل الله .

حقيقة يعلنها عيسى دائما ، ويرددها بلا وجل ولا حرج ، يقول عيسى « ما أتيت لأصنع مشيئتى ، بل مشيئة من أرسلنى » (٢) .

« كما أن تعليمى ليس لى بل للذى أرسلنى » (يو ٧ : ١٦) .

لذلك فان « من قبلنى فليس يقبلنى أنا بل الذى أرسلنى » (مر ٩ : ٣٧) و « الذى يؤمن بى ليس يؤمن بى بل بالذى أرسلنى » (يو ١٢ : ٤٤) .

ولكن من هو الذى أرسل عيسى ؟ ومن هو سيد عيسى ومولاه ؟

فى محاورة بين عيسى وبعض اليهود يعلن عيسى أن مرسله هو الله ربه ورب العالمين ، ونه لا ينطق إلا بما أمر الحق تبارك وتعالى ، يقول الحوارى يوحنا « فقال لهم يسوع : لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم ، ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى ، وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى

(١) متى ٢٦ : ١٨ .

(٢) يوحنا ٦ : ٣٨ .

سمعه من الله ، هذا لم يعمله إبراهيم ، أنتم تعملون أعمال أبيكم ، فقالوا له : إننا لم نولد من زنا لنا آب واحد وهو الله ، فقال لهم يسوع : لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى لأنى خرجت من قبل الله وأتيت ، لأنى لم آت من نفسى بل ذاك الذى أرسلنى » (١) .

ويطلب عيسى من مواطنيه أن يؤمنوا به كرسول من عند الله ، يقول يوحنا « ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله ، أجاب يسوع وقال لهم : هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذى هو أرسله »(٢) . ويؤكد عيسى دواما أنه ينفذ مشيئة الله ويبلغ شريعة الله ويدعو دائما لله ، ولا يفعل من نفسه شيئاً ولا يدعو لنفسه أبدا ، وإلا كان كاذبا دعيا ، يقول عيسى « إن شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسى ، من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم » (٣) .

ويشبه عيسى نفسه بالأنبياء قبله ، بيونان ويوحنا وغيرهم من الأنبياء ، فهو نبى من أنبياء الله كالسابقين ، ورسول من رسله الصالحين ، يقول عيسى « كما كان يونان آية لأهل نينوى كذلك يكون ابن الإنسان آيضاً لهذا الجيل » (٤) .

ويقول للهود « معمودية يوحنا من أين كانت ؟ من السماء أم من الناس ؟ . . ولا أنا أقول لكم بأى سلطان أفعل هذا » (٥)

أتى مرة لزيارة أورشليم فطلبوا منه أن يغادرها لأن

---

(١) يو ٨ : ٣٩ — ٤٢ . (٢) يو ٦ : ٣٨ — ٣٩ .
(٣) يو ٧ : ١٧ — ١٨ . (٤) لوقا ١١ : ٣٠ .
(٥) متى ٢١ : ٢٣ — ٢٧ .

الحاكم هيرودس يريد قتله ، « فى ذلك الوقت تقدم بعض الفريسيين قائلين له : أخرج واذهب من ههنا لأن هيرودس يريد أن يقتلك » ، ويتضايق عيسى من هذه المعاملة السيئة ، ويتبرم بهؤلاء القوم الذين طالما أساءوا معاملة إخوته الأنبياء السابقين ، فحاربوا من شاءوا بلا ذنب ولا جريرة ، يرد عيسى على أهالى أورشليم موضحا لهم صفته كنبى من الله ، معاتبا المدينة التى طالما قتل فيها الأنبياء قبله فيقول « ينبغى أن أسير اليوم وغدا وما يليه لأنه لا يمكن أن يهلك نبى خارجا عن أورشليم ، يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها » (١) .

ويخاطب الكتاب الكريم مكذبى الرسل وقاتلى الأنبياء فيقول لهم متوعدا ، « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ، وقالوا : قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » (٢) .

وابن الإنسان عيسى كان مثال التواضع ، رفض أن يرفعه الناس فوق مرتبته ، أو يمنحوه سلطة ليست له أو يدعوه بوصف ليس فيه .

أتاه يوما رجل وسأله « أيها المعلم : مر أخى يقاسمنى الميراث » فأجاب عيسى فى دهشة « أيها الإنسان : من أقامنى عليكما قاضيا أو حسيبا ؟ » .

نعم فليس عيسى حاكما ولا قاضيا ، ولا رقيبا ولا حسيبا على الناس ، إنه فقط موضح ومنبه ومعلم ومرشد ، ليس عليه

---

(١) انجيل لوقا ١٣ : ٣١ — ٣٤ .

(٢) سورة البقرة الآيات ٨٧ — ٨٨ .

إلا البلاغ ، يقول سبحانه لرسوله الكريم : « فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » .

أتى رجل إلى عيسى ووصفه بالصلاح ، يقول الحوارى متى « وإذا واحد تقدم وقال له : أيها المعلم الصالح ، أى صلاح أعمل لتكون لى الحياةالأبدية . فقال له : لماذا تدعونى صالحا ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله » . حتى صفة الصلاح رفض عيسى أن يتصف بها ، فابن الإنسان شأنه كسائر إخوته البشر ، قد يصيب وقد يخطىء ، وقد يحسن وقد يسىء ، وقد يصلح وقد يفسد ، ولا صالح إلا الله ، رب عيسى ورب الناس أجمعين .

يورد الحوارى برنابا فى إنجيله إعلان عيسى للناس مؤكدا لهم عبوديته لرب العالمين ، مبرئا نفسه من ترهات المشركين والكافرين ، يقول عيسى « إنى أشهد أمام السماء ، وأشهد كل ساكن على الأرض أنى برىء من كل ما قال الناس عنى من أنى أعظم من بشر ، لأنى بشر مولود من امرأة وعرضة لحكم الله ، أعيش كسائر البشر عرضة للشقاء العام » .

ولقد بلغ تواضع عيسى قمته ، وبلغ انسحاقه غايته ، فكان يغسل بنفسه أرجل تلاميذه ، وينحنى بهامته تحت أقدام التلاميذ ، يأخذ أرجلهم المتسخة بين يديه النظيفتين ، ويصب عليها الماء ويدلكها بالصابون فى عناية ثم يمسحها بالمنشفة ، يروى يوحنا أن عيسى « قام عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ

منشفة واتزر بها ، ثم صب ماء فى مغسل وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التى كان متزرا بها » (١) .

هذا التواضع وهذا الانسحاق هو الذى دعا بولس أن يشبه عيسى بالعبد ، يقول بولس عن عيسى « أخلى نفسه آخذا صورة عبد » (٢:٦) وصدق بولس ، وصدق الناس ، وصدق عيسى قبل الجميع فعيسى حقا هو العبد ، عبد الله ورسوله ، نعم العبد الصادق الأمين ، كان أمينا فى القليل فأقامه الله على الكثير . وضع نفسه فى موضعها ، والتزم طبيعته وحدوده ، لم يرض أن يغتصب شيئاً ليس له ، أو يدعى صفة ليست فيه .

نعم العبد الصالح ، الذى أبلغ الرسالة . وأدى الأمانة ، فاستحق رضا الله والناس ، وصلاة الله والملائكة . ونعيم الله وجناته ، « قالَ إنى عبدُ اللهِ آتانىَ الكتابَ وجعلنى نبياً وجعلنى مباركاً أين ما كنتُ وأوصانى بالصَّلاةِ والزكاةِ مادمتُ حيا ، وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقيا ، والسلامُ علىَّ يومَ ولدتُ ويومَ أموتُ ويومَ أبعثُ حيا ، ذلك عيسى بنُ مريمَ ، قول الحق الذى فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، وإنَّ الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراطٌ مستقيم » (٢) . صدق الله العظيم

((تم بحمد الله))

---

(١) انجيل يوحنا ١٣ : ٤ — ٥ .
(٢) سورة مريم ٣٠ — ٣٦ .

الفهـــرس

ولدت لأعبد المسيح ، ولأرفعه إلهاً فوق الآلهة ، فلمّا شببت ، شككت ، فبحثت عن الحقيقة ونقّبت فعرفت ، وناداني المسيح : ياعبد الله ، أنا بشر مثلك ، فلا تشرك بالخالق وتعبد المخلوق ، ولكن اقتد بي واعبده معي ودعنا نبتهل له سويًّا «أبانا وإلهنا ، حمدك وسبحانك رب العالمين ، إيّاك نعبد وإيّاك نستعين» ، ياعبد الله أنا وأنت وباقي الناس عبيد الرحمٰن .

فآمنت بالله ، وصدّقت المسيح ، وكفرت بالآلهة المصنوعة» .

المؤلف



الناشر
دار النهضة العربية
٣٢ شارع عبد الخالق ثروت ــ القاهرة

مطبعة دار الهنا